مصطفى كامل



اهداءات ٢٠٠٢

الشيخ/ عبد العزيز توفيق جاويد

شيخ المترجمين- القاهرة

مكتبة

شيخ المترجمين

عبد العزيز توفيق جاويد



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



فتحي رضوان

مصطفى كامل

اقرأ ٣٩٠

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٩٠ – ديسمبر سنة ١٩٧٤

للمؤلف

من مطبوعات دار المعارف

من مسلسلة إقرأ

وله أيضاً

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

قرن مضى

مصطفى كامل ولد فى ١٤ من أغسطس سنة ١٨٧٤ . . ونحن الآن فى ديسمبر سنة ١٩٧٤ .

فيكون قرن كامل من الزمان قد مضى ، منذ رأى مصطفى النور حتى وضع هذا الكتاب المتواضع بين يديك ، وفوق القرن بضعة أسابيع . ولكن أية مائة سنة على مولد هذا الشاب الفريد الفذ ، فى تاريخ الحركات الوطنية ؟

إنها بغير مبالغة أعظم مائة سنة عرفتها الإنسانية؛ فإنها لم تشهد مثلها قط ، وقد لا تشهد مثلها أبداً .

ولكى نعرف نصيب هذا الكلام من الحق والصحة، سنحصى فقط الأحداث الكبرى التى مرت فى هذه المائة السنة العظيمة .

عرفت الإنسانية ، خلال هذه الحقبة من الزمن ، أعظم مكتشفاتها العلمية وأعظم تطبيقات هذا العلم العملية ، منذ اهتدت إلى النار ، وإلى السفينة ذات الشراع ، وعرفت أصول الفلك ومبادىء الرياضة .

فقد انتقل الإنسان من النار إلى البخار ، فالكهرباء ، فالبترول ومشتقاته ، فالذرة . وعرفت الإنسانية فى مجال الانتقال والاتصال : العربة التى تجرها الجياد والبغال ، فالقطار ، فالباخرة ، ثم الطيارة فالصاروخ فالمركبة الفضائية .

كما عرفت التصوير الشمسى ، فالسينما ، أى الصور المتحركة ، فالتليفزيون أى الصورة المرسلة من بعيد ، وعرفت من هذا التليفزيون ما يعمل بالكهرباء ، وما يعمل بالبطاريات الجافة .

وكانت قد عرفت قبل ذلك الاتصال عن بُعد بالسلك ، بنقل الصوت (التليفون) ونقل الإشارة (التلغراف) ، ثم سجلت الصوت على أقراص وعلى اسطوانات الفونغراف ، ثم نقلت الصوت بغير أسلاك (الراديو) ، ثم انتهت إلى الترانزستور ، أعجب مخترعات الإنسان ، الذى أصبح فى مقدوره أن يتصل بأربعة أركان المعمورة ، يسمع الخبر والحديث والقصة والمحاضرة ، والبحث العلمى ، والمسرحية ، عن طريق صندوق صغير ، ينتقل به فى السيارة والطيارة ، ويأخذه معه إلى فراش نومه ، يؤنسه ويسليه ، حتى يعقد النوم أجفانه .

هذا الإنسان الخلاق المبدع عرف فى هذه المائة من السنوات حروبًا طاحنة ، أتت على الأخضر واليابس ، وأهلكت الحرث والنسل ، ولكنها كانت كلها كلعب الأطفال وعبثهم ، إذا قورنت بحرب سنة ١٩١٤ التى انتهت فى سنة ١٩١٨ ، فقد سقط فيها الملايين من شباب الأمم المتمدينة ، بل أكثر الأمم تمدينًا وعلمًا وحضارة وتذوقًا للفن والثقافة : هدمت فيها مدن ، وهام بسببها الملايين على وجوههم جياعًا وعرايا ، ثم لم ينقض على تلك المجزرة أقل من عشرين عامًا حتى وقعت مجزرة أخرى أكثر هولا شملت الدنيا كلها من أمريكا فى أقصى الغرب ، إلى اليابان والصين والهند فى أقصى الشرق ، إلى مصر وبلاد العرب فى وسط الدنيا . فضاعت عشرات البلايين من ثروات الأمم ، فى شكل مدن تهدمت ، وثروات فنية تبددت ، وسدود وجسور ، ومصانع ومزارع ؛ وكتب وتحف ومعارض ومتاحف ، تحطمت وتبعثرت شظايا فى الهواء . فى هاتين الحربين عرف الإنسان أسلحة دمار جديدة : الطيارة والدبابة والمدافع البعيدة المدى والغازات الخانقة .

فى الحرب العالمية الأولى زالت من الوجود إمبراطوريات عتيدة ، كان يخضع لها مئات الملايين ، وكان وجودها من معالم الإنسانية .

زالت إمبراطورية الألمان ، وإمبراطورية الروس ، وإمبراطورية الأتراك ، وإمبراطورية النمسا والمجر ، وثُلّت بعدها عروش فى إيطاليا ، ويوغسلافيا ورومانيا وبلغاريا وألبانيا وإسبانيا والبرتغال ، كما ثلت عروش فى مصر وتونس وليبيا والعراق واليمن . وقبل ذلك زالت ملكية الصين . وأن تزول الملكية فى مصر وفى الصين معناه أن أقدم ملكيات التاريخ ، التى عاشت آلاف السنين ، قد اختفت .

وفى هذه الفترة وقعت أكبر ثورة اجتماعية ، فالروس بعد أن قطعوا رأس مليكهم ومليكتهم فى ثورة قامت فى أكتوبر سنة ١٩١٧ أسقطوا رأس المال والملكية الفردية ، وجعلوا الدولة هى المالك الوحيد ، وبعد أربعين سنة ، اعتنقت هذا النظام الصين ، أى سدس العالم . وبعد قليل من نشوب هذه الثورة قامت ثورتان أخريان فى ألمانيا وإيطاليا ، هما ثورتا الفاشستية والنازية اللتان جعلتا من عبادة الزعيم مذهباً ومن القوة وتقديسها ديناً ، ولم يسقط المذهبان إلا فى أتون المجزرة الثانية التى انتهت فى سنة ١٩٤٥ ، بعد أن أسقطت إمبراطوريات لم تكن تحمل اسم الإمبراطورية ، وإن كانت أغنى وأقوى ما عرفه التاريخ من أشكال السلطان : إمبراطورية البريطانيين التى شملت أكثر العالم ، وإمبراطورية الفرنسيين التى أخذت مكانها إلى جانب شقيقتها البريطانية ، وإمبراطورية اليابانيين التى بدأت تزحف نحو الشرق ابتداء من الصين ، والتى استطاعت فى أقل من سنتين أن تقوض سلطان الأمريكيين والبريطانيين فى الشرق حتى قرعت بقبضتها باب الهند .

ولما أنهكت الحروب الإنسان ، وملأت نفسه هموماً ، حاول أن ينشئ للنظام الدولى وللسلام العالمى هيئة أسماها لأول مرة «عصبة الأمم» عاشت من سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٨ ، ثم لفظت أنفاسها حين قامت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ بعد أن ثبت للجميع أنها خالية من الروح والمعنى ، وأنها وسيلة الأقوياء لاستعباد الضعفاء . وبدأت المحاولة

الثانية فى سنة ١٩٤٥ ، لإنشاء هيئة الأمم المتحدة ، ولا تزال إلى اليوم كسابقتها ، لا تحقق أملا ، ولا ترد حرباً ، ولا تعين على حل مشكلة . أتوا بها لتحل المشكلات ، فكانت هى أكبر المشكلات .

وفى خلال هذه التطورات ، وقعت ثلاث حركات تحرير كبرى ، لا تقتصر على شعب ، ولم تحققها أمة وحدها . إنها حركات الإنسان كله .

الأولى : حركات تحرير الشعوب ، فقد سقط الحكم الأجنبى فى أكثر العالم ولم يعد من المستعمرات الآن سوى ثلاث أو أربع ، ولن تنقضى سنوات ، حتى تحطم الباقى من أغلالها . ولا أدل على ذلك من أن هيئة الأمم ، ممثلة الشعوب ، حينما بدأت حياتها سنة ١٩٤٥ كانت تضم ٥٠ دولة ، لم يكن بينها من دول السود والسمر إلا اثنتان : الحبشة وليبيريا ، والآن تضم نحو ١٣٥ دولة ، ثلاثة أرباعها من السود والسمر والصفر .

والثانية : تحرير العمال من ربقة صاحب العمل ومالك رأس المال . فقد أسسوا لأنفسهم ما عرفه القرن الذى نتحدث عنه بالنقابات تضم عمال كل صناعة ، وتكون من هذه النقابات قوة قوامها ملايين العمال الذين يصنعون كل شيء : الإبرة فالسيارة ، فالطيارة ، ويغزلون وينسجون ، ويشكلون المعادن ، وينتجون الأسلحة ويقيمون العمائر ، ويخلقون ثروات تقدر كل عام بالبلايين ، كما تحقق أرباحاً بالبلايين .

والثالثة : أصبحت المرأة شريكة الرجل تقرأ ، وتكتب ، وتعلم الناس فى الجامعات ، وتطير فى الفضاء ، وقد أصبح لها حق انتخاب من يحكمون بلادها ، ثم حق ترشيح نفسها للحكم ، فوصلت إلى المجالس التشريعية ، ثم أصبحت وزيرة ، فرئيسة للوزراء . والطريف أنها وصلت إلى هذا المنصب فى الشرق دون الغرب ؛ فى الشرق وحده الآن .!

على أن أكبر ماصنعته الإنسانية فى هذا القرن ، بعد أن أصبحت الطيارة قادرة على أن تطير بأكثر من سرعة الصوت ، وبعد أن أصبحت

الدنيا قرية صغيرة . يقطع المسافر المسافة من أقصاها إلى أقصاها في ساعات ، وينطلق الخبر فيها من مكان إلى مكان في لمح البصر أن استخرجت من أصغر الأشياء ، وأبعدها عن الخضوع لحواس الإنسان ، أعظم الطاقات ، وأضخم القدرات : استخرجت من الذرة التي لا ترى بالعين ولا تمسك باليد ، قوة قادرة على أن تبيد أكثر العالم بكرة صغيرة . تلقيها طيارة فيفتح الجحيم أبوابها . ويبسط الفناء ظلاله . وتتهاوى الدول وتشتعل البحار ناراً ، ويصبح الظلام نهاراً . تتحول الحضارة والحياة هلاكاً ودماراً . . وقد جرب الإنسان الشقي التعس هذه الطاقة المنبعثة من الذرة ، أصغر جرم في هذا الكون . بقنبلتين ألقاهما في أغسطس من سنة ١٩٤٥ ، على مدينتين في اليابان . وفي لحظات رفرف الموت بأجنحته الكالحة الكريهة على القصور والدور والشوارع والميادين والملاهي والجامعات ، فإذا كل شيء خراب .

ولكن إلى جانب هذا الجنون كان الإنسان كالعهد به لا يرتكب حماقة حتى يقابلها بأعجوبة من أعاجيب عقله الخلاق المبدع .

لقد استطاع الإنسان بفضل هذه القدرة التي أودعها الله في عقله ونفسه ، أن يصعد إلى القمر فيقطع في ساعات مسافة ٣٠٠ ألف كيلومتر ، وأن ينطلق من جاذبية الأرض . وأن يسبح في الفضاء ، ثم يضع قدمه على سطح هذا القمر البعيد ويسير ؛ حيث لا هواء ولا ماء ولا جاذبية . . . ثم ينطلق من القمر إلى المريخ والزهرة . . إنه يود أن يحيط بهذا الكون ، فان شغفه بالمعرفة لا يشبع ، وحبه للجديد لا ينفد ، وميله للمجازفة والمخاطر لا ينتهي .

وإلى جانب هذا ، وبفضله ، ارتاد الإنسان مئات الجوانب المجهولة من حياة الإنسان ونفسه وعقله وأعصابه وما يفكر فيه ، وما يحلم به ، ونشأت من ذلك علوم جديدة كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم أجناس الإنسان وثقافته ، وعلم الاقتصاد ، وتخطيط المدن ،

والمحيطات ، والجريمة والإحصاء . . ونازل عشرات أمن الأمراض التى كانت أوبئة مدمرة، فضبطها وألجمها، وما زال يصارع الخفى من الأمراض والعلل، يتعثر ويقف، ويخفق وينجح، ولكنه لا يمل ولا ييأس. . .

واستطاع بمنتجات الكهرباء والفزياء والكمياء أن يجمّل الحياة ، ويضع فى خدمة الإنسان البسيط مفاتن الثقافة وروائع الفن ، ولكنه يأبى إلا أن يفسد كل شىء جميل يصنعه، وأن يدمّر كل شىء عظيم يخلقه . . السياسة تمسك بخناق أزمات المال ، لتفضى إلى أزمات الحروب ، وهكذا أعطى الحياة شقاء لا حدود له وسعادة لا مثيل لها . .

كل ذلك تم فى هذا القرن . . أليس هو أعظم القرون ؟

وفى مصر وقعت ، خلال هذه المائة الفريدة من السنوات ، أمور لم يقع مثلها فى قرون مضت :

* ففى هذه المائة سنة وقعت ثلاث ثورات : ثورة سنة ١٨٨٢ ، وثورة سنة ١٩١٩ ، وثورة سنة ١٩٥٢ . وبين الواحدة والأخرى ثلاث وثلاثون سنة تقريبًا .

كما وقعت ثورة السودان الأولى فى سنة ١٨٨١ ، وهى ثورة المهدى، ثم وقعت الثورة الثانية فى عام ١٩٢٤ بقيادة الضابط على عبد اللطيف احتجاجًا على طرد الجيش المصرى من السودان .

* وفى هذه السنين المائة عزل أربعة من الملوك : عزل الإنجليز اثنين هما : إسماعيل سنة ١٨٧٩ ، وعباس سنة ١٩١٤ . وبين العزلين ٣٥ سنة .

وعزل الشعب اثنين هما : فاروق بعد ٣٨ سنة ، ثم فؤاد الثانى بعد سنة .

* وفى هذه السنين المائة سقطت الملكية المصرية أقدم الملكيات فى تاريخ الإنسانية ، الملكية التى استمرت خمسة آلاف سنة متصلة لم يتخللها حكم جمهورى ولو لساعة .

• فى هذه السنين المائة فقدت مصر استقلالها ، واستردته مرتين . فقدته سنة ١٨٨٢ ، ثم استردته سنة ١٩٥٦ ، ثم عادوا إلى احتلالها فى السنة نفسها ، بعد أشهر ، ثم جلوا عنها أيضًا فى السنة نفسها بعد أشهر كذلك

• فى هذه السنين المائة وقع حريقان سياسيان الأول فى الإسكندرية فى ١١ يولية سنة ١٨٨٢ ، وكان نذيراً بالاحتلال وضياع الاستقلال ، والثانى فى القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، وكان بشيراً بسقوط الملكية ، وزوال الاحتلال ، وعودة الاستقلال .

• فى هذه السنين المائة تحول النيل سنة ١٩٦٤ عن مجراه الطبيعى للمرة الثانية ، بعد أن حوله مينا منذ ثلاثة آلاف سنة .

• فى هذه السنين غاب اسم مصر ، البلد الوحيد الذى ذكر فى القرآن خمس مرات صراحة وأكثر من عشرين مرة بطريق الوصف والكناية ، كما ذكر فى التوراة ، غاب عندما تمت الوحدة بين مصر وسوريا ، ولكنه عاد بعد اثنى عشر عامًا .

• فى هذه السنين المائة زالت أنظمة كانت تبدو مقدسة وخالدة لا تزول : زال الوقف والحكر ، والامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة ، والمجالس الملية والشرعية .

• زال من فوق الرءوس الطربوش الأحمر ، وبقى مكانه شاغراً :

• فى هذه السنين المائة فقدت ملكية الأرض الزراعية قداستها التى صاحبت آلهة المصريين القديمة ، وانتقلت إلى الفلاح لتكون من مقدساته التى يجود فى سبيلها بالحياة . أصبح الحد الأعلى للملكية الزراعية مائتى فدان ، فمائة ، فخمسين . وعرف المصرى « الإصلاح الزراعى » لأول مرة .

• فى هذه السنين المائة سقط أيضًا النفوذ الأجنبى الذى استأثر بالمصارف وبالوكالات التجارية وشركات التأمين ، وأقام له قلاعًا فى مدارسه

التى لا تعلم العربية ولا التاريخ المصرى ، عادكل ذلك إلى المصرى ، يملكه ويديره ويشرف عليه .

* فى هذه السنين المائة حقق المصريون ثلاثة آمال : الدستور والجامعة والمصرف القومى .

* عرف المصريون من الدساتير : اثنين فى عهد إسماعيل : دستور سنة ١٨٦٦ ودستور شريف المقترح سنة ١٨٧٩ .

واثنين فى عهد توفيق : دستور سنة ١٨٦٦ ، ودستور الثورة العرابية فى ٢ يناير سنة ١٨٨٢ .

واثنين فى عهد عباس : دستور اللورد دوفرين ، أول مايو سنة ١٨٨٣ ، دستور اللورد كتشنر ، أول يولية سنة ١٩١٤ . الأول أنشأ مجلس شورى النواب والجمعية العمومية ، والثانى أنشأ الجمعية التشريعية .

واثنين فى عهد فؤاد : سنة ١٩٢٣ ، وسنة ١٩٣٠ .

واثنين فى عهد الثورة الأول : ١٩٥٦ و ١٩٥٨ المؤقت .

واثنين فى عهد الثورة الثانى : ١٩٦٤ ، ١٩٧١ .

* وعرفت مصرجامعتين : أهلية سنة ١٩٠٨ ، ورسمية سنة ١٩٢٦ . ثم عرفت جامعة الإسكندرية فأسيوط فطنطا فالمنصورة فالزقازيق .

* وولد بنك مصر فى مايو سنة ١٩٢٠ .

* فى هذه السنين المائة عرفت زعيم الوطنية الأول ، مصطفى كامل ، بعد زعيم ثورتها الأولى أحمد عرابى ، ثم زعيم اقتصادها الأول : محمد طلعت حرب ، وشاعرها الأكبر : أحمد شوقى ، ومثالها الأول : محمود مختار وملحنها الأول : سيد درويش .

* فى هذه السنين المائة عرفت مصر ، بعد مقتل كليبر فى مطلع القرن التاسع عشر ، على يد سليمان الحلبى : القتل السياسى .

ففى هذه السنين المائة قتل ثلاثة من رؤساء الوزارات ، وشرع فى قتل سبعة ، كما قتل وزير واحد ، وشرع فى قتل أربعة .

وقتل من رؤساء الأحزاب ثلاثة . وشرع في قتل اثنين .

* وفي نوفمبر سنة ١٩٢٤ قتل الضابط البريطاني السيرلي ستاك باشا حاكم السودان العام ومفتش الجيش المصري ؛ وترتب على قتله طرد الجيش المصري من السودان . ثم قبض على سبعة من شباب مصر ، الذين قاموا بالعمل السري الوطني سنين . وهم الدكتور شفيق منصور ، والطالبان الشقيقان عبد الحميد وعبد الفتاح عنايت ، والعاملان إبراهيم موسى وراغب حسن . والموظفان : محمود راشد ومحمود إسماعيل ، وشنقوا جميعاً ماعدا الثالث فقد عفي عنه . رحمهم الله جميعاً وغفر لهم .

* في هذه السنين المائة وقعت أكبر فضائح السياسة الدولية ، تلك هي إنشاء إسرائيل على أرض فلسطين . وقد هزت هذه الفضيحة العالم ، ولا تزال مصدراً للقلاقل والاضطرابات التي تدني هذا العالم من شفا الحروب العالمية .

فكانت تحديا للعرب . ليرأبوا الصدع في وحدتهم وليشحذوا ملكات التنظيم والتخطيط . وحشد القوى . وحسن الاتصال بالمنابر الدولية ليتسنى عرض القضية . بنجاح . وكسب الأصدقاء ، وتحليل الأحداث ، وإعداد الدعاة والخبراء والباحثين .

* في هذه السنين المائة حدث أعظم تطور في مجال المال والاقتصاد والسياسة معاً . فقد أصبح الشرق العربي سيد أعظم رصيد للنفط ؛ مصدر الطاقة التي تعتمد عليها الصناعة والزراعة والحرب والسلم ، والثقافة والعلم ، كما أصبح الشرق العربي مالك أعظم المال ، السيد الأكبر للدول والجماعات والأفراد . والشرق العربي في أعز موقع من العالم : بين القارات ، في موطن الحضارات ، ومهبط الرسالات ، فهل يخرج من كل هذا شيء جديد لعالم جديد بفكر جديد ؟

هذا ما تطرحه علينا المائة سنة الماضية .

الفصل الأول

الحياة والموت

تتعاقب الحياة والموت فى كل بيت : يولد طفل ويموت شيخ ، ولكن على غير وتيرة ثابتة . فقد يموت طفل ويبقى شيخ حتى يبلغ أرذل العمر : فالموت والحياة هما المفاجأتان الدائمتان للإنسان ، يغيب عنا من نتصور طول عمره ، ويهل علينا من لا ننتظر قدومه ، ويشفى الميئوس من علاجه ، وتنتهى حياة من يبشر بحياة مليئة بأسباب القوة . ولولا هذا التجديد المستمر فى منهج هذين الضدين المتكاملين لفاضت حياة البشر رتابة وسأماً .

وقد كان للحياة والموت المنهج نفسه فى بيت مصطفى كامل .

كان والد مصطفى كامل ريفيًّا ، ولد فى سنة ١٨١٤ فى قرية « كتامة الغاب » التابعة لمركز طنطا ، وكان أبوه من تجار الفلاحين يتجر فى الغلال ، ولو لم يأت عهد محمد على ، ويفتح المدارس لأبناء التجار والعمد والمشايخ ليصنع منهم موظفين فى الحكومة ومهندسين وأطباء فى الجيش المصرى وإداراته ومستشفياته وبناء الكبارى والجسور له ، لو لم يأت هذا العهد لبقى « على محمد » والد مصطفى فى القرية يتلقى مبادئ القراءة والكتابة وقواعد الحساب الأصلية ، ويحفظ نصيباً من القرآن ، ويعين بعد ذلك فى تجارة أبيه ، ويخلفه بعد موته . ولكنه اختير وهو فى العاشرة ، مع أنداده ، ليلحق بمدرسة « طرة » وكان من زملائه الصبى إسماعيل محمد ، الذى أثبت فيما بعد أنه مهندس نابه ، وقد اختير آخر الأمر رئيساً لمجلس شورى القوانين فى عهد الخديو توفيق ، بعد أن منح رتبة الباشوية . ولما ذهب « على محمد » إلى المدرسة

بطرة ، حرص أبوه على أن يؤجر له بيتاً على مقربة منها ، وأن يرسل معه والدته لتوفر له ما يلزمه من أسباب الراحة ، فقدكان التغرب عن الأهل فى تلك الأيام محنة لا يسهل احتمالها عند أهل القرى المصرية ، وقد سعى والده لدى ناظر المدرسة « سليم أغا » حتى يأذن لابنه أن يخرج من المدرسة متى شاء، بعد ساعات الدرس — ليأوى إلى أمه ويأنس بها ، وهذا عمل إن دلّ على شدة حب الوالد لولده فإنه يدل أيضاً على أن الوالد كان ميسور الحال ، لأن إعداد منزل إلى جانب المدرسة غير بيت العائلة عبء لايحتمله ريفى محدود الدخل. وانقضت على التلميذ « على محمد » أربع سنوات فى المدرسة ، فلما كانت سنة ١٨٢٨ تخرّج فيها وهو على رأس أقرانه ، ومنح رتبة الملازم الثانى ، فى سلاح المدفعية ، ثم عين معيداً فى المدرسة التى تعلم فيها مما يدل على كفايته واقتداره .

ولم يكد الملازم الأول يتخرج ويتسلم وظيفته فى مدرسة طرة حتى زوجته والدته ، لتكتحل عيناها برؤية أولاده ، ولكن الحياة أبت إلا أن تلعب إحدى لعبها المفضلة ، فقد بقى الأب الشابّ الصحيح البدن ، محروماً من الأولاد حتى انتهت فترة شبابه ، وبدأ عهد الرجولة ، إذ رزق بأول بنيه واسمه « محمد » وهو فى الثانية والأربعين ، أى بعد أكثر من اثنين وعشرين عاماً من زواجه ، وقد كتب لمحمد هذا ألاّ يكمل الخمسين وأن يموت فى الثامنة والأربعين فى سنة ١٨٦٦ ، وهى سن — حسب متوسط الأعمار فى مصر — تعتبر سناً صغيرة ، وقد أتم محمد تعليمه واشتغل بالصيدلة ، وقد رزق بدوره أولاداً كان منهم الأستاذ أحمد زكى كامل الذى بلغ أعلى مراتب السلك القضائى ، إذ عين مستشاراً بمحكمة النقض . ثم رزق على أفندى محمد ابنه الثانى سليمان علوى الذى أتم دراسة الحقوق وعين فى المحاكم المختلطة ، ثم توفاه الله شاباً فى التاسعة والعشرين من عمره ، وذلك فى سنة ١٨٨٧ ، ثم رزق أطول أولاده عمراً وهو حسين واصف الذى تخرج من مدرسة الهندسة

(المهندسخانة) ، ثم عمل فى مصلحة الرى مهندساً ، ورقى إلى وظيفة المفتش ، وعين وزيراً للأشغال ومنح رتبة الباشوية . وكان بالنسبة لمصطفى وإخوته رب الأسرة ، يحبونه ويطيعونه ، ويفخرون به ، وهو يرعاهم ويحسن توجيههم .

وماتت زوجة على أفندى الأولى ، فتزوج ابنة المهندس عبد الرحمن خليل ، فرزق منها ولداً نابهاً أتم تعليمه فى مدرسة الطب ، ولكنه لم يكد يفرغ من الدراسة ويستقبل الحياة العملية ، حتى أصيب بحمى التيفوس، فوافاه أجله فى السادسة والعشرين من عمره فى الثامن من سبتمبر سنة ١٨٨٦ ، وكان يستمع فى صباح ذلك اليوم إلى مقال كتبه أخوه مصطفى ونشرته له إحدى الصحف اليومية ، وفى مساء هذا اليوم نفسه فاضت روحه فى الساعة الثامنة مساء وكان مصطفى عند وفاة أخيه عبد الفتاح فى باريس، فقرأ نعيه وهو فى قهوة «كافيه دى لابيه » فى إحدى صحف القاهرة فأبرق إلى أخيه : هل صحيح مانشر عن أخينا ؟ وكان عندما وقع نظره على النعى دارت به الدنيا ، وكاد يسقط إلى الأرض لولا أن تداركه اثنان من أصدقائه : عمر لطفى القانونى الكبير وأحمد زكى الذى عرف بعد ذلك « بأحمد باشا زكى شيخ العروبة » . ولما تلقى مصطفى رداً على برقيته من كلمتين اثنتين « عليك بالصبر » ساءت صحته، وأرسل يقول لأهله : إنى مريض للغاية ، وفى حالة خطرة ، سأبرح مرسيليا السبت على الباخرة كليوباترة ، فأصل إلى الإسكندرية الخميس صباحاً ، أرسلوا أخى علياً ينتظرنى» .

وهذا وحده يرينا جانباً من شدة إحساس مصطفى ، وتأجج عاطفته ، وتعلقه بمن يحبهم تعلقا شديداً .

وفى سنة ١٨٦٨ تزوج على أفندى محمد للمرة الثالثة من السيدة حفيظة بنت اليوزباشى (النقيب) محمد أفندى فهمى ، فرزق منها فى سنة ١٨٧٠ ابنه على فهمى . وفى سنة ١٨٧٤ ولدله أعظم أبنائه :

مصطفى كامل ، وكان الأب يومذاك فى الستين من عمره ؛ ثم رزق ثلاثة أولاد ذكور توفوا جميعاً وهم أطفال ، ثم رزق حسن حسنى كامل الذى عمر حتى تجاوز الثمانين ، كما رزق بنتين هما نفيسه وعائشة .

فهذه عائلة عرفت كل ما تجود به الحياة وكل ما يجود به الموت (إن كان الموت يجود) من أحداث : فمن بينها من مات طفلا ، وفيها من مات شاباً ، وفيها من عمر حتى تجاوز الشيخوخة وبلغ الهرم ، وفيها من مات على فراش المرض ، مات ثلاثة من الأطفال ، ومات ثلاثة من الشبان هم سليمان علوى فى التاسعة والعشرين ، وعبد الفتاح فى السادسة والعشرين ، ومصطفى كامل فى الرابعة والثلاثين . وفيها من مات فجأة ، ومن هؤلاء الوالد نفسه على أفندى محمد ، فقد مات بالسكتة القلبية فى الثانية والسبعين وذلك سنة ١٨٨٦ ، وكان ابنه مصطفى فى الثانية عشرة.

كما مات على فهمى كامل فجأة موتة جديرة بالأبطال : مات وهو فى السادسة والخمسين على المسرح حتماً لاوفعلا ، بعد أن عاش بعد أخيه وأستاذه وزعيمه مصطفى كامل ثمانية عشر عاماً . وكان مساعداً نشيطاً لأخيه يخطب ويكتب فى الصحف ، ويشرف على إدارتها وعلى المدرسة التى حملت اسم مصطفى كامل ، ويضطهده الإنجليز إبان عمله ضابطاً بالجيش ، ويدخل السجن بعد ذلك ، وقد اجتمع فى شخصه المقاتل بالبيان والمقاتل بالسنان ، فقد كان ضابطاً ، ثم تعلم القانون واشتغل بالمحاماة .

وفى اليوم الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر سنة ١٩٢٦ كان الوطنيون يحتفلون بذكرى محمد فريد فى سينما متروبول بالقاهرة ، وبعد أن خطب « على » خطبة ، على طريقته وبأسلوبه المتدفق الذى تتوارد بفضله على ذهنه الخواطر ، وتتلاحق على لسانه الألفاظ ، ويدوى صوته مجلجلا راعداً ، جياشاً بالعاطفة ، جلس فتعثر فى حركته فسقط على الأرض ، فحسب الناس أن ذلك عثرة قدم ، أو لحظة إغماء ، .

إلا أن الأطباء أعلموا أن القضاء قد حم . فضج المكان بالنحيب وعلت الأصوات بالعويل . وفتش ملابسه الذين حملوا جثمانه إلى داره. ليخرجوا منها ما عسى أن يكون فيها من نقود أو أوراق حرصاً عليها من الضياع . فلم يجدوا معه . إلا ما يكفى للعودة إلى المنزل فى قطار الترام!! أى عدة قروش ؟

ولقد مات على دون أن يتزوج ، كما لم يتزوج أخوه مصطفى، وهؤلاء الشبان ماتوا قبل أن يأخذوا من الحياة نصيباً : لا الزوجة ولا الولد ولا المنصب ولا العمل . . .

ولكن من أية طبقة كان هذا الوالد . الذى امتحن بأشق ما يمتحن به الرجل : ثكل الولد وفقد الزوجة .

أورد عنه على فهمى كامل : فى كتابه عن أخيه مصطفى كامل ، أمرين يدلان على خلقه ، وعلى صفاته الممتازة . وهما ثباته ورباطة جأشه ، وقوة خلقه ، فقد قال : قد ترك بعد وفاته ضمن كتبه وورقه خمساً وخمسين نتيجة زمانية (أجندة) لخمسة وخمسين عاماً .

ثم قال : توفى الكثيرون من إخوانه وأقرانه فقام بالنيابة عنهم فى تربية أبنائهم ومؤاساة عائلاتهم حتى كان يوماً وكيلا عن ٣٢ عائلة ، وكان يسميه أهل الصليبة « أبو اليتامى » . وقد شهد فى حقه على باشا مبارك ، وزير المعارف العظيم. ورائد التربية والثقافة فى مصر ، بعد رفاعة الطهطاوى ، شهادة جديرة بأن تذكر من رجل عادل حسن التقدير ، كعلى مبارك : قال عن المرحوم على أفندى محمد : كان معيداً علىّ فى مدرسة طرة فسأله ابنه « على » عن سبب تخلفه عن إخوانه الذين وصل منهم إلى الوزارة عديدون وإلى المناصب الأخرى غير قليلين فقال: إنه كان من جهة وحيد والدته فلم ترض أن يسافر ، ولم يرض أن يتركها مع أول إرسالية مصرية إلى أوروبا ، ومن جهة

أخرى كان شديد المراس أبىّ النفس لا يعرف التملق ولا النفاق ، وقد كنا جميعاً نحبه ونجله كثيراً » .

ولا شك فى أن هذه الشهادة هى الحق كله ، فقد عرفت ، على محمد ، فى أولاده الذين جمعتنى بهم الأيام بعد وفاته ، ومن كان منهم ناجحاً ، ومن كان منهم قليل الحظ من النجاح . فقد كانت فيهم صفة مشتركة هى الصوت الجهير ، والثقة بالنفس ، والميل إلى إعلان الرأى والجهر به ، وكره المجاملة إذا كانت على حساب الحق .

وكل واقعة من هذه الوقائع التى ذكرها ابنه ذات دلالة عظمى : فأن يحتفظ رجل من أوساط الناس بيوميات يقيد فيها ما يجرى له يوماً بعد يوم حتى يكمل العام ، ثم يبدأ فى العام الجديد ، بتقويم جديد (أجندة) يثابر فيها على القيد ، ويحتفظ بها سليمة ، ويتركها لأولاده ، تصور حياته وأهم ما جرى لها فيها لا سنة ولا عشراً ولا عشرين ، بل خمساً وخمسين سنة ، فإن هذا عنوان وحديث فصيح عن أكثر من فضيلة : « المثابرة والنظام والإرادة والثقة بالنفس» . فالرجل الذى يقيد حوادث حياته ، لابد أن يكون حسن الظن بنفسه ، وحسن التقدير لحياته ، آخذاً كل ما فيها على وجه الجد .

وأن يحمل نفسه مسئولية الأيتام ، ليس ذلك ، حناناً منه فحسب ، فالعهد بالعاطفة وحدها أن تقف عند حدّ الانفعال داخل النفس ، ما لم تؤيدها فضائل أخرى كالعزم والصدق فى خدمة الغير ، والقدرة على تحمل الأذى فى سبيلهم ، إنكار الذات وحرمان النفس من الراحة فى سبيل هذه الغاية ، فمطالب الأيتام كثيرة ، تقتضى القائم بها انتقالا وتردداً على أصحاب السلطة .

وكونه لم يتقدم فى الحياة العملية ، لأنه منذ البداية رفض أن يترك أمه التى تركت أباه لتقيم معه بجوار مدرسته فى طرة ، إنما هو وفاء «وتضحية » ؟

وألا يعوض نفسه عن هذا ، بالتلطف للرؤساء ، والتماس وساطتهم ، ومن زملائه وزراء ، ومن تلاميذه رؤساء ، فهذا هو التعفف فى أجمل صوره وأسماها .

وقد أورث ابنه مصطفى أكثر هذه الصفات .

الفصل الثانى

صبى قلق

ما أصدق قول القائل : الرجل ابن الطفل !

فأكثر ما يحققه الرجال والشيوخ أحلام تساورهم وهم أطفال ، فأحلام الأطفال هى حقائق الرجولة . وإذا أردت أن تعرف الرجل فابحث عن أسرار عظمته فى طفولته .

وقد كان مصطفى كامل مناضلا فى حياته القصيرة التى دامت أربعاً وثلاثين سنة ، بدأت فى الرابع عشر من أغسطس سنة ١٨٧٤ ، وانتهت فى العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨ . بدأت والحر فى أعلى ذروته ، وانتهت والبرد فى غاية قمته .

كان النضال مفتاح شخصيته . وقد صاحبه النضال منذ كان صبيًّا ، بل منذ كان طفلا . فى طفولته كان يجلس مع إخوته حول أبيه ، على طريقة تلك الأيام ، حول صينية من النحاس عند تناول الطعام ، وكانت هذه الصينية منقوشا عليها : « ملك عبد الرحمن الشنوانى سنة ١١٤ » ، وكان الأطفال يتنافسون على الجلوس أمام هذا النقش ، وكان مصطفى أصغرهم ، وأحقهم بالتسليم بالهزيمة ، لأن الذين ينافسونه يكبرونه فى السن ، ويتفوقون عليه بقوة الجسم ، ولكنه بقى مشاركاً فى المنافسة ، حتى حسمها الوالد يوماً ، بأن خص الطفل مصطفى بهذه الميزة . وقد لا تدل هذه المنافسة على قدرة على النضال ، لأن الأطفال مطبوعون على التعلق بكل ما يملكه الكبار ، وهم يملكون سلاحاً باتراً يغلبون به من يكبرهم فى السن وهو البكاء والصراخ ، ولكن

مصطفى كان قد تجاوز سن البكاء ، فلم يكن عنده من سلاح إلا ثقته بنفسه ، وإصراره على مغالبة الذين يكبرونه .

ولكن لدينا دليل آخر ، مبكر غاية التبكير ، يكشف عن شخصية هذا الطفل العجيب : أنه تلقى الدروس الابتدائية فى ثلاث مدارس : أم عباس ، والسيدة ، والقربية .

وتلقى الدروس العليا فى أربع كليات ، الحقوق الخديوية ، والحقوق الفرنسية ، وحقوق باريس وحقوق طولوز .

وقد تلقى الدراسة الثانوية فى المدرسة الخديوية لأنها كانت المدرسة الثانوية الأولى فى مصر ، وربما لا يكون لها نظير آنذاك .

ولكنه فى المدرسة الثانوية كانت له ثلاث وقائع أيضاً تدل كلها على أن حياته تأبى أن تمضى خالية من الصدام والوقائع المثيرة .

لم يترك مدرسة من هذه المدارس إلا بعد صدام ، وكان الصدام دليلا على أن الطفل كان شديد الثقه بنفسه ، عظيم الاحترام لها ، مرهف الحس إلى أقصى الغاية .

عرف كيف يصاحب الرجال من طفولته ، فكان يصاحب أباه فى صلاة الفجر ، واستطاع أن يحفظ ورد السحر ، لشدة انتباهه إلى أبيه وهو يردده ولأنه يود أن يكون كالكبار ، فلابد أن تكون له مؤهلاتهم ، فيحفظ ما يحفظون ، ويردد ما يرددون .

ولا يستطيع قائل أن يقول إن باعث الطفل مصطفى على ملازمة أبيه فى صلاة الفجر هو الفضول الذى هو أبرز صفات الأطفال ، فإن الأطفال يكرهون كل ما يحرمهم من النوم الهنيء فى الساعات الباردة خصوصاً فى الشتاء ، وقد حدثنا العقاد فى ترجمة حياته ، كيف كان يتخلف عن صلاة الفجر فى أسوان ، حيث يكون الجو دافئاً ، وحيث تطلع الشمس مبكرة ، وكيف كان أبوه ، يؤدبه عند هذا التخلف ويقسو فى تأديبه .

ولما رأى إخوة مصطفى أنه يلازمهم ويقلدهم ، ويقوى على أداء ماتقتضيه هذه المصاحبة وذلك التقليد ، أحبوه وألفوا أن يقرأوا أمامه دروسهم ، وأن يسمعوه بعضها ، ويشرحوا له بعضها الآخر ، حتى ما كان منها أعلى عن أفهام أمثاله ، فقد اتخذ من أخويه غير الشقيقين سليمان علوى الذى توفى شابـًا ، وحسين واصف الذى عاش بعده، طويلا ، صديقين ، يسألهما ويردان عليه . فلما دخل المدرسة الابتدائية كان يجمع بين النقيضين : جسم نحيل ، يكره صاحبه الطعام ، ويصدف عنه ويهيم بأمرين هما فى الحقيقة غذاؤه : السؤال والحركة . وكلاهما حركة .

السؤال حركة ذهن ، والتنقل من مكان إلى مكان حركة جسم . والثانية نتيجة الأولى . فلولا أن ذهنه دائم الالتفات إلى الأشياء والأشخاص منهوم بمعرفة الأسباب والأسرار ، معجب بكل ما تقع عليه حواسه مما لا يفهمه ، من ظواهر الطبيعة أو ظواهر الاجتماع ، لما ضاق بالسكون والاستقرار لأنهما صفتا الحيوية القليلة ، والصبر الطويل .

ولما دخل مصطفى المدرسة الابتدائية ، بعد أن كان قد حفظ شيئـًا من القرآن ، كان صبيـًّا ناضجـًا عرف من مبادئ المعرفة مالا يحيط به أنداده ، وربما لا يعرفه أستاذه .فقد كان أبوه يقص على أولاده القصص ، ويروى لهم نوادر البطولة ، وكان أخواه يطرفانه بالسهل اللطيف من حقائق العلم وغرائب التاريخ ، وقد علمه هذا كله ، ونمىّ عنده موهبة تجعل الصبىّ الصغير يبدو كبيراً ، وهى موهبة التعبير الحسن ، فرب جملة ما تلقى إلقاء حسنـًا تستوقف نظر الرجل والشيخ وتستلفتهما فى إعجاب وتقدير إلى الصبى الذى قالها وقد لا يعرف الكثير غيرها . فنصف جمال الكلام فى حسن أدائه .

وكانت أولى وقائعه فى مدرسة والدة عباس باشا الأول ، وكانت قريبة من داره الواقعة بحارة درب الميضأة بشارع الصليبيه بحى قيسون ، المعروف الآن بقسم الخليفة . عاد آخر النهار إلى أبيه غاضبـًا ومحتجـًّا

ومصممـًا على أن يترك هذه المدرسة لأن مدرسـًا فيها ظلمه وأهانه معـًا .
فقد سأل المدرس أحد التلاميذ سؤالا ، فتلكأ التلميذ المسئول ، فأسرع
مصطفى إلى الرد ، لأنه يعرف الجواب . وهذا أمر مشاهد بين الصبيان
وأحيانـًا بين الكبار ، فمن كان يعرف شيئـًا يفرح بالإفضاء به ، وتزداد
رغبته فى هذا الإفضاء ، إذا كان غيره عاجزاً عن الإجابة . وغضب
المدرس من هذا ، وهذا أيضًا طبيعى فسبّ مصطفى والسبّ وسيلة
تلقائية عند المدرسين ولاسيما فى تلك الأيام. والخروج على النظام ، ولوكان
غير ضائر ، مسوغ جيد وللضرب السبّ ؛ ونفاد صبر المدرس وكرهه كل
ما يجرى فى الفصل ظاهرة عالمية منذ خلق الله المدرس والتلميذ . ولكن
المدرس لم يقنع بسب مصطفى بل حبسه ساعتين .

وطفل ناجح كمصطفى ، ينظر إلى نفسه كأنه ندّ للرجال ، يجالسهم ،
ويسامرهم ويصلى معهم ، ويعمل مثلهم ، تكبر عنده الإهانة التى تلحقه .
ولكن أباه لم ينسق مع شكواه وقال له : « ألم أقل لك من يتدخل فيما لا يعنيه
يسمع ما لا يرضيه » ، ولكن كان عند مصطفى رد مقنع إذ قال :
لقد عاقبنى المدرس على غلطة واحدة بعقوبتين وهذا ظلم . سبنى ثم
حبسنى ولو حبسنى فقط لما غضبت ، أما السب فلا أقبله . وأنا لا أقبل
هذه الإهانة ، ولو قتلت فى سبيل رفضها » . وذهب أبوه معه وحقق
فى الأمر ، ووجد أن ابنه محق فنقله إلى مدرسة السيدة زينب الابتدائية .

وإنى أفسر هذا النقل بسببين : أولهما أنه رأى أن بقاء ابنه فى المدرسة
بعد شكواه من مدرسه والتحقيق فى الشكوى سيجعل مصطفى هدفـًا لغضب
هذا المدرس ، وقد يكون هو مدرس كل المواد أو أكثرها ، والسبب
الثانى أن حب على أفندى لأصغر أولاده وقتذاك وأكثرهم ذكاء ،
أعظمهم فصاحة ، كان حافزه لهذا النقل ، على سبيل تدليله وإظهار
إعزازه .

وانتقل مصطفى إلى مدرسة السيدة زينب ، التى عرفت فيما بعد بمدرسة

محمد على ، وكانت من أعظم مدارس الحكومة الابتدائية ، وتقع على مقربة من قسم السيدة زينب . ولكن لم يلبث أن اصطدم بمدرس اللغة العربية السيد أفندى الحسنى . فقد كان الصبى يسمع طرفًا من التاريخ يرويه له أخوته ووالده . فتاق أن يتلقى دروس التاريخ فى مدرسته ، فسأل مدرس اللغة العربية متى نتلقى دروس التاريخ ؟ فقال له المدرس الإجابة الطبيعيّة والمنطقية التى لا إجابة غيرها ، إذ قال إن مادة التاريخ تحتاج إلى سن أكبر من سنه ، وإلى نضوج أكثر ، فلا تتعجل الأمور ، حينما تكبر ستتعلمها . فرد مصطفى بأسلوب فيه من الاعتداد بالنفس مالا بد أنه بدا للأستاذ غروراً أو قحة إذ قال له : إن هذه المدرسة أصغر مما كنت أظن ، فإن أبى يحدثنا فى التاريخ فأفهمه كما أفهم دروس المدرسة الأخرى » .

ويبدو أن ما زاد فى اعتداد مصطفى أنه كان أول فرقته يومذاك . فغضب المدرس من هذه الإجابة وأمره بأن يترك الفصل ، فكبرت الإهانة على مصطفى . فخرج من الفصل والمدرسة معًا . ولما كان يعرف المكان الذى يجلس فيه والده فى هذه الساعة من النهار بعد أن أحيل إلى المعاش ، فقد قصده حيث يجلس أمام صيدلية فتحى أفندى بجوار قسم الصليبة الذى كان يطاق عليه وعلى غيره (قره قول) وهى كلمة تركية .

وكان عادة أهل ذلك الزمان تقضى بأن يتخذ عملاء الصيدلية منهاومن المساحة القليلة الواقعة أمامها منتدى يجلسون فيه ، ويتسامرون ، ويقرأون الصحف ويعلقون عليها ، وكان يجالس على أفندى خورشيد باشا طاهر ، فسلم على الاثنين ، وروى لوالده ما جرى ، فأخذه الوالد فور اللحظة وذهب به إلى المدرسة ، واعتذر للمدرس ونفى عن ابنه رذيلة الغرور ، وخطيئة الوقاحة .

وفى هذه المدرسة أصيب مصطفى بأول أمراضه الطويلة ، فقد نزل به

المرض فألزمه الفراش شهرين كاملين ، ويبدو أن الأطباء لم يهتدوا إلى سبب العلة ، حتى برئ بمقاومة جسمه ، وإن كان جسماً نحيلا .

وفى أثناء دراسة مصطفى بهذه المدرسة مات والده ، فتولى أمره أخوه حسين واصف ، وكان آنذاك من مهندسى وزارة الأشغال بمصلحة الرى ، فطلب منه مصطفى أن يبعث به إلى مدرسة القربية ، لأنها قريبة إلى بيت جده لأمه النقيب محمد أفندى فهمى ، فأجابه أخوه إلى ما طلب ، فكانت المدرسة الثالثة .

وفى ختام الدراسة أبى مصطفى إلا أن يتهيأ بحدث سياسى ، إرهاصاً لحبه للسياسة وانقطاعه لها ، وتألقه فيها . فقد كان أول فرقته ، وكانت « نظارة » أى « وزارة » المعارف يومذاك عظيمة الاحتفال بتوزيع شهادات النجاح على التلاميذ ، وكانت تقيم لهذه المناسبة مهرجاناً لا يحضره الوزير فقط ، بل الخديو أيضاً ، فيوزع بيده الشهادات والجوائز ، ويوصف هذا الاحتفال فى الجريدة الرسمية . ولا غرابة فى ذلك ، فالمدارس — ولو كانت ابتدائية — كانت من القلة بحيث كان التلميذ فيها شخصية من شخصيات المجتمع ، وبحيث يكون نجاحه فيها ، ولا سيما إذا كان هذا النجاح فى ختام هذه المرحلة ، حدثاً جديراً بأن يذكر .

جاء الخديو توفيق الى مدرج المعارف الذى أقامه القدير العظيم على مبارك على مقربة من مبنى الوزارة ومعه رجالات الدولة ، والغازى مختار باشا مندوب تركيا السامى . ويقول على فهمى شقيق مصطفى كامل فى التاريخ الذى كتبه لشقيقه إن مصطفى ارتجل خطاباً فى تحية الخديو على البديهة ، وإن هذا الخطاب أعجب الخديو ، فسأل مصطفى عن اسمه واسم أبيه وعن سنه ، فأجاب كما كان يجيب أى طفل سواه ، ذكر اسمه واسم أبيه وسنه . ولكن على فهمى يقول إن ضابط المدرسة الذى كان يقف وراء كل تلميذ يتسلم شهادته ، أخذ يلقن مصطفى الإجابة

التى كان يراها أليق وذلك بإضافة : عبد سموكم مصطفى ، وعبد سموكم على محمد . . وأحسب أن القصة تنتهى هنا ، ولكن « علياً » يقول إن مصطفى ذهب إلى الضابط يسأله لماذا كنت تريدنى أن أصف أبى وأصف نفسى بأنى عبد الخديو ؟ لست أنا وليس أبى عبداً لأحد ، ولو قلت غير ذلك لكنت كاذباً » . ولم لو يحدث من مصطفى شىء من هذا ، لما نقص قدر الحكاية بغير هذه الإضافة ، فهى تدل على أن مصطفى كان أول فرقته ، وأنه مثل مدرسته عند قدوم أمير البلاد ، وأنه ارتجل خطاباً فى تحية الأمير ، وأن حسن إلقائه ورباطة جأشه استوقفت النظر ، وهذه دلائل نبوغ ، وثقة بالنفس واعتداد بها ، وطلاقة لسان وحضور بديهة مبكرة ، وهذا يكفى .

فى سنة ١٨٨٧ ، دخل مصطفى كامل وكان قد بلغ الخامسة عشرة المدرسة الثانوية الوحيدة آنذاك فى القاهرة — وهى المدرسة التجهيزية ، التى عرفت فيما بعد بالمدرسة الخديوية ، والتى حملت بعد ذلك اسم مصطفى كامل نفسه . .

وقد اتضحت ميول مصطفى العقلية : كان رياضياً بالخلقة ، وكان متفوقاً فى اللغة العربية ، ضعيفاً فى اللغة الفرنسية ، التى أصبحت فيما بعد لغة الكتابة والخطابة بالنسبة له .

وقد يبدو غريباً ، لدى النظرة الأولى ، أن يكون هذا الخطيب الكاتب المتمكن من ناصية اللغة ، المحب للفظ الجميل ، والقادر على التصوير والتعبير به عن أدق الإحساسات ببراعة كسبت له الإعجاب والحب — أن يكون رياضياً ، محباً للأرقام ، وقادراً على أن يفهم مدلولها ، وأن يشبع غرامه بها ، فيكتب على كل ورقة تطولها يده عمليات وأشكالا هندسية ، فإذا نفد الورق كتب على الجدران والأبواب حتى ينهاه أبوه ، ومن أكبر منه فينتهى فوراً . كيف يجتمع هذان الغرامان فى قلب واحد ، والمقول إنهما غرامان متنافران ؟ والحق أنه لا غرابة فى تفوق مصطفى كامل

فى الرياضة وحبه للكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعى ، فمصطفى كامل لم يكن قط كاتب خيال ، فهو لم يكتب قصة ، ولا قصيدة بوحى من الخيال ، وإنما كتب كل ما كتبه بوحى من الواقع ، وبتأثر منه ، وبرغبة فى تغييره ، فهو لا يغيب عن هذا الواقع ولا يفر منه بحلم نوم ولا بحلم يقظة ، لو كان هذا الحلم فى صورة قصة أو شعر . والطبيعة والرياضة هما تجسيد للواقع ، وتعامل معه ، فحبهما يتفق مع طبيعة مصطفى العقلية ومع رسالته وأمله فى المستقبل القريب .

وإذا كان مصطفى قد قال فى خطبه ومقالاته ورسالاته كلاماً يذوب رقة ، ويبلغ فى جماله وحسن إيقاعه وموسيقاه مبلغ الشعر ، فذلك لشدة انفعاله وصدق هذا الانفعال ، وقدرته على التعبير عن هذا الانفعال المستوحى من الواقع الذى يصطدم به مصطفى ، ويعمل كل ما فى وسعه ليزيله ويغيره ، بالإرادة وبالعمل ، الإرادة الحية ، والعمل القائم على حقائق الأمور لا على مجرد تمنى تغييرها .

فمصطفى كامل لم يكن شاعر حركة وطنية ولا خطيبها ولا كاتبها فقط ، بل كان زعيمها وقائدها وسياسيها ، وكانت الخطابة والكتابة بعض وسائله ، ففكرته هى التى ألهمته الكتابة والخطابة وصقلت استعداده لهما ولو لم يهتد إلى فكرة الجلاء ومقاومة الاحتلال البريطانى لمصر لكان رياضياً نابغاً أو علما رفيعاً من علماء الطبيعة أو التاريخ الطبيعى ، أو لكان من هؤلاء الرياضيين الذين يتذوقون الأدب ، ويحسنون الكتابة ، ولكنهم لا يكتبون إلا فى العلم ، أوفى تاريخه أو فى تقريبه للناس .

ونحن نذكر هنا أسماء مدرسيه الذين كانوا يعجبون بتلميذهم فى الرياضة والعلوم والكيمياء ، وينوهون بحسن استعداده العلمى ، ويتنبأون له بمستقبل باهر بين العلماء ، وهم أحمد بك كمال وأحمد أفندى حمدى وعثمان أفندى أنور ومحمد أفندى إدريس وعالم الطبيعة الدكتور محمد بك كامل الكفراوى الذى كان أكثرهم تحدثا عن تلميذه .

وقد بلغ من ثقة هؤلاء المدرسين بهذا التلميذ أنهم كانوا يعفونه من الامتحانات الدورية التي يعقدونها لغيره من التلاميذ ، لكنه كان مقابل هذه الثقة يحرم نفسه من متعة الراحة بين حصص الدراسة ، ولاسيما فترة الراحة الطويلة بين دروس الصباح ودروس بعد الظهر . فكان يقضيها كل يوم فى معمل الطبيعة والكيمياء بالمدرسة يحضر التجارب ويكررها . ويتأمل الأجهزة ويسأل عن عملها ، ويشاهد العمليات غير المقررة عليه والمفروضة على الذين يكبرونه فى السن ، وكان إسماعيل أفندى فهمى معيد هذين العلمين يستقبله ، ويفسح له صدره ، ويترك له أحيانـًا المعمل ، يجرى فيه ما يريد له من التجارب .

ولما كان العهد بمصطفى أن يعبر عن قلقة بالصدام مع المدرسين أوسلطات المدرسة ، ثم يترك المدرسة إلى غيرها ، فقد بقى وفيـا لعادته ، إذ كان له فى المدرسة التجهيزية واقعتان من هذا الطراز ، الأولى ذهب من أجلها إلى وزير المعارف على مبارك باشا ، وكان قد رسب مع سائر تلاميذ السنة الأولى بالمدرسة التجهيزية ماعدا طالبين اثنين ، ذلك لأن الوزارة رفعت درجة النجاح إلى ١٦ درجة من ٢٠ درجة ، وهى نسبة عالية وغير معهودة فى تلك الأيام ولا فى أيامنا هذه ، ولما كان مصطفى تلميذاً نحيف البدن يبدو عليه أنه صبى أكثر من كونه شابـًّا فقد رده حاجب الوزير ، فدفع الحاجب وهو يقول كيف تمنعنى وأنا ابن الوزير ، فخلى الحاجب بينه وبين الطريق إلى الوزير ، فاستقبله الوزير مندهشاً ومشجعـًا معـًا ، فقد كان منهج على مبارك فى التربية القومية أن يشجع بل أن يجرىء الصغار على مجالسة الكبار ، والمحكومين على مخاطبة الحاكمين ، ولذلك كان يجتمع فى بيته بالريف فى أثناء العطلة وأيام الراحة بالفلاحين ويتحدث إليهم ويصبر على أسئلتهم وطلباتهم ، ويذهب عنهم الوحشة ؛ فلما سأله أحد أصحابه عن هذا المسلك ، قال إن هؤلاء طبعوا على الخوف ممن هو دون الوزير ، فلا سبيل إلى نزع هذا الخوف ،

والتأكيد لهم بأن الوزير مثلهم ، وأنه لا شيء فيه يخيف سوى المظاهر والحراس والحجاب وما ألفناه من الخضوع لصاحب السلطة ، إلا بأن أجلهم مع الوزير نفسه وأتبسط معهم ، وأنا لا أملك إلا نفسي . لذلك لم يكن غريباً على هذا الرجل العظيم أن يحسن استقبال تلميذ وجد عند نفسه الشجاعة ليقصد بابه بغير حاجة إلى طويل تحقيق . وقد سأل الوزير مصطفى ، وهو يعلم أنه ابن أستاذه ، عن المشكلة التي جاء يشكو منها ، ببساطة تامة ، وبغير المقدمات التي أوردها على فهمي كامل في كتابه ، ونميل إلى أنها تزيد من المؤلف ، أو أنها نقلت إليه مع الأيام بهذه الحواشي كما هو الشأن في كل حادثة مهمة تقع في محيط عائلة . جملة الأمر أن الوزير عرف أن الشكوى عادلة ، وأن صاحبها محق فيها . ثم أراد أن يمتحن حضور ذهن هذا الشاكي الجريء فقال له : هب أني لم أستمع إلى شكواك ، فماذا أنت صانع ؟ فقال له ما معناه إنه وزملاءه يفزعون إلى عدله من جوره . فقال له على مبارك وهو يخفي ابتسامة سرور : دعك من الاستعاذة بالعدل الذي أعزه من الجور الذي أكرهه ، فربما كان للقرار الذي تشكومنه حكمة تخفى عليك وعلى زملائك ، واقتضت مشيئتي ألا أعدل عنه ، فماذا يكون منك .

فقال مصطفى ما نتصوره ، على غير ماجاء في رواية هذه الحكاية في كتاب شقيق مصطفى ، إذ نعتقد أن مصطفى قال للوزير . إني سأعود إلى زملائي ، وأقول لهم إني عرضت مظلمتهم ، ورجوت الوزير ، ولكنه لعلة لا أعرفها رفض شكواكم وأصر على قراره ، ولم يزد . . أما أنه قال إنه سيخبر التلاميذ أن الجالس على كرسي الوزارة قد نسي الأبوة ، فهو كلام جارح وخال من كل أدب وكياسة . ولذلك قال الوزير لمصطفى : اذهب إلى إخوانك وبشرهم بأن القرار ألغى . وانصرف مصطفى انصراف المحامي الشاب الذي ترافع في أولى قضاياه فنجح فيها نجاحاً عظيماً ، فقد التف التلاميذ حوله ، وسألوا عن الخبر ، فلما علموه

أذاعوه فى المدرسة ، حتى بلغ كل ذى أذن فيها من مدرسين
وأجانب ، إلى الناظر ومعاونيه الإداريين. وقد ثبت هذا ا
مصطفى بنفسه ، وبقدرته على عرض القضايا والدفاع عنها .

أما الحادثة الثانية فقد كانت عدوانًا ظالمًا على مصط
بدرت من أحد التلاميذ وهم وقوف صفوفًا فى (حوش) المد
نابية . فحسب الضابط الذى ينادى أسماء التلاميذ الذين وقع
جزاءات أن مصطفى هو قائلها فجال بين الصفوف ، حتى
مصطفى فضربه بعصًا على ذراعه اليسرى ضربة مؤلمة ، ثم
بشتمه شتمًا قارساً وبصوت عال سمعه كل التلاميذ . وقد احت
على هذا الظلم الصارخ ، لأن مصطفى كان آخر من يرتكب د
وكان العقاب قاسيًا ومهينًا فى وقت واحد ، فصدرت عنه
تعبر عن هذا الاحتجاج ، ثم وقع هرج ومرج ، إذ التف
بالضابط وكادوا يعتدون عليه لولا أن مصطفى نهاهم عن ه
ثم قصد من فوره إلى وزارة المعارف ، فقد عرف طريقة إليه
أن الوزير سينصفه لا محالة ، وطالما يجده فى مكتبه قصده
ولما روى له ما حدث غضب الوزير لهذا المسلك من الضا
شديداً ، فقد كان يكره من كل قلبه أن يعامل التلاميذ با
تقذف فى قلوبهم الخوف وتحرمهم الشجاعة وتخرجهم منذ نعو
اتباعًا للسلطة ، يتقون غضبها ولو كان جائراً . واعتبر أن
لابد أن ينتهزها ليلقى من خلالها درسا ، ودعا بعربته ، فركبه
إلى يساره ، فلما وصلت إلى باب المدرسة نزل الوزير والتلميذ
لم تشهدها مدارس مصر من قبل ، ولعلها لم تشهدها من بعد
الكبير الخطير والتلميذ الناشىء المجهول ، الواحد بيد الآخر
دخل الوزير على ناظر المدرسة وكشف عن موضع الضربة
مصطفى ، ثم أمر فدُقّ ناقوس المدرسة ، فاصطف التلاميذ

فسألهم الوزير عن حقيقة ما وقع ، فشهدوا بأن مصطفى لم يبالغ ولم يرو إلا الواقع ، فدعا الضابط وأفهمه سوء مسلكه ، وأفهمه أنه سيصدر قراراً بفصله ، لأن هذا الاندفاع ليس سمة المربين ، والاعتداء على التلاميذ بالضرب والسب المهين بغير « تثبت » يعلم الأولاد قبول الظلم ، ورده على من هو أضعف منهم ، ولكن الناظر استعطف الوزير ، فقبل أن يعفو عن الضابط المخطئ على أن يعتذر للتلميذ المعتدى عليه . ففعل الضابط ، وانصرف الوزير راضياً .

وأحسب أنه كان يكفى أن يعلم الإنسان هذه الواقعة من حياة مصطفى المبكرة ، حتى يقطع بأنه سيكون الرجل الذى كان .

وزار على مبارك المدرسة بعد ذلك بأشهر ، فدخل الفصول ليمتحن التلاميذ ، وكان مصطفى آنذاك فى السنة الأخيرة . وكانت الحصة حصة لغة عربية ، فطلب الوزير من مدرس الفصل أن يختار له أقدر تلاميذه على الإنشاء والإلقاء . فوقع الاختيار بطبيعة الحال على مصطفى ، الذى ارتجل – بناء على طلب الوزير – خطاباً صغيراً موضوعه ماذا ينوى أن يصنع بعد الدراسة الثانوية . فمنحه الوزير ، بعد أن أعجبته الخطبة وأعجبه الخطيب ، لقب « امرئ القيس » . والغريب أن يمنح الخطيب لقب شاعر ، ولم يمنح لقب خطيب ، ثم أيد هذا اللقب بمكافأة مالية قدرها مائة قرش تصرف فى المدة الباقية من السنة النهائية .

وفى صيف سنة ١٨٩١ ، حصل مصطفى على شهادة الدراسة الثانوية ، فأرسل إلى أخيه فى ١٢ يولية رسالة من الإسكندرية – وكان قد قصدها ترويحاً للنفس بعد طول الجهد – يعبر فيها عن سروره بهذا الذى فكّ قيده من الدراسة الثانوية ، وقال : « اليوم أبشرك بأن العقبة الكؤود التى كانت أمامى ، وهى شهادة الدراسة الثانوية ، قد زالت من أمامى ، فقد نلتها بعد أن أضنت جسمى ، فأصبح نحيلا لا صحيحا ولا عليلا ، ولكنى أؤمل أن تعود إلىّ القوى لأدخل مدرسة الحقوق ،

فقد عولت على الانضمام إلى صفوف طلابها » .

ومن خلال هذه الأسطر القليلة ، نلمح شخصية مصطفى كامل تتكامل ، فهذا الطالب الذى يأتى أحيانًا على رأس أقرانه ، والذى قد يتأخر إلى السابع بينهم ، يحتاج إلى جهد يضنيه لينجح فى امتحان السنة النهائية . مما يدل على أنه يأخذ كل الأمور جداً ، وعلى أنه — مع تفوقه فى الرياضة والعلوم واللغة العربية — كان ضعيفاً فى الفرنسية والإنجليزية ، وكان فى حاجة إلى جهد فى مواد أخرى ، فهو لا يمكن أن يكون تلميذاً نموذجيًا ، ، وإن كان شابًا نموذجيًا ، فقد كانت الدراسة عنده وسيلة لا غاية ، إذ كانت أمامه أهداف عرفها جيداً ، وأصبح تواقًا إلى تحقيقها . وهى لا شك تشغله عن هذه الدراسة العادية التى ينقطع لها التلاميذ الذين ينتهى أملهم إلى الأولوية فى الامتحان ، ليدخلوا امتحانًا آخر . ليحصلوا على الشهادة التى تؤهلهم لوظيفة . ولقد اختار مدرسة الحقوق ، فلم يتردد ولم يسأل أحداً أن يرشده إلى المدرسة التى تليق به . وقد وصفها بأنها مدرسة الكتابة والخطابة ، ومعرفة حقوق الأفراد والأمم ، وهو تلخيص جامع مانع ، يدل على أن مصطفى فكر فأطال التفكير ، وأنه اختار المدرسة التى ستفضى به إلى معرفة هذه الحقوق ، والدفاع عنها بالوسيلتين اللتين أشار إليهما : الكتابة والخطابة . وهو قول ملئ بالدلالات والإشارات ، سندخره للتعليق عليه ، فى الموضع الذى يناسبه .

ودخل مصطفى المدرسة التى أحبها ، مدرسة الكتابة والخطابة ، فى خريف سنة ١٨٩١ ، وهو يعلم أن دون النجاح فيها إتقان اللغة الفرنسية . التى كان يشكو فيها من ضعف بين ، وقد كانت الدراسة كلها فى هذه المدرسة باللغة الفرنسية ، وهذا وحده يريك كيف كان مصطفى قوى العزم ، فإن إتقان لغة تدرس بها كل المواد فى المعهد الذى اختاره ، كان يحتاج إلى تحمل وصبر ، مع ثقة بالمستقبل ، إذ قد لا تواتيه القدرة على إتقان هذه اللغة ، فيصبح دخوله هذه المدرسة

ضربًا من المجازفة، بل من قصر النظر .

فإذا عرفت أن مصطفى — عند حصوله على الثانوية العامة — كان فى السادسة عشرة من عمره ، أدركت كم كان نضجه مبكراً ، فاستقلاله بإصدار هذا القرار ، وبهذا الجزم ، مع قيام هذه العقبة ليس بالشئ القليل .

وقد ثبّت من عزم مصطفى أنه كان قد عرف صديق عمره ، وزميل جهاده فيما بعد، محمود فؤاد سليم بن لطيف باشا سليم ، فقد كان طالباً بهذه المدرسة وقد كان منزلاهما متجاورين ، مع فارق بين الدارين، فلطيف سليم باشا والد محمد فؤاد كان من الأغنياء ، وقد كان له دور مشهود فى أخريات حوادث عهد الخديو إسماعيل ، إذ كان على رأس الضباط الذين اعتدوا بالضرب على رئيس الوزراء نوبار باشا الأرمنى الأصل ، وريفرزولسن وزير المالية الإنجليزى الأصل ، حتى أنقذهما من يده الخديو إسماعيل نفسه

وقد كان تعارفهما منذ اللحظة الأولى فى الدراسة العليا ، فقد كانت أنظمة التعليم وقتذاك تقضى بإجراء امتحان دخول للراغبين فى اللحاق بالمدرسة العليا ، ولا تعتبر الشهادة الثانوية إلا مجرد جواز مرور إلى هذا الامتحان لا إلى المدرسة العليا ، فتعارف مصطفى وفؤاد وهما يؤديان الامتحان ، وزادت صلتهما حينما دخلا مدرسة الحقوق ، فكانا يذهبان معًا ويعودان معًا ، ولا شك أن مصطفى هو صاحب الفضل فى توثيق عرى هذه الصداقة فقد كان دائمًا العنصر الإيجابى فى كل علاقة تقوم بينه وبين أحد أصدقائه : هو الذى يخطب الود ، وهو الذى يبقى على هذا الود ، بما ينميه من كلامه وخطاباته ، وعتابه عند التقصير ، وصفحه عند الإساءة . وسنرى الكثير من دلائل هذه الحيوية العاطفية . وقد سمعت أخيراً أنه قد دبت فى الأيام الأولى لهذه الصداقة قطيعة بين الصديقين ، إذ نقل إلى فؤاد أن مصطفى يتحدث عن المصريين

المنحدرين من أصول شركسية بأنهم أصل ما يصيب مصر من بلاء، ولما كان فؤاد سليم شركسيًّا فقد جاء إلى مصطفى ، واشتد معه فى القول ، ومدّ يده إليه بالضرب ، فتماسكا ، وتقاطعا ، ثم عادا فاصطلحا ، ودامت بينهما المودة . والمعروف أن هذه المشاجرة بلغ نبؤها إدارة المدرسة ، فحرمت التلميذين من الدراسة أسبوعًا . وبعد أن انتهت مدة الحرمان عاد مصطفى ، ولكن فؤاد سليم آثر أن يلحق بمدرسة الحقوق الفرنسية ؛ ويخيّل إلىّ أن مردّ ذلك أن فؤاداً لم يكن متمكناً من اللغة العربية بالقدر الذى يعينه على دراسة المواد المقررة باللغة العربية كالشريعة الإسلامية ومواد الإنشاء والبلاغة ، وكانت هذه المواد ضمن ما يدرسه طلاب الحقوق . وبعد أن اطمأن مصطفى إلى تمكنه من الفرنسية بعد فترة من الزمن ، استأذن أخاه حسين بك واصف فى أن يجمع بين المدرستين : المصرية والفرنسية ؛ وكانت الأولى تؤدى دروسها فى الصباح ، وكانت الثانية تفتح فصولها فى المساء ، فكان الجمع بينهما سهلا ميسوراً ؛ ولما كانت الدراسة فى كليهما بالفرنسية ازداد الأمر سهولة ، ولما كان المدرسون هنا وهناك فرنسيين أوشكت المدرستان أن تكونا مدرسة واحدة ، كما أوشك ما يلقى فى إحداهما أن يكون تكراراً وتثبيتًا لما يلقى فى الثانية .

وفى أثناء الدراسة فى الحقوق وقعت أزمة وزارية حاول فيها الخديو عباس أن يعزل رئيس الوزراء مصطفى فهمى ، صديق بريطانيا وأكثر الوزراء المصريين ولاء لها وإيمانا بسياستها ، فلما اعترض كرومر على ذلك العزل ، وألزم الخديو أن يعين رئيسًا آخر غير حسين فخرى الذى اختاره عيّن مكرهًا رياض باشا خروجًا من الأزمة بحل وسط . وغضب تلاميذ مدرسة الحقوق لتدخل الإنجليز ، وأسفوا لهزيمة الخديو ، فأضربوا إظهاراً للعطف على موقفه ، واستنكاراً لموقف الإنجليز ، وقصدوا جريدة المقطم ، التى كانت لسان حال الإنجليز فى هذه الأزمة ، تؤيدهم ،

وتندد بالخديو . وسار طلاب الحقوق فى مظاهرة لعلها أولى مظاهرات مصر الحديثة . وهاجموها ، وعلى رأس المصريين والمتظاهرين مصطفى كامل الذى خطب فى إخوانه . خطبته البكر ، خطبته السياسية الأولى . . وكان آنذاك فى السابعة عشرة من عمره .

وانتقل مصطفى من السنة الأولى إلى السنة الثانية بمدرسة الحقوق وسافر يوم الجمعة ٢٦ يونية سنة ١٨٩٣ ليقضى الامتحان الأول بمدرسة الحقوق الفرنسية ، وكان يصحبه فى هذا السفر أخوه حسين بك واصف ؛ وقد نجح فى هذا الامتحان ، وأرسل إلى أخيه على فى ١٧ من أغسطس أنه عائد إلى بلده يوم ٢٣ أو ٢٤ من الشهر نفسه ، وبمجرد عودته ذهب إلى منزل راعيه الوزير على مبارك الذى رحب بعودته وسأله عن مشاهداته ، فتحدث مصطفى عن انصراف الفرنسيين إلى العمل وإكبابهم على الدرس ، وأن الملاهى ودور السهر فى باريس ، يرتادها الذين يقصدونها من أنحاء العالم للتسرية وطلب اللهو . فأيد على مبارك كلامه وقال إنه لما أرسلته الحكومة فى عهد محمد على ليدرس فنون أركان الحرب ، وجعلت له مرتباً قدره أربعمائة فرنك كان يحمل فى جيبه مائتين ويبعث إلى أهله مائتين ، ولما رأى أن النقود كثرت فى جيبه ، وأنه مال إلى رؤية محلات اللهو قصد مدير البعثة ، وسأله أن ينقص مرتبه لأن كثرة النقود أوشكت أن تفسده ، فضحك المدير وقال إن العاقل يغلب الشيطان ، فإذا كان جيبك مملوءاً بالنقود ونفسك مليئة بالتصميم والعزم نجوت من كل غواية ، أما إذا كانت استقامتك رهناً بفقرك فاستقامتك حينئذ الفضل فيها لخلو جيبك لا لقوة عزمك ، ولم يمض على هذا الكلام سوى شهر حتى زيد مرتب على مبارك مائة فرنك أخرى فأصبح ٥٠٠ فرنك ، فعرف كيف يقتصد ولا يزل .

وفى سنة ١٨٩٣ أدى مصطفى امتحان النقل إلى السنة الثالثة ، فرسب فى إحدى المواد ، فالتمس له أخوه « على » عذراً ، لا أحسبه عذراً

مقبولا ، فقد قال إن مناقشة دارت بين مصطفى وبين حسن باشا عاصم – وكان من رواد ندوة لطيف باشا سليم التى كانت تضم خيرة المصريين فى الأدب والسياسة والإدارة – فتعصب مصطفى لرأيه ، واشتد فى الدفاع عنه ، مما أغضب حسن باشا عاصم ، وكان من الأساتذة الممتحنين ، فتعمد إسقاط مصطفى فى المادة التى كان يمتحن فيها التلاميذ مما أعاق مصطفى عن الانتقال إلى السنة الثالثة . والذى أعرفه أن مصطفى يذكر حسن عاصم بعد ذلك فى خطاباته إلى صديقه فؤاد سليم بالخير ، ولا ينسى أن يبعث إليه بالتحيات. فسبب رسوب مصطفى أنه كان فى تلك الفترة مشتغلا بالأمور العامة ، يصرف أكثر وقته فى قراءة الصحف ومجالسة رجالات مصر فى دار لطيف سليم وفى غيرها . وقد روى على فهمى بعد هذه الرواية مباشرة أن الشيخ حسونة النواوى – الذى عين فيما بعد شيخًا للأزهر – سأل مصطفى يومًا سؤالا فى الشريعة ، فلم يستطع الإجابة لانشغاله بما بين يديه من الصحف . وقد اتخذ مصطفى بسبب رسوبه فى امتحان السنة الثانية قراراً عجيبًا . إذ اعتزم أن يؤدى امتحان السنتين الباقيتين فى مدرسة الحقوق الفرنسية فى سنة واحدة ، هى سنة ١٩٨٤ ؛ فهو طالب أجنبى عن فرنسا غريب فيها . لا يملك أن يفرض إرادته على أنظمة راسخة ومستقرة ومنيعة فى جامعاتها . ويقول على فهمى إن مصطفى وعد أخاه عبد الفتاح بتحقيق هذا العزم ، فشجعه عليه . وقد سافر فعلا فى أول يولية إلى الإسكندرية ومنها إلى فرنسا . وقد ودعه إخوته حسين وعبد الفتاح وعلى ، وعدد من الأقرباء والأصدقاء ، وكانت دائرة أصدقائه بدأت تتسع لما بدأ ينشر مقالاته فى الأهرام والمؤيد سنة ١٨٩٣ . وجاءت ساعة تنفيذ الوعد الذى قطعه على نفسه لأخيه الحبيب عبد الفتاح الذى لم يكن يعرف أنه لن يبقى على قيد الحياة حتى يشهد هذا النصر . فقد توفى إلى رحمة الله كما ذكرنا فى الثامن من سبتمبر سنة ١٩٨٤ . وعاد مصطفى إلى القاهرة بسرعة

مهدود القوى شديد الحزن، بعد ذلك ، ليكون بين أهله ، ليخفف وجوده شعوره بالصدمة ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى فرنسا فى التاسع من أكتوبر من السنة نفسها ، وقد أدى الامتحان الخاص بالسنة الثالثة فى كلية باريس ونجح فيه، وبدأت محاولة إقناع سلطات الكلية بأن تأذن له بأن يؤدى امتحان السنة النهائية بعد ذلك بأشهر . ويقول أخوه على: « فدهشت إدارة الكلية لهذا الطلب لاعتبارات كثيرة أهمها أن ذلك مخالف لقوانينها التى لا تسمح لطالب أجنبى مهما كان جاهه أن يقضى امتحانين لسنتين فى سنة واحدة .

وقد نصحه أستاذاه الفرنسيان اللذان كانا يعلمانه الاقتصاد فى مدرسة حقوق أن يقدم طلباً بهذا المعنى إلى كلية أخرى هى كلية حقوق طولوز . فقدم طلباً بنقل أوراقه إليها فأجيب إلى طلبه ، وأرسلت كلية حقوق باريس أوراقه إلى كلية طولوز ، ثم قدم طلباً إلى هذه الكلية الأخيرة ليؤدى أمامها امتحان السنة النهائية ، فانقسم مجلس إدارة الكلية فى صدد هذا الطلب على نفسه ، فقد عارضه مدير شرف الكلية ، وأيده مديرها العامل ، وانقسم الأعضاء بين المديرين ، ولكن أغلبيتهم انضمت إلى رأى المدير العامل فانتصر ، وقد كان مدير الشرف يرى فى إجابة طلب مصطفى خطأ من مدير الكلية ، لأن هذا الطالب نفسه رفض من مجلس إدارة كلية باريس التى كان مصطفى منتسباً إليها أصلا ، وكانت أحق بمجاملته وأن كلية طولوز ليست أقل من كلية باريس شأناً . أما المدير العامل فقد كان يرى فى معونة طالب مجد ، يريد أن يوفر وقته ، ما يشرف الكلية لا ما يحط من قدرها ، وأحسب أن المدير العامل كان ينظر إلى هذا الطلب نظرة سياسية بحتة ، فقد كان يرى فى تشجيع مصرى مشتغل بالسياسة ، يكتب فى صحف بلاده ، ويهاجم الإنجليز ، كسباً للسياسة الفرنسية فى مصر ، واستجلاباً لعطف الرأى العام عليها ، وكان المدير الشرفى ينظر إلى الموضوع من جانبه التعليمى البحت.

وقد انصرف مصطفى كامل إلى مذاكرة مواد السنة النهائية فى بيت استأجره بطولوز . وانقطع فيه للقراءة والدراسة عشرين يوماً متصلة ، وقد لاقى فى هذه المذاكرة عناء ونصباً ، ولكنى ما أحسب أن هذه المدة كانت كافية للإحاطة ببرنامج سنة كاملة ، ولا سيما إذا كانت السنة النهائية فى كلية لا عهد لمصطفى بها ، ولكن نجاحه الذى حصل عليه كان بجدارة . لا من قبيل التسامح من الممتحنين . قال مصطفى فى رسالة لأخيه : « لم أعرف من طولوز غير مسكنى حيث أكدّ ليل نهار . وقد سقم جسمى . ولكنى سأتغلب بمشيئة الرحمن على كل شئ للوصول إلى بغيتى ، وقد عزمت أن أستمر كذلك أزود القريحة بما هو مسطور فى كتب السنة الأخيرة ، لأنى شاعر بحرب هائلة سيثيرها المدير المشرف علىّ عندما أقع بين يديه فى الامتحان ، أو بين يدى من عضده فى رأيه من الأساتذة الممتحنين ، فادع الله معى ، واطلب من السيدة الوالدة الدعاء الصالح حتى أجتاز هذه العقبة وأعود إليكم بقلب يحسر بكل شرف أن يقابل ولىّ نعمته أخاه الأكبر ، بل الصادق ، جزاه الله خير الجزاء » .

وفى يوم الجمعة ٢ من نوفمبر سنة ١٨٩٤ تلقى أخوه رسالة يقول فيها مصطفى : « ربما ظهرت نتيجة امتحانى فى يوم ١٧ أو ١٨ الجارى ، وانتظروا منى تلغرافاً فى مساء أحد هذين اليومين » .

وجاءت البرقية تحمل بشرى النجاح ، ثم جاءت بعدها رسالة يقول فيها . « اليوم أحمد الله حمداً كبيراً وأشكره شكراً جزيلا أن فك قيد أسرى . ومنّ بإطلاقى فى ميدان الحرية ، فقد أصبحت حاملا شهادة الحقوق ، وقد عولت بمشيئة الله على الانتظام فى سلك رجال المحاماة لأدافع عن حقوق الأفراد ، وأرجو أن أبلغ ما أتمنى لأكون المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع » .

ثم شرح ظروف هذا الامتحان الغريب فقال : . . . حتى إذا

جاء ميعاد الامتحان دخلت إليه ضعيفاً نحيلا ضئيلا ، فلما ذكر اسمى أمام القسم الأول من اللجنة التى كان يرأسها المدير العامل نظر جنابه مبتسماً مندهشاً « أنت ضعيف يا مسيو كامل » ، فأجبته بكل خضوع : إن من يريد امتلاك قلعة عليه أن يضحى شيئاً من صحته وبعد أن قضيت الامتحان أمام لجنته فى ثلاثة علوم كنت فيها أرى من الممتحنين موافقة على كل جواب ، ورفقاً فى المناقشة ، وتلطفاً فى الاختيار ، انتقلت لتمضية القسم الآخر من الامتحان أمام اللجنة الأخرى ، فلقيت العكس فى المعاملة من عضوين منها ، هما الرئيس الشرفى وأحد مساعديه فى معارضة قبول طلبى تأديتى الامتحان أمام كلية طولوز . ولما كان ما رأيته منهما ينقل المرء من الحلم إلى السخط ، ومن الرضا إلى الغضب ، فقد جلست أمام الأول وهو الرئيس الشرفى فأخذ يسألنى فى القانون الدولى أسئلة كنت أراها سهلة فأجبت عنها جواب الواثق المستبشر بسرور وانشراح صدر ، ولكنى كنت قبل أن أفرغ من الجواب عن كل سؤال أجدمن ذلك الأستاذ عنتاً غريباً ومغالطة ظاهرة واعتراضاً غير لائق . . . بل كنت أراه يضرب الأرض بقدميه صارخاً فى وجهى مثيراً بكلتا يديه ليثير خاطرى ، ولكن الله ألهمنى السداد فلم أجبه على عمله ولم أظهر له تألماً ولا استياء ، بل صابرته وحاسنته حتى سود علامتى وانتقلت من أمامه إلى زميله الذى لم يكن بإزائى أقل منه إتقانا لهذه المعاملة القاسية » .

وقد حدث بعد ذلك شئ عوض مصطفى كامل عن هذا العنت ، فقد دعاه بعد ظهور نجاحه المدير الشرفى نفسه وهنأه أحسن تهنئة على هذا النجاح ، « وسألنى أن أعتبر ما صنعه معى غيرة على سمعة فرنسا وشرف كلياتها ، لأن هذا الاستثناء الذى عوملت به لم يقع حتى الآن لأجنبى فى جميع تاريخ الكلية » .

ولاشك فى أن القسمين : القسم المتلطف مع مصطفى كامل ،

والقسم المتشدد ، قد لاحظا أن مصطفى كامل شاب يحسن لغة بلادهم ويعبر بها جيداً ، ويفهمها فهماً حسناً ، وأنه مهما كان نصيبه من العلم الذى يمتحن فيه قليلا فهو يدرى من أصول هذه المادة وكلياتها ما يكفى ليواجه الحياة العملية التى تزود التلاميذ ذوى الاستعداد الطبيعى ، الراغبين فى الحياة ، بالعلم الذى يلزمهم ، وبالخبرة التى تحتاج إليها وظيفتهم .

لذلك منح مصطفى إجازة الليسانس من فرنسا ، وأصبح قادراً على أن ينزل بقاربه الصغير إلى محيط الحياة العامة ، لا فى مصر وحدها بل فى الدنيا قاطبة ، ليناجز أكبر دول الأرض قوة ، ويندد بأخطائها فى حكم بلده ، وبسوءات احتلالها لوطنه ، ويطالبها بالجلاء ، ويطالب بنى قومه أن يقفوا معه صفاً واحداً لتحقيق هذا الهدف العظيم .

وانتهت صفحة هذا التلميذ القلق ، لتبدأ صفحة السياسى المثير لحب أنصاره وقلق أعدائه .

الفصل الثالث

الشهاب الخاطف

ولد مصطفى كامل فى ١٤ من أغسطس سنة ١٨٧٤ ، ولحق بالرفيق الأعلى فى العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨ ، فيكون ماعاشه فى عالمنا أقل من أربع وثلاثين سنة ، ولكن هذه السنوات القليلة فى حساب الأرقام ، كانت طويلة وعميقة فى حساب الآثار الباقية ، وفى حساب الأعمال العظيمة . وفى حساب الحركة الفياضة بالخير والبركة .

وقد يكون الوقوف أمام أعمال هذه الحياة وأدوارها ونشاط صاحبها المتقد ، والكلام الذى قاله ، والكلام الذى كتبه ، والأسفار التى قام بها ، والأفكار التى نثر بذورها ، والأعداء الذين هاجمهم وغلبهم ، والأصدقاء الذين استكثر منهم ، وجند جنوده من صفوفهم والآمال التى أحياها ، والرؤى التى بعثها ، والقوى الهاجعة التى أيقظها ، والهمم الراكدة التى أشعلها — قد يكون كل هذا شيئاً ممتعاً ، ولكن قد يكون النظر إلى الصورة فى إجمالها من بعيد واتساعها ، لتبدو الفكرة الكلية التى تربط تفاصيلها ، أدعى إلى إدراك جلال ما عمله مصطفى كامل . ولذلك يحسن أن نتهيأ للجرى مع مصطفى كامل ، فى سياحة شاملة لحياته ، ننتقل من كل معلم فيها إلى الذى يليه فى سرعة ، ولو كلفنا هذا الجهد . . وحينما نفرغ من هذه السياحة ، نعود إلى التفاصيل والجزئيات أو إلى بعضها لنتذوق بعض معانيها على مهل .

بعد أن أتم مصطفى دراسة الابتدائية سنة ١٨٨٦ ، دخل المدرسة التجهيزية ، وفى هذه المرحلة التى تسبق الشباب ، عرف على باشا مبارك أكبر وزراء مصر فضلا على العلم والتعليم والثقافة العامة والشباب ،

وأصبح أباه الروحى ، خطب بين يديه، كما خطب بين يدى الخديو توفيق ، فكشف بنفسه لنفسه موهبة الخطابة ، وقرر أن يتخذ منها سلاحًا يحارب به فى مستقبله . وعرف فى نفسه أنه قادر على أن يرفض العدوان الواقع عليه ، وأن يرده فى حزم ، وأن يتأر لما يصيبه من أذى . وهذا أول طريق الزعامة . فالصبى الذى لا تربكه الإهانة من الكبار ، فلا يفقد عقله ، ولا يخطئ سبيله ، ولا يشعر بنقص فى ثقته بنفسه ، لا يصرفه شىء عن طريق الزعامة إلى طريق التأمل واجترار الألم ، فيصبح أديبًا أو فيلسوفاً ، أو متصوفًا ، أما إذا غلبته الهزيمة فقد يرسب فى القاع شخصًا بلا مستقبل ولا دور .

وفى السنة الثانية بالمدرسة التجهيزية أسس جمعية أدبية وطنية اسمها جمعية « الصليبة الأدبية » نسبة إلى الحى الذى يعيش فيه ، ودعا بعض زملائه ليكونوا أعضاء فيها ، واتخذ منهم جمهوراً له يسمع خطبه ومحاضراته ، وعلم بأمر جمعية أدبية أكثر من جمعيته انتظاماً هى جمعية « الاعتدال » التى تعقد جلساتها الأسبوعية فى مدرسة الأمريكان ، فانضم إليها ، ليوسع دائرة معارفه ، وليعرض موهبته فى الحديث والخطابة ، والظاهر أن التوفيق حالف هذه الجمعية ، فانضم إليها سبعون عضواً .

ودخل مدرسة الحقوق لأنها مدرسة الخطابة والكتابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم ، فأعلن بهذا التعريف لهذه المدرسة بأنه لن يضيع شيئًا من وقته دون العمل لهدفه الكبير الذى سيستولى على لبه وعقله حتى آخر لحظة من حياته ، وأضاف إلى رياسته لجمعية الصليبة الأدبية ، وعضويته فى جمعية الاعتدال بمدرسة الأمريكان عمله فى جمعيتى « الهدى » و « العلم المصرى » ، وأصبح يتنقل بين الجمعيات الأربع كالنحلة التى تحط على كل زهرة ، وتعود آخر اليوم وقد امتلأت بالرحيق ، وانتقل من العمل فى جمعيات الشبان إلى التعرف على الشخصيات الكبيرة ، فعرف الشاعر الفكه الضاحك على الليثى ، الذى امتد عمره

حتى بلغ المائة . كما عرف أعظم رجالات مصر فى ذلك العهد : وفى مقدمتهم أمين باشا فكرى مدير الدائرة السنية وإسماعيل صبرى باشا وكيل وزارة العدل وشاعر مصر الرقيق الأنيق : ومحمد مجدى بك المستشار بمحكمة الاستئناف ، ومحمود بك سالم القاضى بالمحكمة المختلطة الذى عاش حياته فى خارج مصر . داعياً للإسلام ، فى مجلته « عرفات » كيف استطاع صبى صغير فى هذه السن أن يكون صديقاً لهؤلاء ؟ وكيف قبلوا أن يكون بينهم وبينه ما يكون بين الرجل وندّه ؟! وفى سنة ١٨٩٢ سافر إلى الإسكندرية التماساً للترويح عن النفس ، فقدمه خليل مطران الشاعر الكبير ، الذى كان قد تعرف عليه مصطفى قبل ذلك ، إلى بشارة تكلا باشا صاحب جريدة الأهرام ورئيس تحريرها ، الذى أعانه بعد ذلك ، وقدم له خدمات جليلة الشأن ، ثم بدأ يكتب مقالاته فى جريدته وقعها أولا باسم مستعار : « مصرى صادق » و « مصرى أمين » و « مصرى » فقط ، وفى ٢٠ من يناير سنة ١٨٩٣ تزعم مظاهرة ضد المقطم ، وفى ١١ من فبراير سنة ١٨٩٣ نشر أول مقال له فى جريدة الأهرام بعنوان « نصيحة وطنى » بإمضائه الصريح ، وبعد أيام صدر مقاله الثانى ، وفى السنة نفسها أصدر رسالة صغيرة عن الرق عند الرومان ، ثم سافر إلى مرسيليا فى ٢٣ من يونية ، وكانت تلك هى سفرته الأولى . ومن فرنسا أرسل مقاله الثالث ، وفى مارس نشر مقاله الرابع ، وفى أبريل نشر مقاله الخامس وكان موضوعه « الجامعة » وبعد قليل نشر المقال السادس فى الشهر نفسه ، وفى أغسطس عاد إلى مصر ، وفى أول العام الدراسى انتسب إلى مدرسة الحقوق الفرنسية ، وفى أول يولية سنة ١٨٩٤ كانت سفرته الثانية إلى فرنسا ، ومن فرنسا أرسل إلى الأهرام خمس مقالات ، كلها عن معارض رآها فى ليون وفى أنفرس ببلجيكا ، وعن معرض موقعة « واترلو » الذى يمثل الموقعة التاريخية التى هزم فيها نابليون هزيمته التى أنهت حياته العامة سنة ١٨١٥ ، وعاد إلى

فرنسا مريضًا وحزينًا حينما بلغه نبأ وفاة أخيه الشاب عبد الفتاح فتحى ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى فرنسا وينجح فى مغامرته الغريبة ، مغامرة التقدم إلى امتحانى سنتين فى سنة واحدة وفى كليتين فى فرنسا ، وختم سنة ١٨٩٤ بوضع مسرحية « فتح الأندلس » ، وهى أول مسرحية مصرية توضع فى هذا الوقت المبكر من حياة التأليف المسرحى والأدبى فى حياتنا . ولو أحصينا الأعمال الأدبية غير القصائد والمقالات لما وجدنا إلى جانب هذه المسرحية قصة ولا مسرحية أخرى فيما عدا قصة « علم الدين » التى وضعها على مبارك ، فى تاريخ متأخر ، وعاد مصطفى فى ٢٨ من ديسمبر سنة ١٨٩٤ إلى نشر المقالات فى الأهرام . وفى ٢٨ من يناير سنة ١٨٩٥ نشر أول حديث صحفى له ، ولعله من أوائل الأحاديث الصحفية فى مصر ، فى تلك الأيام كان العمل الصحفى فى بدايته كله مقالات ، وكانت الأحاديث شيئًا غير معروف ، وكان الحديث مع شقيق اللورد كرومر حاكم مصر الحقيقى . وقد أثار هذا الحديث بصراحة المتحدث إليه ضجة يهنأ عليها مصطفى كامل باعتباره صحفيًّا ناشئًا . وفى ١٥ فبراير سنة ١٨٩٥ أصدرت حكومة الاحتلال قانونًا منشئًا للمحكمة المخصوصة التى تحاكم المعتدين على جيش الاحتلال ، وهى محكمة لا تتقيد بقانون لا فى إجراءاتها ولا فى أحكامها ، فكتب مصطفى مقالا ناريًّا يندد بها وببواعث الاحتلال من إنشائها ، وفى ٢١ من مارس فى هذه السنة وصل النائب الفرنسى « ديلونكل » صديق مصر ، فاستقبله مصطفى كامل وإخوانه ، وأقاموا له الحفلات ، مما أغاظ دوائر الاحتلال . وفى ١١ من أبريل أقام لديلونكل حفلة وداع ، وفى ٥ من يونية سنة ١٨٩٥ ؛ هدته سليقته الدعائية إلى تقديم لوحة إلى المسيو بريسون رئيس مجلس النواب الفرنسى لكى يخرج من إسار المقالات والنداءات إلى لون جديد يكون أطرف وأوجز ، وكان قد عهد إلى فرنسى فنان رسم لوحة تمثل فرنسا « ماريان » رمز هذه الدولة وقد اتشحت بالعلم الفرنسى المثلث

وهى تتسلم من شاب مصرى طلبا ؛ وإلى جانبها الأمم التى حررتها فرنسا ؛ وهى الولايات المتحدة واليونان وبلجيكا وإيطاليا ؛ وفى الجانب الأمامى من اللوحة وقفت فتاة ترمز إلى مصر مكبلة بالأغلال يحرسها جندى غشوم مدجج بالسلاح يرمز إلى الاحتلال البريطانى ؛ ويقف إلى جانبه أسد يرمز إلى إمبراطورية البريطانيين ؛ وإلى جانب الفتاة النيل يمثله شيخ يتكئ إلى جرة ينساب منها الماء غزيراً، وقد نظم مصطفى تحت هذه اللوحة الملونة أبياتا من الشعر البسيط ؛ وترجمتها إلى الفرنسية ؛ وقصد إلى أمانة مجلس النواب الفرنسى ومعه عدد من إخوانه المصريين وأودع فيها هذه اللوحة ، ورسالة كتبهامصطفى بأسلوبه النادر الذى يجمع بين البساطة والسهولة والحرارة وحسن الإيقاع ؛ وقد رحبت الصحف الفرنسيةأيما ترحيب بهذه اللوحة ؛ وانهالت الصحف البريطانية ؛ على مصطفى بأشد اللوم وأقسى النقد ؛ وكسب مصطفى من كل ذلك شهرة ومكانة . ولم يكد يفرغ من هذه الحملة الموفقة حتى أرسل إلى مصر ، وإلى أخيه فى السودان مئات من النسخ من هذه اللوحة ؛ فكان الناس يتداولونها سراً ؛ وكل من وصلته فى مصر نسخة منها حرص عليها ؛ وعدها من ذخائر بيته وربما أورثها أولاده بعد حياته .

ثم سافر مصطفى إلى برلين ، وكانت هذه سفرته الأولى إلى ألمانيا ؛ وكأنه اهتدى منذ البداية أن الواجب الوطنى يقتضيه أن يوسع نطاق نشاطه الدعائى والسياسى ؛ وأن يستكثر من الأصدقاء والأصحاب والمنابر السياسية والصحفية ؛ وكان « ديلونكل » النائب الفرنسى قد قدم مصطفى إلى رئيس تحرير جريدة « البرلنير تاجبلاط » وهى أهم الصحف الألمانية ، فنشأت بين الشاب المصرى الناشئ والصحفى الألمانى الكبير صداقة أفادت مصطفى كثيراً . وعاد إلى فرنسا فأجرى حديثاً مع رئيس تحرير جريدة الجورنال ، نشر فى عدد ٢ يوليه ، ثم سافر إلى طولوز ، إذ دعته كلية الآداب ليخطب فيها ، وطولوز هى المدينة صاحبة الفضل

عليه ، فقد يسرت له الحصول على الليسانس بامتحان واحد عن سنتين دراسيتين . فألقى خطاباً فى الرابع من يولية شرح فيه للأساتذة ورجال الصحافة والنواب أموراً يجهلونها تماماً عن شئون مصر ، وما يجرى فيها ، وعما يصيب النفوذ الفرنسى والثقافة الفرنسية من المطاردة والتضييق . وفى اليوم التالى نشرت جريدة « لادى بيش دى طولوز » مقتطفات من خطبة الأمس ، تحت عنوان « الجلاء عن مصر » . ولا شك أن هذه المقالة كانت أول مقال ينشر فى صحف طولوز عن الاحتلال البريطانى فى مصر ، ويكشف عن حركة المقاومة له . واطلعت الصحف الألمانية والنمساوية على هذه المقتطفات فعلقت عليها ، ولم يترك مصطفى طولوز حتى أقام وليمة دعا إليها كبار الكتاب والساسة والصحفيين ليشكرهم ما أبدوه نحوه من الاهتمام وما أبدوه نحو قضية مصر من حسن التفهم ، وعند انتهاء المادبة قام كل من « لويس إريست باسريو » نقيب الصحفيين ورئيس تحرير « لادى بيش دى طولوز » فألقى كل منهما كلمة دافع فيها عن مصر . ثم شكرهم مصطفى بكلمة تضمنت ترويجاً لأفكاره ضد الاحتلال البريطانى ، وبعد أن أقام بضعة أيام بين برلين وباريس ، رحل إلى فيينا عاصمة النمسا فوصل إليها ٢٠ من يولية سنة ١٨٩٥ ؛ وعقب وصوله أدلى بحديث إلى جريدة « اكسترابلات » وهذه الجريدة هى بمثابة جريدة التيمس فى لندن ، والبرلينر تاجبلاط فى برلين والطان فى فرنسا ، وقد تكلم فى حديثه هذا عن خطر موقع مصر ، وخطر مزاياها السياسية والثقافية ، وعاد مصطفى إلى مصر ، فرأى أنه قد تجمع من حصيلة مقالات العام الماضى ما يكفى لإصدار رسالة تضمها ، فترجم مقالاته وأحاديثه تلك إلى الفرنسية ، ونشرها تحت عنوان « أخطار الاحتلال البريطانى » ، ووزعها يميناً ويساراً ، على الصحف والساسة ، وقد أكسبته هذه الرسالة صداقات كان فى مقدمتها صداقته لمدام جولييت آدم ، صاحبة « المجلة الجديدة » الفرنسية الذائعة الصيت ، وهى الصداقة التى استمرت إلى آخر عمره . وفى وقت صدور رسالته هذه ألغت الحكومة

المصرية ، بضغط من الاحتلال البريطانى ، البعثة المصرية العلمية إلى باريس . فانتهز مصطفى هذه المناسبة المثيرة لخواطر الفرنسيين وأدلى بحديث إلى جريدة « الإكلير الفرنسية » فى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٩٥ .

والفرنسيون حسّاسون لكل ما يمسّ نفوذهم وثقافتهم فى مصر ، فقد كانت مصر عندهم طليعة زحف النفوذ الفرنسى الثقافى والسياسى على المنطقة العربية ، وما بعدها ، ولم ينس الفرنسيون قطّ ما تمتعوا به طول حكم محمد على وسعيد وإسماعيل من نفوذ . وفى ١٢ من سبتمبر سنة ١٨٩٥ أرسل مصطفى رسالته التاريخة إلى مدام جولييت آدم التى قال لها فيها : « إنى لا أزال صغير السن . لكن لى آمالا كباراً . إنى أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة ، وقد نلت إجازة الحقوق من طولوز . وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص اللذين أشعر بهما فى سبيل الوطن العزيز ورفعته . فأعينينى ياسيدتى ، فإن وطنيتك بلغت حداً يجعلك تفهمينى وتقوين عزمى وتشدّين أزرى » .

ثم عاد إلى باريس وطلب مقابلتها ، فحددت له موعداً فى التو ، وعلقت على هذه المقابلة فقالت : « ولما كنت بطبيعتى عدوة لدوداً لإنجلترا وصديقة حميمة لمصر ، ظللت أنتظر سنين طويلة نهوض مصرى فى وادى النيل ، وكنت واثقة دائماً أن الله يبعث عندما يحين الوقت ، على لسان بعض الناس ، الكلمة الطيبة التى تجد مرتعاً خصباً فى النفوس فتثمر فيها بعد جدب » .

مسّت رسالة مصطفى شغاف قلب هذه الصحفية المتمرسة ، الغنية ذات النفوذ ، زوجة رجل من أكبر رجال السياسة الفرنسية ، وكانت آنذاك قد قاربت الستين ، وقد عمرت بعد ذلك حتى بلغت المائة ، إذ ولدت سنة ١٨٣٦ وتوفيت سنة ١٩٣٦ ؛ وأصبحت له أمّاً منذ رأته ، وأعجبت بلطف شخصيته ، وحرارة حديثه ، وصدق لهجته وبساطته ، وانقطاعه للعمل الوطنى فى بلده ، وكانت له « أمّاً » بحق ، عنيت بتقديمه إلى الصحفيين

والساسة ، كما عنيت برعاية صحته ، كلما كان قريبا منها ، وقد عرفت ضعف بنيته ، واستعداده للمرض الذى يزيد منه المجهود المضنى الذى يتحمله ، الحرمان المستمر الذى يعيش فى ظله .

واقترحت جولييت على مصطفى أن يكتب مقالا لمجلتها الشهرية فى العدد الذى يصدر فى الخامس عشر من نوفمبر ، فهاله أن ينتظر شهراً كاملا ، فلما اعتذرت له بأن عدد منتصف أكتوبر قد تم إعداده وأرسلت مواده إلى المطبعة فعلا ، أعلنها بأنه لا يريد أن يكتب فى المجلات الشهرية لأنه يود أن يتصل بالجماهير على نطاق واسع ، وعلى وجه السرعة والاستمرار ، الأمر الذى لا يتوافر فى مجلة شهرية ، وإن كانت مجلة فى خطر ومكانة مجلة « لانوفيل ريفو » ، المجلة الجديدة ، التى تصدرها مدام جولييت آدم . ولم تغضبها هذه الحماسة من مصطفى ، واتفقت معه على حل وسط ، إذ رضى أن يكتب مقالا موجزاً عن الإسلام وبريطانيا ، تضمنه مقالتها الافتتاحية فى عدد منتصف أكتوبر ، على أن تقدمه لمن تعرفهم من كبار المحررين وأصحاب الصحف ، ولم يكد مقال « بريطانيا والإسلام » ينشر فى المجلة الجديدة حتى طلبت جريدتا « لوجولوا » و « لوجرنال » ؛ من مصطفى حديثا يكون موضوعه واحداً ، إذ سألته الصحفيتان : هل تستطيع مصر إذا غادر المحتل أراضيها أن تحكم نفسها بنفسها ؟ وما هو الضمان الذى تستطيع أن تقدمه مصر فى هذه الحالة لدائنيها محافظة على ديونهم ؟ ثم ما هى وسائل الإصلاح التى يريد المصريون إدخالها إذا سلمت لهم مقاليد الأمور ؟

فى أواخر سنة ١٨٩٥ عزم مصطفى كامل على السفر إلى الآستانة عاصمة تركيا ، لولا نشوب أزمة وزارية خطيرة فى فرنسا بسبب فضيحة مالية فى سكك حديد جنوبى فرنسا وأمور أخرى ، فانتظر مصطفى حتى تنجلى الأزمة ، لأنه لم يكن مجرد كاتب يكرر كلاما واحدا فى كل مناسبة وإنما كان سياسيا ، يهمه أن يعرف مهاب الريح ، وفى تلك الأثناء ،

وبالذات فى يوم ١٣ من نوفمبر ، ألقى اللورد سالسبورى رئيس وزراء بريطانيا خطابا فى مقر محافظة لندن المعروف بـ « جيلدهول » دافع فيه عن الأرمن ، وحمل حملة شعواء على تركيا ، فتصدى له مصطفى كامل إذ أرسل إليه رسالة بين فيها سوء وقع خطاب رئيس وزراء بريطانيا فى الأمم الإسلامية التى لم تعد تثق ببريطانيا . ونشرت صحف فرنسا من هذه الرسالة المفتوحة مقتطفات ، وأظهرت إعجابها برجاحة عقل كاتبها وصراحته وحسن أسلوبه فى الجدال ، كما علقت عليها صحف النمسا وألمانيا وروسيا لارتباط مشكلة الأرمن بكل منها على وجه من الوجوه ، وللمنافسات الظاهرة والخفية بين تلك الدول ، ولاتصال هذه الأزمة كذلك بمركز سلطان تركيا التى كانت كل هذه الدول تطمع فى أملاكها وتود أن تقتسمها فيما بينها .

وقبل أن ينتهى عام ١٨٩٩ ألقى مصطفى كامل خطابا فى الجمعية الجغرافية فى باريس ، وهى جمعية من أكبر جمعيات عاصمة فرنسا ، ومنبرها لا يتاح إلا لذوى المكانة والأهمية فى دنيا السياسة أو العلوم الاجتماعية ، وقد أدار مصطفى خطبته على بيان جهود بريطانيا فى إحلال نفوذها محل النفوذ الأوربى بصفة عامة لأنها تملأ الوظائف فى مصر ببريطانيين ، وبعضهم حل محل الفرنسيين وغيرهم ، وغايتها أن تخضع الإدارة المصرية أو تصبغها بالصبغة البريطانية ، مع التضييق على الخديو الذى زعمت بريطانيا أنها جاءت لتحميه وتحمى سلطانه .

فلما أهل العام الجديد بادر مصطفى كامل بتوجيه رسالة إلى جلادستون رئيس الوزراء البريطانى السابق فى ٢ من يناير ١٨٩٦ ، يسأله فيها ألا يزال على رأيه من أن الجلاء عن مصر هو الحل الوحيد للمسألة المصرية ، باعتباره من أكبر أنصار هذا الجلاء .

وفى ١٤ من يناير سنة ١٨٩٦ رد جلادستون من مصيفه ببيارتز فى النمسا على مصطفى قائلا : « إن زمن الجلاء ، على ما أعلم ، قد حان

منذ سنين » . وقد كان لهذه الرسالة والرد عليها دوى فى دوائر السياسة المصرية والبريطانية والفرنسية والعالمية على السواء ، فجلادستون قطب من أقطاب السياسة البريطانية والدولية ورئيس حزب الأحرار البريطانى ، وكان لرده قيمة كبرى . وتلقفت الصحف الفرنسية رد جلادستون ورسالة مصطفى فعلقت عليهما ، وفى مقدمة تلك الصحف « الديبا » صاحبة النفوذ ، و « الفيجارو » العتيدة ثم « لوسوار » التى أخذت بهذه المناسبة حديثاً من « جول دولانوس » النائب الفرنسى الذى يهتم بالمسألة المصرية . ثم جريدة « لوكلير » فى اليوم التالى .

وعاد مصطفى إلى بلاده بعد هذه الجولات الواسعة فى الصحف والعواصم ، وفى ٣ مارس ذهب إلى الإسكندرية ليلقى خطاباً فى « تياترو عباس » . احتشد لسماعه فيه نحو ثلاثة آلاف مصرى . وقد كانت الاجتماعات السياسية يومذاك لا تجد هذا الاهتمام ، ولا يجتمع فيها نصف هذا العدد أو أقل — ولكن أنباء مصطفى التى كانت تملأ الصحف ، ونشاطه المتجدد ، والمبتكر من الرسالة إلى الصورة إلى المقالة ، إلى الحفلة إلى الحديث ، وكلها وسائل لم تكن معروفة للمصريين ، جعلته مثيراً للاهتمام . فلما عاد مصطفى من الإسكندرية ، ودعه على المحطة مئات من الذين سمعوه بالأمس ، وقدموا له وساماً من الفضة كتب على أحد وجهيه : «برهان الإخلاص من أهالى الإسكندرية للوطنى الغيور مصطفى كامل » .

ولما كانت بريطانيا قد قررت أن تنفذ حملة إلى دنقلة فى السودان ، بدعوى مساعدة إيطاليا التى هزمها نجاشى الحبشة فى موقعة « عدوة » هزيمة منكرة ، فى حين أن الغاية الحقيقية من هذه الحملة كانت بدء استرداد السودان بجيش المصريين وبقيادة بريطانية — سارعت جريدة « لوكلير » الفرنسية وأجرت مع مصطفى حديثاً ندد فيه بهذه الحملة ، وكشف القناع عن نوايا بريطانيا وسوء ما تعتزمه فى السودان .

ثم عاد إلى المنبر ثانية ، فخطب فى ١٣ من أبريل سنة ١٨٨٦ ،

فى كازينو « زيزنيا » بالإسكندرية خطبة علق فيها على الأحداث الجارية ، وتناول فيها المسائل الدولية بالشرح والتعليق ؛ فكان خطابه هذا كسابقه حملة على الاحتلال البريطانى من جهة ، ودرساً للمواطنين والأجانب فى الشئون الدولية من وجهة النظر المصرية ، فقد تناول مصطفى فى هذا الخطاب الشئون الإفريقية كما تناول الشئون الإسلامية ، والمسألة الآسيوية ، التى تدور حول صراع دول الغرب الكبرى مع اليابان وحول الصين .

وقد علقت على هذه الخطب جرائد الإسكندرية الأجنبية مثل « لوفار ألكساندرى » « والريفورم » ، ثم أفردت الصحف الأوربية والأمريكية لها أعمدتها ، أما الصحافة الإنجليزية — وعلى رأسها الجريدة الوقور « التيمس » — فقد تنازلت عن وقارها ، وقالت لمصطفى : إننا — نحن البريطانيين — مستعدون للجلاء عن مصر ، إذا ما رأينا جمعاً غفيراً من المصريين فى وطنية مصطفى كامل الذى ينفرد من بينهم بحماس » .

وفى ٧ من سبتمبر سنة ١٨٩٦ تحدث إلى جريدة « ليبر بارول » عن مشاعر المصريين نحو فرنسا ، فصارح المندوب بأن مركز فرنسا تزعزع لما تبديه فرنسا وحكومتها من الضعف أمام الاحتلال البريطانى الذى يتغول فى مصر وفى إفريقيا ، وبعد أيام قليلة أفضى إلى جريدة « لوكلير » بحديث بمناسبة ذكرى ١٤ سبتمبر ، ذكرى احتلال البريطانيين للقاهرة .

وفى منتصف شهر أكتوبر سافر إلى برلين ، واتصل برجال السياسة والصحافة الذين كان قد سبق له التعرف بهم فى الزيارات السابقة ، وزاد عليهم عدد غير قليل ، فقامت الصحف بتقديمه إلى قرائها ، ولاسيما صحيفة « البرلنرتاجبلاط » التى اعتادت أن تنشر له الأحاديث وتذكر عن نشاطه الأنباء و « وذى بوست » صحيفة حزب المحافظين الألمان . وفى ٢٤ من سبتمبر سنة ١٨٩٦ أرسل مصطفى إلى النائب النمساوى

جوزيف يويوسكى المهتم بالسياسة الدولية رسالة يرجوه فيها أن يشرح رأيه فى السياسة التى يجب أن ينتهجها التحالف الثلاثى المكون من بلاد «النمسا وألمانيا وإيطاليا» ، فرد عليه رداً أزعج خاطر مصطفى ، لأنه قال له إن الظاهر أن المصريين راضون عن الاحتلال البريطانى ، بدليل أن جيش الاحتلال لا يزيد على بضعة آلاف فى حين أن الجيش المصرى ورجال الشرطة يفوقونه عدداً . وقد كانت هذه الملحوظة ، مع كونها قارصة ، مما يجب أن يسمعه مصطفى ، ليفكر فى جانب العمل الإيجابى إلى جانب النشاط الدعائى ، وفى ١٨ أكتوبر من السنة نفسها نشرت له جريدة اكسترتاجبلاط النمساوية حديثا ، وفى ٢٧ أكتوبر وصل مصطفى إلى الآستانة ، بعد أن أقام يومين فى بودابست . فكان نزوله فى الآستانة فى ضيافة سلطان تركيا ، وفى أول نوفمبر سنة ١٨٩٦ زار الصدر الأعظم ، أى رئيس وزراء تركيا ، فأفضى إليه رئيس الوزراء بأن السلطان خوله الحرية التامة فى الاتصال بالشخصيات التى يهمه الاتصال بهم ، وسأله عن الرتبة والأوسمة التى يحملها ، فعلم أنه لا يحمل وساما ولا يتمتع برتبة ، ثم تحدث فى ٣ من نوفمبر إلى أحد محررى جريدة فارنكفورت كورييه الألمانية التى تصدر فى تركيا ثم أفضى بعد أسبوع بحديث إلى مراسل جريدة « نيويورك هرالد » الأمريكية فى الآستانة .

وقد أصبح مصطفى كامل ، بفضل هذا النشاط المتصل والمتقد ، صديقاً لعدد من المشتغلين بالسياسة فى مختلف الأقطار ، على البعد ، يكتبون له ، ويرد عليهم ، دون أن يلتقوا لقاء الأجسام ، من ذلك النائب « الدكتور هوفمان زينفر » رئيس حزب الشمال بالبرلمان الألمانى الذى أرسل إليه فى ١٨ من نوفمبر رسالة يقول له فيها إنى قرأت أعمالك الأخيرة ، وتتبعت كل خطواتك دفاعاً عن بلدك العزيز ، فوجدتها لم تصدر إلا عن وطنى مخلص ، ذكى نشيط ، فأهنئك بهذه المكانة التى تدهش كل من وقف عليها ، وعرف أن سنك هى سنك (أى اثنان وعشرون عاماً) .

كما تلقى من النائب الإيطالى « كانى فورشيلا » كتابـاً قال فيه لمصطفى فى ٢٤ من نوفمبر : «إنك بأعمالك تلفت من جديد نظر العالم إلى تاريخ مصر القديم والجديد ، وتعيد ذكرى الفراعنة الذين حملوا قبل بنى البشر تاج العلم ، ودخلوا جنة الصناعة ، إنك لا تقل فى نظرى عن أوربى ذى رأس كبير محنك » .

ثم كتبت بعد ذلك جريدة « الإندبندانس بلج » البلجيكية الشهيرة فصلا بعددها الصادر فى ٢٣ من نوفمبر عن المسألة المصرية .

وبقى مصطفى فى الآستانة حتى نوفمبر سنة ١٨٩٦ ، ثم عاد إلى مصر فوصل إليها فى ١٥ من الشهر نفسه فاستقبل على محطة العاصمة بالتحية والترحاب من جمهور غفير تتبع أعماله . ولكن السلطات الإنجليزية والسلطات المصرية التى تأتمر بأمر الإنجليز كانت قد ضاقت بنشاطه ، فأرادت أن تسكت صوته فادعت أنه أخطر بتاريخ تجنيده ولم يدفع البدل النقدى فى الموعد القانونى ، فأصبح تجنيده واجبـاً ، لأنه لم يطعن فى هذا الإخطار فى الموعد القانونى ، ولكن وطنية شيخ الحارة الذى يتبعه منزل مصطفى — وهو الشيخ محمد زيدان — أبت عليه أن يساير السلطات فى كيدها الحقير ، فأبى أن يقرر أنه أعلن مصطفى أو أحد ذويه بإشعار التجنيد ، فباءت المكيدة الحقيرة بالإخفاق ، وأكسبت مصطفى عطفـاً عامـاً ، فقد طيرت شركة « هافاس » الفرنسية للأنباء هذه المحاولة ، وعلقت عليها بقولها : » إن المحتلين يريدون تجنيد مصطفى كامل السياسى الشهير مع أن القوانين تستثنى من القرعة حاملى شهادة الحقوق القادرين على دفع البدل ، لأن هذا الرجل من أكبر زعماء الحزب الوطنى الذين وقفوا أنفسهم لتحرير مصر » .

واستفتح مصطفى كامل سنة ١٨٩٧ بنداء وجهه إلى الشعب الألمانى بمناسبة عيد ميلاد الإمبراطور غليوم الثانى ، ليعرض على الشعب الألمانى القضية المصرية طالبـاً منه أن يخرج من عزلته وحياده ، ويؤيد مصر

فى كفاحها . وبعد أيام نشرت جريدة « برلبنرتا جبلاط النداء وشفعته بالتعليق التالى :

« إن هذا النداء الموجه من وطنى عظيم ، يدفع ألمانيا إلى الاهتمام بالشعب المصرى ومؤازرته عمليًا لا الاكتفاء بالعطف عليه . يجب على ساستنا — وهم يعضدون اليوم حقوق البوير المسلوبة — أن يضيفوا إلى هذه القضية القضية المصرية » .

وفى الثالث عشر من مارس وصل مصطفى كامل إلى « تريستا » ، وسافر منها إلى « فيينا » حيث أقام أسبوعًا اتصل خلاله برجال السياسة والصحافة ، وفى مقدمتهم « هانزريزنر » الذى ألف كتابًا عن مصر عنوانه « مصر تحت الاحتلال البريطانى ، والقضية المصرية » .

وفى ٢٤ ما مارس سنة ١٨٩٧ أقام مصطفى مأدبة فى فندق متروبول لعدد من أعضاء البرلمان والصحفيين ورجال السياسة والشخصيات العامة ، وتحدث إليهم جميعًا عن الاحتلال البريطانى الذى ادعى الإنجليز أنه إجراء مؤقت لا يستمر أكثر من نصف سنة ، فاستمر حتى تاريخ هذه المأدبة ١٥ سنة ، وطالبهم جميعًا أن يعملوا على معاونة مصر على تحقيق هدفها وقال : «مصر وفية لا تنسى جميل من يحسن معها صنعًا » . ورد عليه صديقه الدكتور « هانز ريزنر » بخطبة ختمها بقوله : إن المصريين برهنوا على أنهم أهل مدنية عالية ، وإن الذين يقولون إن سكوتهم ناشئ عن جبن ليسوا إلا مفترين على الحق .

ومن فيينا سافر إلى بودابست يوم ٢٦ من مارس ، فودعه على المحطة جميع أصدقائه ومعارفه النمساويين الذين كانوا يزدادون عامًا بعد عام ، بفضل استمرار علاقته بهم ، وكثرة تردده على عاصمتهم . وما إن وصل إلى بودابست عاصمة المجر حتى وجد فى انتظاره عائلة الكونت « كرونزروث » التى عرفته بها مدام جوليبيت ، وقد قدمته هذه العائلة إلى رئيس وزراء المجر « جولد شوفسكى » ، ونجحت هذه العلاقات

فى لفت نظر الصحف الجرية إلى مصطفى ، فرحبت به وأثنت على جهاده ، ثم سافر إلى برلين فى ٥ من أبريل سنة ١٨٩٧ ، وقابل كالعادة الصفحيين والسياسيين ، وأجرى مع جريدة « برلينر تاجبلاط » حديثاً عن شؤون مصر ، كما أفضى بحديث آخر إلى جريدة « برليزتوست تخرختن » الألمانية ، ثم عاد إلى باريس ، فوجد فى موقف صحافة باريس منه نفوراً عرف أن سببه مقال نشرته جريدة « الإجبشيان جازيت» التى تصدر فى القاهرة بالإنجليزية حملت فيه على الحزب الوطنى ، ونسبت إليه وإلى مصطفى كامل أنه عامل على إفساد العلاقة بين المصريين والأجانب القاطنين بمصر ، وذلك بمناسبة دعوة مصطفى إلى التبرع للجيش التركى إبان الحرب بين تركيا واليونان ، ونقلت هذا الافتراء جريدة « الليبرتيه » الفرنسية ، فتأثرت به الصحف الأخرى ، فردّ على « الليبرتيه » نفسها برسالة نشرتها وعلقت عليها بقولها : إننا ننشر هذا الرد ليعرف قراؤنا الحقيقة التى شوهها الإنجليز والتى ينطق بها هذا الوطنى المصرى الكبير .

وعاد إلى مصر فى ١٢ من مايو سنة ١٨٩٧ ، وأخذ بمجرد وصوله إلى مصر يعدّ خطبة يوضح فيها موقف الوطنيين المصريين من المسألة اليونانية — التركية ، ويوضح علاقة مصر بتركيا ، التى أراد خصوم مصر أن يصوروها أنها علاقة قائمة على كره الأجانب والمسيحيين معاً ، والتعصب ضدهما .

وقد نجح هذا الاحتفال ، ونجحت الخطبة التى ألقاها فيه مصطفى حتى إن جريدة « ألفاردو ألكسندرى » التى تصدر فى الإسكندرية باللغة الفرنسية أثنت عليه ، كما أثنت عليه جريدة الوطن التى كان يصدرها مخائيل عبد السيد ، وقد قالت هذه الجريدة بالذات : « قد انشرح صدر كل من سمع خطاب حضرة الوطنى الماهر مصطفى أفندى كامل ، لأنه ظهر فى المصريين من هو مقتدر على الإعراب عن نوايا الأمة المصرية

بالاعتدال والرزانة والحض على مكارم الأخلاق والحث على المحبة والمسالمة» ، ونقلت قول مصطفى فى هذه الخطبة : « إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ، ولا يمكن التفريق بينهما إلى الأبد » .

وعاد إلى سفره وتجواله ، ففى يوم ٢٦ من يونية سنة ١٨٩٧ غادر الإسكندرية إلى الآستانة عاصمة تركيا فوصل إليها يوم ٢٩ ، فتوافد عليه فى الفندق الذى اختاره مراسلو الصحف ، على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم ، ثم سافر إلى بودابست فوصل إليها يوم ٧ يولية ، فأحسنت الصحف الترحيب بمقدمه — وقد صادف يوم ١١ يولية يوم ضرب الأسطول البريطانى الإسكندرية سنة ١٨٨٢ ، فأرسل من بودابست برقية احتجاج على مسلك بريطانيا القديم ، وعلى بقاء الاحتلال البريطانى جاثمًا على صدر مصر ، حتى تاريخ إرسال البرقية ، ثم أبلغ الصحف المجرية نص هذه البرقية فعلقت جريدة « بسترلويد » عليها بقولها : أما نحن المجريين الذين توارثنا فى دمائنا أبناء عن آباء حب الوطن وتمجيد الوطنية فنعطف بكل جوارحنا على مطالب المصريين ونهنئهم بوجود رجال بينهم مثل « مصطفى كامل » الذى نسميه بحق « كوشوت مصر » . وكوشوت هو بطل التحرير المجرى ، ضد الحكم النمساوى .

وقالت جريدة « روما وجيانوك لانجا » : « إننا نرحب بعمل مصطفى كامل صديق المجر ترحيب الوطنى بالوطنى ، ونقول للإنجليز إنكم تحسنون كثيراً إلى أنفسكم بالجلاء عن مصر » . وترامت أصداء نشاط مصطفى كامل إلى الولايات المتحدة ، فنشرت جريدة « النيويورك هرالد » إحدى أكبر خمس جرائد فى الولايات المتحدة كلها ، رسالة للمسيو سيمون تحدث فيها طويلا عن مصطفى ، قال فيها : « إن العالم المتمدين يسمع فى هذه السنين الأخيرة صوتًا رنانًا وطنيًا من الشرق ، وهو صوت سليل الفراعنة . هذا الصوت أسمعه بكل انشراح ، وأ قرؤه بكل

إمعان» ثم قال : « وإذا سأل الإنجليزى مصطفى كامل . أين أسلحة مصر ، وبواخرها وذهبها لتغلب أمته، الإنجليز وتملك مصر . فالجواب عندى : أن بواخر مصر هى نيلها . وأسلحتها إرادة أبنائها . وذهبها جمال وضعها » . وقد علقت جريدة « النيويورك هيرالد » على هذه الرسالة بقولها : « إن غرض مصطفى كامل شريف . وقد قدمناه لقرائنا باسان جريدتنا ، فهو رجل إذا تكلم أسمع العالم صوته . ومن عرف أنه ليس بغنى كبير ، ولا وزير حكومة ذات سلطان . قال معنا إنه نابغة ككل عظماء الرجال الذين يهبهم التاريخ من حين إلى حين إلى الأمم المضطهدة المظلومة يهدونها طريق السداد » .

ومن بودابست سافر مصطفى إلى فيينا . وعاد إلى باريس فأفضى بحديث إلى جريدة « الإكلير » الباريسية حمل فيه على السياسة الإنجليزية ، وعلق الكاتب الكبير « إدوار فلدنوفل » فى جريدة «الايبية» مؤيداً مصطفى، كما أيدته جريدة « الديبتس كولونيال » .

وفى أول سبتمبر سنة ١٨٩٧ دعا مصطفى كامل المصريين والأتراك المقيمين بباريس إلى الاحتفال بعيد جلوس سلطان تركيا . ولكنه كالعادة أدار الحديث فى خطبته على ذكرى ١٤ سبتمبر ، ذكرى احتلال مصر . وقد قال فى هذا الاحتفال كلمة حدد فيها مسئولية المصريين بإزاء الاحتلال البريطانى فقال : « لا تظنوا أيها الإخوان أنكم تكونون أبرياء من إثم ضياع مصر إذا سكتم عن المطالبة بحقوقها . ولم تعملوا على إخراج الأجنبى من ديارها . قد يظن الكثيرون فى مصر أن الذى لا يخون وطنه ولا يخدمه ولا يدافع عنه برىء من جريمة مصائبه . غير مسئول عن الأخطار التى تتساقط عليه، كلا . إن الذى يرى النار بعينيه . ويقف عند حد المشاهدة ، فلا يعمل على إطفائها . إنما هو شريك لمن أضرمها » .

ذهب بعد ذلك إلى برلين حيث الصحفى المشهور « هنرى

روشنور » ، وكانت قد قدمته إليه مدام جولييت وزكته لديه .

وفى سبتمبر أرسل أحد أعوان الاحتلال البريطانى رسالة إلى العالم الألمانى « شفاينفورت » الذى حضر إلى مصر ١٨٦٣ لإجراء بحوث علمية فيها ، يقول فيه : إن الذين يدافعون عن مصر ، وعلى رأسهم مصطفى كامل ، ليسوا مصريين ولا تجرى فى عروقهم دماء مصرية ، فنشر العالم الألمانى هذه الرسالة فى ٣٠ من سبتمبر فى جريدة « فولكيس تسايتونج » وما إن قرأها مصطفى حتى سارع بالرد عليها ، وكان آنذاك فى مدينة فيينا ، فنشر رده فى الخامس من أكتوبر ، الذى قال إن جميع المصريين القائمين بالحركة الوطنية هم مصريون من سلالة مصرية صميمة ، وأغلبهم أبناء فلاحين ، فليسوا هم من الفئة الغنية الغريبة أصلا عن الفلاحين ، ولسنا كذلك بظالمى الفلاح فى الماضى ، لأنهم إما إخوتنا أو آباؤنا . أما اكتتابنا للجيش العثمانى فهو ثمرة وعى قومى صادق ، لأننا نعلم علم اليقين أن إنجلترا لاترمى بكل دسائسها ضد تركيا إلا لضرر مصر ، وإن فرحنا بالانتصارات التركية هو نفس فرحنا بانهزام السياسة الإنجليزية » .

وعاد مصطفى إلى بلاده فى ١٠ أكتوبر ضعيفاً ، أنهكته الرحلات والزيارات والخطب والمقابلات ، وكل منها يكلف القائم به جهداً لانعدام الأعوان ولكثرة الأعداء ، وامتلاء الطريق بالعقبات . ذهب مصطفى ليستجم ويستشفى فى حلوان .

وأهلّ عام ١٨٩٨ ، الذى يجب أن نسميه بحق « عام فاشودة » ، فقد وقعت فيه حادثة فاشودة التى سنروى وقائعها بعد حين ، وكالعادة لايدع العام الجديد يمرّ دون عمل جديد فى بدايته ، ففى ٨ من يناير سنة ١٨٩٨ أقام طلاب المدارس العليا حفلا بحديقة الأزبكية ، بمناسبة عيد ارتقاء عباس حلمى العرش ، وقد أسمع مصطفى الطلاب فى هذا الاحتفال معنيين من أكبر المعانى التى بقيت مصر تفتقد أثرهما

في حياتها إلى اليوم . أولهما ألا يعد الطلاب أنهم انتهوا من حياة العلم بمجرد حصولهم على الشهادة العليا . فحياة العلم ممتدة إلى آخر العمر . والمعنى الثاني ألا يحملهم حصولهم على شهادة عالية على الضن بعلمهم على من مواطنيهم الذين لم تتح لهم فرصة التعليم . وشعرت دوائر الاحتلال بأن صلة مصطفى بالشباب المصري متمثلا في طلاب المدارس وثيقة . وتزداد توثقاً . وأن ما يلقيه في وعيهم من المعاني يدعوهم إلى اتحاد منتج قوى في الحياة ، ينتهي إن عاجلا وإن آجلا . إلى حركة تطرد بطبيعتها كل أسباب الضعف . وفي مقدمتها الاحتلال البريطاني . فاتهمت هذه الدوائر مصطفى بأنه يدبر مع الطلاب ثورة . واعتبرت هذه الدوائر أن ما تخيلته حقيقة . فخرجت صحفها المأجورة . وفي مقدمتها الوريا التي يصدرها بالفرنسية الصحفي الفرنسي بول مارتس . تقول إن مصطفى يدعو إلى ثورة . واتهمت المصريين بنكران الجميل لأنهم يعادون حماة الاحتلال البريطاني الذي نظم مالية بلادهم . وأعاد السودان لمصر . ونشر التعليم فيها . ورد مصطفى كامل على جريدة لوريا في ٣ من فبراير ، رداً مفحماً قال فيه : « أيعد الدفاع عن الأوطان في نظركم لؤماً ولا تعدون السكوت عنه خيانة وجبناً ؟ وإذا كنتم أنتم الفرنسيين قد ثرتم في وجه حكوماتكم الوطنية مراراً دافعاً للظلم . فكيف تعدون جحوداً بالفضل أن نقوم في وجه المظالم النازلة بأرضنا من سلطة أجنبية » .

وفي ٧ من أبريل تلقى مصطفى رسالة من « هاير رزبر » الصحفي الألماني صديق مصطفى تضمنت أربعة أسئلة عن عدد المدارس التي أنشأها الاحتلال البريطاني . وعن عدد الطلاب الذين توفدهم الحكومة ليطلبوا العلم في أوربا . وعن عدد الموظفين الأجانب قبل الاحتلال وبعده ، وعن ثروة البلاد الفعلية وعن قيمة الديون الأجنبية وحالة الصناعة والتجارة القومية ومدى استعداد مصر للحكم النيابي . وقد كانت هذه

الأسئلة فرصة لمصطفى كامل ، يفضح فيها الاحتلال ، ويبين كذب دعاويه من أنه ينشر العلم فى مصر وهو يطارده ، ويهيئ المصريين ليحكموا أنفسهم وهو يسلط عليهم الأجانب وينحيهم عن الوظائف الأساسية ، ويزعم أنه وازن ماليتهم ، ولو تركت مصر وشأنها لكان دخلها القومى وحده كفيلا لسد الديون الأجنبية .

وفى ٢٣ من أبريل سنة ١٨٩٨ ظهر لمصطفى أول كتاب سياسى بعنوان « كتاب المسألة الشرقية » يتناول بالشرح والتعليق تاريخ العلاقات التركية الأوربية ، منذ وصول تركيا إلى الشاطئ الأوربى وطمع الدول الكبرى فى ممتلكاتها ، ودعاويهم الكاذبة فى مناصرة الحريات وفى حماية الدين المسيحى . وقد بقى هذا الكتاب فريداً فى تاريخ السياسة المصرية حتى اليوم ، إذ لم يكتب سياسى مصرى آخر فى الشئون الدولية كتاباً قائماً بذاته ، بل لم يكتب سياسى مصرى واحد مقالا شاملا للسياسة الدولية فى أية مرحلة من مراحل القضية الوطنية . وقد انقضى على صدور كتاب المسألة الشرقية ثمانون عاما ، كانت كفيلة بأن يزداد خلالها السياسيون الذين يقرأون ويكتبون ويحدثون مواطنيهم فى شئونهم العامة ، ويؤلفون لهم الكتب فيها .

وفى يوم ٢٤ من يونية سافر مصطفى كامل إلى باريس ، وما إن وطئت أقدامه أرضها حتى قرأ خطبة ألقاها اللورد سالسبرى رئيس وزارة بريطانيا ، وردت فيها عبارة قال فيها : « إن إنجلترا لم تعمل السيف فى الصين ، كما أعملته فى الهند ومصر» ، فهاج هائج مصطفى لهذه العبارة ، فانبرى للرد على السياسى المحنك العجوز برد نشرته جريدة « الإنترانسيجان » فى ٤ من يولية سنة ١٨٩٨ ، أصابه فيه فى مقتل ، فإن دعوى بريطانيا تقوم على أنها لم تأت إلى مصر فاتحة ولا غازية وأنه لا مطمع لها فيها ، وإنما جاءت بدعوة من حاكم البلد الشرعى وأميرها ، تثبيتاً لعرشه ، وتأييداً لسلطانه ، فى وجه ثوار تمردوا عليه بغير

حق ، وقد حوكموا على هذا التمرد وأقروا به ، وحكم عليهم بسبب هذا الإقرار . وقد ذكره مصطفى بقوله فى سنة ١٨٨٦ : « لنحترم وعودنا المقدسة ولنجلُ عن مصر » ، وبقوله فى السنة نفسها مخاطباً « واد بختون » وزير خارجية فرنسا : « إن بنى قومكم فى ضلال مبين إذا اعتقدوا أننا نريد أن نمكث فى مصر إلى ما شاء الله » . واستمر يذكره بتصريحاته المناقضة لهذه العبارة الصغيرة .

وكالعادة لم يمر يوم ١١ يولية سنة ١٨٨٢ الذى ضربت فيه الأساطيل البريطانية ميناء الإسكندرية والمدينة دون مقال من مصطفى كامل إبقاء على هذه الذكريات حية فى وجدان الشعب المصرى بعامة ، والجيل الجديد منه بخاصة . ثم وقعت حادثة فاشودة . وهى حادثة صغيرة ، إذ لم ينجم عنها تصادم عسكرى ، والقوتان اللتان التقتا فيها على موقع على أعلى النيل ، كانتا قوتين صغيرتين . والموقع نفسه لم يكن أحد يعرفه ، ولعل خرائط تلك الأيام لم تكن تذكره ، ولكن الأحداث التاريخية لاتقاس بضخامة المواقع وشهرتها .

كان السودان المصرى فى عهد الخديو إسماعيل يشمل جميع السودان حتى جنوب خط الاستواء ، كما يمتد إلى سواحل البحر الأحمر . وخليج عدن ، كما وصلت حدوده الشرقية إلى المحيط الهندى وحدوده الغربية إلى ما بعد دارفور غرباً . فلما قهرت بريطانيا حكومة مصر على تنفيذ قرار إخلاء السودان تقاسمت الدول الاستعمارية السودان فيما بينها ، فأخذت بريطانيا كالعادة نصيب الأسد ، فاحتلت أوغندة ومنطقة البحيرات الاستوائية والجزء الجنوبى من مديرية خط الاستواء ، ومحافظتى زيلع وهرر ، وأخذت إيطاليا مصوع وأريتريا وورأس جوردفون (حور دفوى) ، وفرنسا تاجورة وجيبوتى وبلاد هرروبنى شنقول . وعندما توجد فريسة يقوم التنافس بين الوحوش ، ولذلك اشتد التنافس بين الدول الاستعمارية ، وعلى وجه الخصوص بين بريطانيا وفرنسا . وكانت فرنسا

تشعر بالخسران منذ احتلت بريطانيا مصر . ولذلك كانت تتحفز دائماً لإنفاذ حملة إلى جنوب السودان لتضع يدها على جانب منه . وتضع حداً لزحف بريطانيا المستمر فى هذا الاتجاه . وقد بدأت تدير هذه الفكرة فى رأسها من سنة ١٨٩٣ ، ولكن السياسة الفرنسية فى تلك السنين بخاصة ، وأمام بريطانيا بعامة . تتسم بالتردد . فأجلت تنفيذها إلى سنة ١٨٩٥ . وأخيراً عهدت إلى الكولونيل « مرشا » بالزحف على « كودوك » (فاشودة) الواقعة على النيل ؛ وقد اختارت هذا الموقع لأنها مفتاح النيل الأعلى . ووصل الكولونيل « مرشا » إليها فى ١٠ من يولية سنة ١٨٩٨ ، واحتلها ، فكان من المتوقع أن يؤدى هذا الاحتلال إلى احتكاك بين القوتين الاستعماريتين ، وأن يؤدى احتكاكهما إلى فتح موضوع احتلال مصر وقضية وادى النيل . ولكن بريطانيا لم تمهل الحملة الفرنسية الصغيرة التى كانت تتكون من مائة وعشرين جندياً من السنغال وتسعة ضباط فرنسيين ، وأرسلت حملة قوية مؤلفة من ١٨٠٠ جندى مصرى ومائة جندى بريطانى ، بقيادة اللورد كتشنر قائد الجيش المصرى (سردار الجيش) وتلاقت القوتان ، وبدا أن كفة الإنجليز راجحة ، واشتدت الأزمة بين فرنسا وبريطانيا ، وتوقع الناس أن فرنسا لن تدع هذه المناسبة حتى تحقق كسباً سياسياً ، إلى جانب الكسب الاستعمارى ، وخاف بعض الناس من اندلاع الحرب بين الدولتين التى ستؤدى حتماً إلى حرب عالمية ، ولكن فرنسا تخاذلت وسحبت قوتها ، فكان هذا إعلاناً لجميع الأطراف فى مصر : وطنيين واحتلاليين ، أن تعليق الأمل على فرنسا هو سعى خاسر . ورجاء خائب .

حزن الوطنيون لهذه النتيجة ، وفرح الاحتلاليون بها ، وتوقع خصوم مصطفى أن هذه الضربة ستميته . ولكنه استمد من الألم قوة ، فقد زادته الصدمة اعتماداً على نفسه ، وهو لم يقل هذا علناً فقط ، ولو فعل

لقيل إنه يغطى هزيمته ، ولكنه كتب لأخيه رسالة خاصة قال له فيها : إنى ثابت على خطتى حتى الممات ، لأن اعتقادى أن ثمر الدفاع وإن لم يجنه المدافع الأول أو الثانى فلسوف يجنيه مصرى على مدى الأيام ، وأننا إذا لم نقتطف ثمر عملنا وجهادنا فى حياتنا ، فإننا على الأقل نضع الحجر الأول لمن يبنى بعدنا » .

وقد كان لهذه الصدمة أثرها المباشر ، فقد سافر الخديو عباس الأول مرة إلى لندن فى ٢ من يونية سنة ١٩٠٠ لفرط يأسه من زوال الاحتلال.

وكتب مصطفى لأخيه الروحى فريد فى ١٩ من أغسطس : «سأعمل كل مافى جهدى لخدمة البلاد ، وما على إلا الامتثال لإرادة الخالق جل شأنه الذى كأنه أراد أن أكون الوحيد فى خطتى الفرد المطالب بالاستقلال» .

وكتب إليه فى ٤ من سبتمبر سنة ١٨٩٨ : « ما علينا إلا العمل والمثابرة على المطالبة بحقوق بلادنا ، فما ضاع حق لمطالب ، وإنى كلما زرت عواصم أوربا ازددت اعتقاداً بأن الأمر بيدنا ، وأنه لو اتحد مائة منا لا هتزت الأرض قاطبة لصوتهم ، فما بالك لو اتحدت كلمة الأمة المصرية كلها . وقبل أن يسدل الزمان ستاره على آخر سنة ١٨٩٨ ، ألقى مصطفى كامل خطاباً فى ٢٣ من ديسمبر بالمسرح الإيطالى ، قال فيه كلمته المأثورة « لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة » .

فلما كانت بداية عام ١٨٩٩ أعلن الناس فى ١٩ من يناير أن اتفاقية أبرمت بين الحكومة البريطانية والحكومة المصرية ، عن اقتسام السودان بين الحكومتين ، وقد مثل بريطانيا فى هذه الاتفاقية اللورد كرومر ومثل مصر بطرس غالى باشا ، وهذه الاتفاقية المكونة من اثنتى عشرة مادة يمكن تلخيصها فى كلمتين . يحكم السودان حاكم عام بريطانى ، تفرضه بريطانيا على الحكومة المصرية ، فتصدر هذه الأخيرة مرسوماً خديوياً بتعيينه بلامعارضة ولاسؤال ، ويكون هذا الحاكم مطلق السلطة فى السودان ،

فقراراته هي التشريع فى السودان ، ولا يكون لمصر سوى مظهر واحد فى المشاركة فى الحكم ، هو قطعة من القماش تسمى العلم . ولم يكد مصطفى كامل يطلع على هذه الاتفاقية حتى أحس أن بلاده يحتلها العدو الغاصب مرة أخرى ، فأرسل مقالا إلى جريدة « الجولوا » الفرنسية احتجاجاً على كل ما حدث قبل إبرام هذه الاتفاقية من إخلاء السودان وإعادة فتحه بجنود مصرية وبقيادة بريطانية يساعدها ضباط مصريون يعرفون السودان جيداً ، فكانوا يحكمونه بالكفاية والاستقامة والعدل .

ولما كان مصطفى دائم الدعوة إلى نشر التعليم فقد ذهب ليفتتح مدرسة أهلية أقامها « حسين بك قورشيللى » من ماله الخاص ، وخطب مصطفى فى الحاضرين حول ضرورة نشر التعليم فى البلاد .

وبعد قليل أنشأ اثنان من شبان مصر الوطنيين هما أحمد صادق ومحمد سعيد التومى مدرسة فى ناحية باب الشعرية وأطلقا عليها اسم مصطفى ، ثم لما أرادا بعد بضعة أشهر أن ينزلا عن إدارتها له نفسه قبل هذا النزول ، وأسند تلك الإدارة لأخيه على فهمى كامل ، وأرسل فى ٢٨ من مارس سنة ١٨٩٩ إلى مدير جريدة المؤيد رسالة يعلن فيها ذلك ، ويقول إنه قبل ذلك العبء الجديد مع علمه بأنه حمل ثقيل ، لأن أعباء المدرسة كثيرة ونفقاتها طائلة ، « ولكنى قبلتها بكل ارتياح أملا منى فى خدمة أبناء الوطن العزيز ، وإنى أتشرف اليوم بإعلان الجمهور أن التعليم فى هذه المدرسة مقرون بالتربية ، لأنى أعتقد أن التعليم بلا تربية عديم الفائدة » .

وكان من تقاليد هذه المدرسة إقامة احتفال فى نهاية كل سنة لتوزيع شهادات النجاح على الطلبه المنقولين والجوائز على المتفوقين ، وكان يدعى إلى هذا الاحتفال علية القوم ، وسافر مصطفى إلى أوربا كعادته ، فزار فيينا وباريس فبرلين فبودابست ، ثم ختم رحلته بزيارة استانبول عاصمة تركيا ، وفى برلين قابل سفير تركيا فى ألمانيا ، فأخبره بأن السلطان

يتابع أعماله بسرور ، وأنه يود أن يراه فسافر إليها بعد أن كان قد أجاب عن سؤالين وجهتهما إليه جريدة « ايكودوران » التى تصدر فى الجزائر باللغة الفرنسية موضوعها حركة النهضة الإسلامية ، وهل هى موجودة فعلا ؟ ونشر الرد فى ٢ من مايو سنة ١٨٩٩ ، وفى ١٠ من مايو نشر مقالا فى جريدة « البرلينر تاجبلاط » عن علاقة ألمانيا بتركيا ، وعلم أن قيصر ألمانيا قرأ المقال وسرّ به ، ثم قصد بودابست حيث قابل صديقه « هانزريزنر » ، فلما كان العشرون من مايو قابل رئيس وزراء تركيا (الصدر الأعظم) ، وسلمه تقريراً عن علاقة تركيا — بأوربا ، كانت استانبول غاصة بجواسيس كل الدول التى كانت تترصد خطى السلطان ووزرائه ، باعتبار أن تركيا أصبحت الفريسة التى ستسقط قريباً ، والتى سيتقاسم وحوش الغابة لحمها وعظمها . .

وفى ٣٠ من مايو قابله السلطان فى قصر « يلدز » ، وأفضى مصطفى كامل إلى السلطان بأنه علم بأن بعض الوشاة سعوا بينه وبين جلالته ، ولذلك هو يود أن يترك استانبول ، فهدأ السلطان من قلقه ، وطلب إليه أن يبقى بضعة أيام فى الآستانة ، وفى ٦ من يونيه أنعم عليه السلطان برتبة المتمايز فأصبح يلقب بـ « مصطفى كامل بك » . وعاد مصطفى إلى باريس فألقى فى ١٨ من يونية سنة ١٨٩٩ محاضرة عن مصر ومطالبها ، فى صالون مدام جولييت آدم ، وتكلم فى هذه المحاضرة عن الأثر الذى تركه العلماء الفرنسيون أثناء حملة بونابرت . وتحدث عن المرأة المصرية ، ونفى أنها تعيسة وبائسة ، وذكر الحاضرين بحديث النبى عليه الصلاة والسلام القائل بأن « الجنة تحت أقدام الأمهات » وبنص القرآن الذى ينهى عن الزواج بأكثر من واحدة عند العجز عن العدل ، وبمجرد عودته إلى القاهرة أخذ بأسباب إعداد جريدة اللواء التى كان قد عقد العزم على إصدارها مع بداية العام الجديد ، وفى ١٨ من ديسمبر سنة ١٨٩٩ ألقى مصطفى خطاباً فى تياترو الأزبكية .

وفى ٢٤ من ديسمبر أرسل إلى مدام جولييت رسالة يقول لها فيها فى فرح إن مدرسته أصبحت تضم ٣٦٥ طالبا .

ولما طلع عام ١٩٠٠ كان أول أعمال مصطفى الجديدة فى الأسبوع الأول من الشهر الأول صدور جريدته اليومية « اللواء » وقد تخاطفها الناس فى ٣ من يناير ، وأصبح قراؤه ينتظرون كل يوم مقاله الافتتاحى يقوى عزمهم ويثبت أملهم ، ويحدثهم فى شئون مصر وشئون العالم. وأحبها المصريون ، وأطلقوا اسمها على بيوت التجارة والمحال العامة. ولاتزال بعض هذه المحال تحمل هذا الاسم ، وقد زود مصطفى جريدته بالمحررين المصريين والمراسلين الأجانب ، واعتنى بتحريرها وإدارتها ، وبمطابعها ، حتى ذهبت دليلا على كفايته كمدير لصحيفة وكرئيس لتحرير جريدة يومية . ولما قالت جريدة مورننج بوست الإنجليزية إن الحركة الوطنية المصرية بعد تخلى فرنسا عنها ، وهزيمة تركيا فى حرب اليونان قد صارت بلاسند، رد عليها مصطفى فى جريدة اللواء وفى الإكلير الفرنسية بمقال عنوانه «مصر مقبرة الأمم الظالمة»،ولم يقنع مصطفى بالجريدة اليومية الذائعة ، بل عاد يلقى خطبه،فألقى فى مسرح زيزنيا فى ٢ من يونية خطبة احتشد الألوف لسماعها كالعادة ؛ وفى ١٦من يونية سافر مصطفى إلى تريستا ، ومنها إلى باقى مدن أوربا ، وسلم الجريدة لأخيه .

ولما وصل إلى تريستا فى ٢١ من يونية أرسل إلى مدام جولييت رسالة يقول لها فيها : لقد حظيت بمطالعة كتابك النفيس « الوطن المجرى » على ظهر الباخرة ، واشد ما حرك أشجانى ، فإننى أثنى عليك ألف مرة جزاء اللحظات السعيدة التى قضيتها فى قراءة كتابك ماحبب بلاد المجر إلى نفسى ، وهل يسمح لى الزمان بأن أطالع يوماً كتاباً بقلمك عن « الوطن المصرى ؟ » . ومن تريستا ذهب إلى بودابست البلدة التى يعشقها ، ومن بودابست ذهب إلى تركيا فأقام فيها أسبوعين ، ثم زار فينيا ، وفى كل مرة يلقى الصحفيين والسياسيين ، ويعقد الندوات ،

ثم عاد إلى مصر دون أن يذهب إلى باريس لأمور تتعلق بصحيفته ومدرسته ، وفى أول أكتوبر سنة ١٩٠٠ دعى لاحتفال آخر السنة فى مدرسة مصطفى كامل ، فألقى على فهمى تقريراً عن أعمال المدرسة ، ثم وقف مصطفى فخطب خطبة قال فيها ، « إن كل فرد مهما كان صغيراً مطالب بواجب يؤديه لبلاده ووطنه وأمته ، ولو ترك كل مصرى لأبنائه من بعده حب العمل وعدم الاعتماد على الغير إرثاً لأصبحنا وفينا حياة طيبة تحيي الآمال » .

وفى ١٠ من مارس سنة ١٩٠١ دعا فى اللواء إلى الاحتفال بذكرى على مبارك ، وقال : « لاشئ يرفع الوطنية فى البلاد مثل ذكرى الرجال الذين أخلصوا فى خدمتها ، وقضوا الأعمار فى العمل لإعلاء شأنها » .

ولما أسس مصطفى بك الشوربجى ، أحد أعيان مديرية البحيرة ، مدرسة فى قريته بريم ، وإلى جانبها مستشفى ، ودعى مصطفى كامل ليحضر الاحتفال بافتتاحهما ، لبى مصطفى الدعوة ، وذهب ليشهد الاحتفال سعيداً مبتهجاً ، وقال فى خطبته : « قال القائلون وردد المرددون إن المصريين اتفقوا على الا يتفقوا ، وسرت هذه الكلمة فى الأمة وتناقلها الصغير عن الكبير ، وشرحها فلاسفة السوء ، فأجبهم يا من رفعت للعلم والوطن مناراً عالياً ، بأن المصريين اتفقوا على أن يتفقوا ، وأن جمعية العروة الوثقى فى الإسكندرية ، وجمعية المساعى المشكورة فى المنوفية ، والجمعية الخيرية الإسلامية فى أنحاء القطر ، تنادى بأن فى الأمة رجالا أحياء ذوى همم عالية وعزائم صادقة » .

وسافر بعد ذلك إلى فرنسا ، وكانت علاقة مصطفى بدوائرها يشوبها الفتور بعد حادثة فاشودة التي خيبت الآمال فى فرنسا ، ولكن صلته بجريدة « لوكلير » كانت وثيقة ، فلم تتأثر بالصفة العامة لعلاقته بدوائر فرنسا الأخرى ، فلما طلبت أن تتحدث إليه لتنقل آراءه إلى قرائها قال بصراحته المعهودة : كان لحادثة فاشودة أسوأ الوقع على نفوس المصريين ، كنا ننتظر منذ

سنين تدخلا فعلياً من جانب فرنسا فى المسألة المصرية . إن حادثة فاشودة تعتبر قاضية على النفوذ الفرنسي » ، وقال « إن اليأس لم ولن يدخل نفوسنا إطلاقا فى كفاحنا من أجل الوطن ، وإنما قد يئسنا من كل عون يأتينا من أوربا » .

وفى ٢٧ من فبراير سنة ١٩٠٢ جاء موعد توزيع الجوائز على المتفوقين من تلاميذ مدرسة مصطفى كامل ، وقد رأس الاحتفال هذه المرة الأمير محمد إبراهيم ، كما حضره عدد من الشخصيات الكبيرة مثل شيخ الجامع الأزهر سليم البشرى ، ومفتى الديار المصرية محمد عبده ، وإسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين وإسماعيل صبرى باشا وكيل وزارة العدل والشاعر الرقيق . وفى ٢١ من مايو سنة ١٩٠٢ ألقى مصطفى كامل خطاباً فى مسرح زيزينا بالإسكندرية .

وكما دعا إلى الاحتفال بذكرى على مبارك ، دعا فى ٣ من فبراير سنة ١٩٠٢ إلى الاحتفال بالعيد المئوى لذكرى محمد على ، وفى يوم ٢١ من مايو سنة ١٩٠٢ ، وهو يوم تولى محمد على الأريكة المصرية ، ألقى مصطفى كامل فى مسرح زيزنيا بالإسكندرية خطبة عظيمة ، كان من أهم فقراتها الدعوة إلى إقامة الحكم النيابى .

وفى ١٣ من سبتمبر سافر مصطفى إلى فيينا ، ومنها أرسل رسالة إلى مدام جولييت آدم قال لها فيها : « اليوم هو ذكرى مرور عشرين عاماً على هزيمة المصريين فى التل الكبير ، إنى أرى هذا اليوم يمر علىّ وأنا فى شدة الغم والحزن ، لأنه يذكرنى بمرور عشرين عامًا على تسليم مصر ، وطنى العزيز ، إلى إنجلترا خصمها اللدود » .

وفى ٥ من أكتوبر سنة ١٩٠٢ جدد مصطفى الدعوة إلى الدستور ، وكان قد بدأها منذ سنة ١٨٩٧ ، ثم أعاد القول فى المعنى نفسه فى مقال ثان باللواء فى ١٦ من نوفمبر .

وفى يوليو سنة ١٩٠٣ كان مصطفى فى أشد الحاجة إلى الاستجمام

والراحة والعلاج بعد هذا المجهود المتصل ، فذهب مع صديقه محمد فريد إلى سويسرا يقضى فيها شهر أغسطس ، ثم عاد إلى مصر ، ماراً بالاستانة فقابل فيها الخديو عباساً والشاعر الفرنسى « بييرلوتى » صديق مدام جولييت ، وصديق تركيا .

وفى سنة ١٩٠٤ وقع حادثان متعارضان ، أولهما وأسبقهما زيارة مدام جولييت آدم لمصر فى ١٩ يناير سنة ١٩٠٤ وحفاوة مصطفى كامل والمصريين والخديو والوطنيين بها ، وهى كما نعرف كاتبة فرنسية ، وثانيهما اتفاق فرنسا وإنجلترا المشهور « بالودّى » فى ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ ، على أن يقتسما الشمال الأفريقى بينهما ، فتطلق فرنسا يد بريطانيا فى وادى النيل ، وتطلق بريطانيا يد فرنسا فى المغرب .

وصلت مدام جولييت آدم إلى الإسكندرية ، فنزلت ضيفة على الخديو ، ثم استضافها عمر بك سلطان فى المنيا ، وكان فيما بعد أمين صندوق الحزب الوطنى ، وسافرت إلى آثار تل العمارنة يصحبها عمر سلطان والأمير حسين فاضل ، ودعاها أعضاء الحزب الوطنى فى أسيوط والبلينا والأقصر ، فشاهدت الآثار المصرية هناك ، ثم ذهبت إلى إسنا وانتهت رحلتها فى أسوان ، ثم حضرت احتفال توزيع الجوائز فى مدرسة مصطفى كامل فى ١٩ فبراير سنة ١٩٠٤ ، ثم سافرت إلى الفيوم ، حيث نزلت ضيفة على خالد باشا لطفى ، ووصلت هذه الزيارة إلى قمتها السياسية حينما دعاها الخديو عباس إلى مأدبة فى ٢٤ من فبراير سنة ١٩٠٤ فى قصر القبة ، وفى اليوم نفسه نشر مصطفى نبذة فى اللواء عن حياتها وآثارها القلمية ، ثم قصدت بور سعيد .

وفى ٤ من مارس سنة ١٩٠٤ عادت إلى وطنها ، وماكادت تصل إليه حتى نشرت مقالين عن رحلتها : الأول بعنوان « مصر الفتاة » والثانى بعنوان « فرنسا ومصر » فترجمهما مصطفى ونشرهما فى اللواء . وقد أغاظت الزيارة والمقالتان ، ومأدبة الخديو ، اللورد كرومر ، مندوب

الاحتلال ، فذهب يحتج لدى الخديو مباشرة لاستقباله عدوة صريحة لإنجلترا ، فرد عليه الخديو رداً كيساً ، إذ قال إن الدعوة كانت شخصية بحتة لأنه يعرف مدام جولييت منذ ثمانى سنوات ، وقد دعته إلى قصرها فى باريس حينما كان يزور العاصمة الفرنسية فهو يرد مجاملتها بمثلها . فأفحم كرومر وسكت . وفى مارس أيضا منح السلطان مصطفى كامل ، رتبة الميرميران ، فأصبح بفضلها باشا ، وازداد احترام خصومه له ، فالباشوية ، فى تلك الأيام لم تكن لقباً فحسب ، وإنما كانت فوق ذلك مكانة وهيبة .

ولكن عكر صفو هذه الانتصارات الأدبية للفكرة الوطنية — الاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا الذى أشرنا إليه ، وتقاسم المتنافسان بمقتضاه شمالى إفريقيا ، وأمسكت فرنسا عن معاكسة الاحتلال البريطانى فى وادى النيل فى مقابل أن تسكت بريطانيا عن معاكسة الاحتلال الفرنسى لمراكش (والمغرب) ، وخيبت بطبيعة الحال هذه الاتفاقية آمال المصريين ، وأحس الخديو بقبضة الإنجليز تشتد حول عنقه ، ولكن مصطفى كامل لم ييئس ، ولم يشعر بخور فى عزيمته ، ولا مال من الجهاد ، وكتب إلى مدام جولييت يهاجم سياسة « ديلكاسييه » وزير خارجية بلادها . والتفت إلى شعبه وقال : « إنه يجب عليه أن يتخذ مثلا من الإيرلنديين والبولنديين والفنلنديين ، وهم جميعاً دول صغيرة ، تجتمع عليها دول كبيرة . ولكنها لا تستسلم ولا يفتر عزمها بل تواصل جهادها » .

وفى ٢٣ من مايو سنة ١٩٠٤ أقامت جمعية العروة الوثقى الخيرية حفلا بمناسبة وضع الحجر الأساسى لمدرسة محمد على الصناعية ، فوقف رياض باشا رئيس مجلس الوزراء يخطب بين يدى الخديو ، ويثنى ثناء جماً على اللورد كرومر كأنه سيد البلاد ، فحمل عليه مصطفى حملة شعواء ، وفى ٧ من يونيه سنة ١٩٠٤ ألقى مصطفى خطبة فى مسرح زيزنيا بالإسكندرية ، فبدا فياضاً بالحيوية كالعهد به ، فأدرك أعداؤه أن

الوفاق الودى لم يؤثر فيه ، ولم يضعف من معنويته ، بل إنه آعلن ذلك فى خطابه صراحة . وكتب مصطفى لمدام جولييت يصف هذا الاحتفال . فقال لها إنه كان يتمنى أن تكون حاضرة هذا الاجتماع حتى يزداد حبها لابنها ، إذ شهده أربعة آلاف : وقد كان يحس بارتياح هؤلاء جميعاً ، وتأييدهم لكلامه . وفى هذه السنة أصدر مصطفى كتابه الثانى . بعد كتاب « المسألة الشرقية » ، وكان موضوعه نهضة اليابان . وقد عنونه « الشمس المشرقة » . وكان مصطفى شديد الإعجاب بنهضة اليابان السريعة ، كما كان يتمنى أن تحذو بلاده حذوها . لأن مصر سبقت اليابان إلى الحضارة الحديثة وإلى إقامة دولة قوية فى عهد محمد على . فى وقت كانت فيه اليابان فى ظلمات البداوة .

وفى أوائل يولية غادر مصطفى مصر إلى نابولى ، ومنها إلى سويسرا ففرنسا ، وفى سبتمبر سافر إلى بريطانيا مؤملا أن يتصل بالمستر « ستيد » الذى تطوع بأن يقوم بتنوير الرأى العام البريطانى ، وسلمه مقالا لمجلته « مجلة المجلات » أوضح فيه مطالب مصر ، ثم ذهب إلى برلين ، حيث أفضى بحديث إلى جريدة « البوليتيز ناجيلاط » اقتطف منه المراسلون الأجانب فقرات طويلة وأرسلوها إلى صحفهم ، وبعد إقامة قصيرة فى بودابست عاد إلى مصر .

وعاد أيضاً فى هذه الأثناء الخديو من أوربا ، فأفضى إلى رئيس الوزراء مصطفى فهمى بأنه لم يعد راضياً عن نشاط مصطفى المعادى لبريطانيا ، وكان سر هذا الانقلاب حسن الاستقبال الذى لقيه الخديو عندما ما زار لندن فى العام الماضى ، وقد كان غاية الإنجليز من إكرام وفادة الخديو أن يستميلوه إليهم ، ويفصلوا بينه وبين مصطفى . فلما علم بذلك مصطفى أرسل رسالة إلى الخديو فى ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٠٤ ، يعلن فيها قطع صلته به ، وجاء فى رسالته فقرة خطيرة . إذ قال مصطفى للخديو : « إنى أرجو أن يعتقد مولاى حفظه الله أنى لم أقصد

إلا محض خدمته بما قلته لسموه بشأن أولئك المفسدين الذين يلتصقون بالمعية ، ويضرون بها أكثر من أعدائها الظاهرين ، ويدخلون اسمكم الكريم فى كل حادث ، غير حاسبين للرأى العام حساباً » .

وهى رسالة تفيض شجاعة ، وتدل على أن مصطفى لم يكن يعمل إلا لحساب عقيدته ، وأنه لم يكن أسير إحسان أحد ، وقد كان لهذه الرسالة دوىّ ، فقد نشرت الجرائد الإنجليزية نبأ هذه المقاطعة وقد حدث بعدها أن ذهب الخديو فى تنكره لمبادئه إلى حد أنه وقف تحت العلم البريطانى فى ميدان عابدين يستعرض الجيوش البريطانية فى مصر بمناسبة عيد ميلاد ملك بريطانيا ، وغضب الشعب كثيراً من هذا المسلك ، وعبر مصطفى عن هذا الغضب تعبيراً صريحاً . وفى هذه الفترة كان مصطفى يحس بتجمع الأعداء كلهم عليه ، فأرسل إلى مدام جولييت يقول لها : إنى أرى مشهداً من أفظع المشاهد ، ذلك هو سقوط وطنى . إنه من أشق الأعمال على الإنسان أن يجاهد ضد الزمن والحوادث والناس » .

وفى ٣ ديسمبر أرسل إلى أمه الروحية يقول لها : « إن أعمالى تسير سيراً حسناً ، ولو أن صحتى متعبة » .

وفى سنة ١٩٠٥ دعا مصطفى كامل إلى فكرة من أعظم أفكاره ، تلك هى فكرة إنشاء الجامعة ، وقد كانت هذه الفكرة إحدى الفكَر التى استولت على لبه منذ البداية ، فقد كان يشكو مرّ الشكوى من أن أسلوب التعليم لدينا لا يدعو إلى توسيع آفاق الفكر ، وإنما يقوم على حشو العقول بالمعلومات ، وفى ٩ يونية سنة ١٩٠٥ تحدث مصطفى إلى مدام جولييت فى رسالة لها عن سروره بأن مشروع الجامعة يسير فى طريق النجاح ، إذ تم الاتفاق على إرسال بعثة إلى أوربا لتكون نواة للتدريس فيها.

وبدأ المرض يهاجم مصطفى بعد سنين طويلة من الإجهاد والسفر

المستمر والتفكير المتصل ومعاناة الأزمات والشدائد؛ وتحمل مكايد الخصوم.
وقد أرسل إلى مدام جولييت فى ١١ من أغسطس سنة ١٩٠٥ يقول :
أمضيت ليلة مفزعة بسبب ما انتابنى من المرض الذى لم أره فى حياتى .
وقد تركنى فى هذه اللحظة فتناولت القلم لأكتب لك أن الطبيب أوصانى
بملازمة غرفتى يومين بلا عمل » .

وككل النفوس الصافية كان يستشف مستقبله من وراء الحجب ؛
فقال : ليس أمامى إلا خمس أوست سنوات أكافح فيها أشد الكفاح ،
وبعدئذ أستطيع أن أعيش سعيد البال . واستمرّ مصطفى ملازماً مدن
الحمامات والمصحات: سان مورتيز ، وبلومبير . وكان فى أثناء هذه
الفترة يترجم خطبه إلى الفرنسية ويرسلها الواحدة إثر الثانية إلى
مدام جولييت لتتولى تصحيحها ومراجعتها توطئة لجمعها فى كتاب
بعنوان « مصريون وإنجلترا » Egyptien et Englais وقد ملأت
هذه المجموعة ثلثمائة وعشرين صفحة . ثم سافر إلى باريس ومنها إلى
برلين ، فحملت عليه الصحف البريطانية لهذه الزيارة ،فكال لها
الصاع صاعين .

لم يبق من حياة مصطفى إلا عامان . .

وكان له فى كل عام من العامين عمل ضخم .

كان عام ١٩٠٦ عام حادثة دنشواى وكان عام سنة ١٩٠٧ عام
إنشاء الحزب الوطنى واجتماع جمعيته العمومية . .

وقصة حادثة دنشواى رويت مراراً ، وأصبح أكثر الناس يعرفونها .
وهى قصة بسيطة وإن كانت مؤلمة إلى أقصى حد . وقد لعبت دوراً
هاماً فى تاريخ الحركة الوطنية .

وجملة هذه الحادثة أن خمسة من الضباط الإنجليز رغبوا فى أن

يصطادوا الحمام فى الحقول ، وكانت فرقتهم عائدة من الإسكندرية إلى القاهرة ، فاصطحب الضباط الخمسة جنديًّا مصريًّا من جنود الشرطة كمترجم لهم ، فاقترح الجندى أن يذهب إلى دار العمدة بقرية دنشواى التى وقع عليها الاختيار لممارسة رياضتهم ، ولكن الضباط نفد صبرهم ، فبدأوا يطلقون بنادقهم قبل أن يعود الشرطى . وحدث أن انحرفت رصاصة الضابط فأصابت امرأة كانت تجلس على نورج فى جرن زوجها مؤذن القرية ، ثم علقت نار القذيفة بالتبن الناتج من عملية الدراس ، فهجم شقيق زوج المرأة على الضابط لينتزع منه البندقية حتى لا يكرر عدوانه ، وتجمهر الفلاحون وهم يصرخون : الخواجه قتل المرأة والنار حرقت الجرن » أحس الضابط « بول » وزميله « بوستوك » حينما حاول الفلاحون أن يجردوهما من بنادقهما أن تجريدهما من البنادق يتبعه القضاء عليهما ففروا فى اتجاه معسكرهما الذى كان يقع على بعد خمسة أو ستة كيلومترات من مكان الحادث ، وكان الحر شديداً ، وكان النقيب « بول » قد أصيب بجرح صغير فى رأسه من أثر التماسك ، ولكن عدْوه فى الحر الشديد ، والمصحوب بالخوف ، مع تلك الإصابة الصغيرة ، أدت كلها إلى سقوطه مغشيًّا عليه فى ساحة سوق قرية سرسنا القريبة من المعسكر ، ووصل « بوستوك » إلى المعسكر ، فهرعت نجدة من الجنود مكونة من عشرة أفراد ، ولما وصلت إلى حيث وقع الضابط « بول » رأت إلى جواره صبيا صغيراً اسمه (محمد سيد أحمد) وهو يحاول أن يسقيه ماء ، فظن الجنود أن هذا الطفل اشترك فى ضرب الضابط المغمى عليه ، فانهالوا عليه ضربًا ، فأسرع إلى الاحتماء بطاحونة قمح ، فتبعوه إلى هناك ، وما زالوا به يضربونه بكعوب البنادق حتى مزقوا جثته مزقًا صغيرة ، وذهب الصبى ضحية إنسانيته ، وعرف فى تاريخ هذه الحادثة بشهيد سرسنا .

ولما وصلت هذه النجدة إلى القرية أطلقت سراح الضباط الثلاثة

الباقين : « كوفين » وكان برتبة النقيب ، « وسميث ويك » و« بورتز » وكانا برتبة الملازم .

وبلغت أنباء الحادث مستشار وزارة الداخلية الإنجليزى « مسترمتشل» فأسرع بالذهاب إلى دنشواى ، وأجرى تحقيقاً مبدئياً ، ثم أمر بتنفيذ قانون المحكمة المخصوصة الصادر بطريقة تشكيلها فى ٢٠ من فبراير سنة ١٨٩٥ ، وشكلت المحكمة برياسة بطرس غالى باشا رئيس الوزراء ووزير العدل بالنيابة ، وأحمد فتحى زغلول رئيس محكمة القاهرة ، وثلاثة من الإنجليز ، أحدهم مستشار بمحكمة الاستئناف المصرية ، والثانى المستشار القانونى لقوات الاحتلال ، والثالث مستشار قضائى مساعد فى الحكومة المصرية . وانعقدت المحكمة فى سراى محافظة المنوفية التى تتبعها قرية دنشواى وقبل أن تصدر المحكمة حكمها نشرت جريدة المقطم— جريدة الاحتلال — أن المشانق أرسلت إلى دنشواى ، فعرف أن بريطانيا العظمى قررت أن تنتقم من الفلاحين المصريين انتقاماً مروعاً .

وعلى الرغم من أن الحادثة من أولها إلى آخرها كانت عدوانا على الفلاحين وسوء تقدير لا يجد له تفسيراً ، وجبناً مزرياً لا يليق بضباط فى جيش أمة مشهورة ببرود الطبع وضبط النفس ، فإن هذه المحكمة الآثمة وجدت لديها القدرة على أن تحكم بشنق أربعة من الفلاحين بعد دفاع نصف ساعة فقط عن خمسين متهماً ، وأن تحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة على واحد منهم ، وبالأشغال الشاقة المؤقتة على سبعة ، وبالسجن والجلد خمسين جلدة على ثلاثة ، وبالجلد خمسين جلدة على خمسة . وفى يوم ٢٨ من يونية سنة ١٩٠٦ ، وفى الموقع الذى حدثت فيه الحادثة ، نصبت المشانق على حقل كان قد حصدت منه المزروعات ، وقد طوق مكان التنفيذ عدد من فرسان فرقة « الدراجون » البريطانية وهم على صهوات جيادهم ، ومن بعدهم حلقة من فرسان الشرطة المصريين ، وسيق المحكوم عليهم بالشنق والجلد ، على مرأى ومسمع من زوجاتهم وأمهاتهم

وبناتهم وأطفالهم ، وكلما شنق محكوم عليه بالموت جلد اثنان ، ومندوب الحكومة المصرية والبريطانيون يشاهدون آلام وموت جماعة بريئة من صغار الفلاحين . واستغرق التنفيذ ساعة كانت من أطول ما شهدته الإنسانية من ساعات ، ولقد أحسن تصوير ما جرى فى تلك الساعة أحمد حلمى ، الكاتب الأول فى جريدة اللواء ، فقد كتب تسجيلا لفظائعها مقالا عنوانه « يا دافع البلاء » ، قرأه المصريون فى اليوم التالى ، فضجُّوا بالبكاء ، واختنقوا بالدموع ، وأحس كل منهم أن المصاب ، وأن الإهانة التى لحقت مصر من تنفيذ هذا الحكم بالغة وقاسية ، وزاد من شدتها وقسوتها أن اثنين من أكبر رجال مصر الذين تعلموا ، ووصلوا إلى أكبر المناصب قد شاركوا فى إصدار هذا الحكم ، بل إن أحدهما وهو أحمد فتحى زغلول رئيس محكمة القاهرة هو الذى حرره بقلمه .

وكان مصطفى كامل فى باريس ، يلتمس العلاج لما أصابه من ضعف ، وكان أطباؤه قد نصحوه بالتزام الراحة ، وبالامتناع عن أى جهد ، ولكنه ما كاد يقرأ وصف هذه المجزرة المروعة حتى ترك فراشه ، وقام يكتب واحدة من أجمل مقالاته ، تلك التى عنونها : « إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن » قال فيها :

« إنى جئت اليوم أسأل الإنجليز الغُيُر على بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنا أيرون من العدل بسط النفوذ الأدبى والمادى لإنجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهمجية. جئت أسأل الذين يجاهرون فى كل آن ذاكرين الإنسانية ، مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط إذا حدثت فظائع فى بلاد أخرى دون فظيعة دنشواى أن يثبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفى وحده لأن يسقط إلى الأبد تلك المدنية الأوربية فى أعين العالم كافة » .

وقد دوّت هذه المقالة فى الدوائر السياسية ، فى مصر وفى فرنسا وفى

بريطانيا : دوياً هائلا : أحس بخطره أول ما أحس اللورد كرومر نفسه . الذى كان فى إجازة فى بريطانيا .

كان مصطفى مريضاً منهوك القوى عندما حدثت حادثة دنشواى ، فزاده الانفعال بها ، والكتابة فيها ، ضعفاً على ضعف ، ولكنه قرر أن يسافر إلى لندن ، إذ شجعه على ذلك مستر « بلنت » الكاتب الذى عرف عرابى ووضع كتاب التاريخ السرى للاحتلال البريطانى ، ووصل مصطفى إلى لندن فى ١٥ من يولية سنة ١٩٠٦ ، واتصل بعد ذلك مصطفى بالنواب واللوردات والصحفيين ، وقد قالت مدام جولييت عن زيارة مصطفى للندن : استطاع مصطفى كامل أن يحرك الرأى العام البريطنى بفصاحته وحماسه الوطنى ، وإن أحاديثه الصحفية ومقالاته فى الجرائد الإنجليزية دفعت السير « إدوارد جراى » إلى التصريح بأن مصر تعتبر بلداً متمديناً ، بعد أن قال عنها إنها بلد متوحش ومتعصب ، وتحدثت إلى مصطفى فى ٢٠ من يولية جريدة « الديلى كرونكل » ، وأحسنت تقديمه إلى قرائها ، وأوردت نبذة غير قصيرة عن برنامجه الوطنى ، وحياته الصحفية . وأقامت جمعية الوحدة الإسلامية الهندية حفلة تكريم له فى لندن فى ٢٤ من يولية ، لبى الدعوة إليها ٢٥٠ شخصاً ، ورد مصطفى على هذه الحفلة بمأدبه أقامها فى فندق كارلتون فى ٢٦ من يولية ، دعا إليها الصحفيين والنواب والكتاب واللوردات ، دحض فيها تهمة التعصب التى رمى بها المصريين اللورد جراى وزير خارجية بريطانيا لتفسير حادثة دنشواى .

وتقول مدام جولييت آدم فى مقدمة كتاب « مصريون وإنجلترا » : إن « السير كامبل باترمان » رئيس وزراء بريطانيا أبدى رغبته فى مقابلة مصطفى كامل ، وإن المقابلة تمت فعلا فى مقرر رئيس الوزراء (١٠ داونتج ستريت) ، وإن الحديث تناول كل شئون مصر ، والإساءة التى سببها حكم اللورد كرومر لسمعة بريطانيا فيها ، فسأل « السير بانرمان »

مصطفى : هل تقبل أن تشكل وزارة برياستك ، فرفض على التو مصطفى كامل قائلا : إن وطنيتى تفرض على رفض أى منصب فى ظل الاحتلال ، فسأله رئيس الوزراء : إذن من ترشحه ليتولى الوزارة من المواطنين الأكفاء ليسقط حجة اللورد كرومر وأمثاله بأن المصريين لا يصلحون لحكم أنفسهم ، فأعطاه مصطفى قائمة من اثنين وثلاثين اسمًا ، كان منهم سعد زغلول ، فلم يقع اختيار الحكومة البريطانية إلا على سعد زغلول ، فلم يؤثر هذا الاختيار على مصطفى كامل عند وقوعه فى ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩٠٦ ، بل كتب إلى مدام جوليت يقول لها : « إن سير « باترمان » كان مخلصًا فى حديثه معى بشأن استقلال مصر . . . إن سعد زغلول من أظهر مستشارى محكمة الاستئناف ، ولقد وضعت اسمه فى القائمة التى سلمتها للسير باترمان ، ولديك نسخة منها ، فاختيار اللورد كرومر لسعد زغلول من بين اثنين وثلاثين اسمًا ربما كان القصد منه الأمل فى ضم سعد زغلول إلى سياسته ، لأنه متزوج من ابنة رئيس الوزراء مصطفى فهمى » .

وفى أخريات سنة ١٩٠٦ أعد مصطفى كامل عدته لإصدار جريدتين يوميتين إحداهما باللغة الفرنسية والثانية باللغة الإنجليزية وتحملان معًا اسم « اللواء المصرى » ، وقد أسس لتمويلهما والإنفاق عليهما شركة رأس مالها ٢٠ ألفًا من الجنيهات ، وزودهما بالمراسلين الأجانب والمحررين والمترجمين ، وقد كتب لمدام جولييت يقول : «أود أن يكون لى بعض معاونين من كبار الكتاب الفرنسيين يكون من بينهم شخصك الموقر ، واثنان أو ثلاثة من أصدقائك الأدباء والسياسيين ، فهل لك أن تتفضلى وتهتمى بهذا الأمر » .

ثم ذهب مع محمد فريد إلى باريس ، ومر بمدام جولييت آدم ، وأسر إليها بأن الإنجليز ينتوون عزل الخديو لتأييده مصطفى كامل فى حملته عليهم أثناء حادثة دنشواى ، ولاستنكار الخديو حكم المحكمة

فى هذه الحادثة ، ومساعدته المالية لجرائد مصطفى كامل اليومية الفرنسية والإنجليزية ، ورفضه حضور حفلة أقيمت احتفالا بذكرى ميلاد ملك إنجلترا ، وأن مصطفى لذلك سيسافر ليقابل رئيس الوزراء البريطانى ، الذى تأثر بشخصية مصطفى كامل ، ليفهم السياسى البريطانى سوء أثر خلع الخديو فى مصر ، وسوء مغبة ترك اللورد كرومر فى منصبه بعد أن انكشفت نتائج سياسته .

الرسالة والرسول

الرسالة

دعاة الحرية فى الأمم المغلوبة على أمرها ، هم من هذه الجماعة المختارة التى تذكرها الكتب المقدسة باسم القديسين والشهداء والصالحين ، فعملهم أقرب ما يكون من عمل الرسل ، فهو هداية الناس إلى الطريق الذى يخرجهم من الذل إلى الكرامة ، ومن الأسر إلى الحرية ، ومن الضعف إلى القوة . ولما كان هذا الخروج لا يتحقق بذاته ، وإنما يتحقق بالسعى والجهاد ، أى بتحمل المشاق ، وإنكار الذات ، ومواجهة المخاطر ، وفى مقدمتها خطر الموت وخطر الفقر ، فاستجابة الناس لدعوة زعماء الحرية كاستجابتهم لدعوة الأنبياء والرسل ، لا تتم إلا بعد طول التردد ، وإذا لباها فريق من الأمة عارضها الكثيرون . ولما كان الناس لا يحبون أن يقروا بعيوبهم ، وأن يفضحوا نقائصهم فإنهم يسوغون تباطؤهم فى تلبية الدعوة ، أو نفورهم منها ، بأن فى الدعوة عيوباً ، أو فى صاحبها نقائص، فيشقى هؤلاء الدعاة الصالحون بما يتهمون به زوراً ، وبما يلقونه من الصدود والإعراض ، فيكون نصيبهم وحظهم فى الدنيا كحظ أنبياء الله ورسله ، وإن كان الله لا يوحى إليهم ، وإنما يلهمهم بما يلهم به كل داع للخير وكاره للشر ، وعامل من أجل الإصلاح .

فليس إذن ثمة شيء غريب ، إذا سمينا مصطفى كامل رسول الوطنية ، وإذا سمينا جهاده رسالة . والحكم على رسالة الرسول يكون بقدر حاجة المجتمع إليها وبقدر عدم اهتداء الناس إليها وإلى الخير

الناجم عنها . فما عرف التاريخ رسولا دعا إلى ما تدعو إليه الغريزة الإنسانية . لم نسمع عن رسول دعا الناس ليأكلوا الطعام ويسعوا إلى أطايبه وملذاته . ولا إلى حب النساء . ولا إلى جمع المال . وإنما قد يدعو المدعى إلى شئ يتعلق بهذه الغرائز . فقد يأتى من يدعو الناس إلى أن يتصلوا بالنساء فى حلال لا فى حرام . أو أن يتركوا أكل طعام أو شراب عرف ضرره . أو أن يأكلوه نظيفاً أو بعد نضجه . أما ما تدعو إليه الغرائز فالناس تفعله ، ولا فضل لها .

فالرسالة تأتى عادة للناس فى وقت يعملون فيه نقيضها . والمشاهد أن الأمم إذا أصيبت بهزيمة كرهت ذكر الجهاد . وكرهت أن تدعى إلى القتال من جديد ، ومالت إلى رذائل التحلل وإيثار المصلحة الشخصية وفشا فيها التواكل والنفعية والوصولية . وتقدم صفوفها الإمعات الذين لا رأى لهم ، والذين يذهبون مع كل ريح . ويجرون فى أذيال كل ناعق ويتقلبون على كل وجه ويرددون كل يوم كلاماً . ذلك لأنهم بالهزيمة يفقدون احترام أنفسهم كما يفقدون إيمانهم بالمثل العليا . فلا يكون فى حياتهم إلا أحط ما يفكر فيه الناس ويعملون له .

فالرسول الذى يأتى فى هذه الفترة . مهمته أن يبدل بشعور اليأس والاستسلام وقبول الأمر الواقع الأمل فى المستقبل ، ورفض الأمر الواقع والتهيؤ للمقاومة ، وتذكر فضائلها .

فلنر فى أى الظروف بدأ مصطفى كامل عمله السياسى .

إن الهزيمة العسكرية للثورة العرابية كانت بلاء مدمراً . ولكن هذه الهزيمة تجاوزت الجانب العسكرى إلى الجانب الروحى ، فقد رأينا زعامة هذه الثورة ، بعد مواقفها المجيدة من الإنجليز والخديو ، وبعد أن أقامت الحكم النيابى الصحيح ، وبعد أن أحسنت تعبئة الأمة أدبياً وروحياً قد اتخذت بعد الهزيمة العسكرية فى التل الكبير ، مسلكاً مناقضا لمسلكها الرائع السابق على تلك الهزيمة ، فإنك لا تجد مسوغاً لتسليم عرابى

لقائد الاحتلال البريطانى ، ولا لبقائه فى القاهرة بعد قراره بعدم استمرار المقاومة للغزو البريطانى فى القاهرة ، ورده عنها . وأحسب ويحسب كل إنسان آخر أنه كان فى وسعه أن يجد مكاناً يلتمس فيه اللجوء السياسى هو وزملاؤه ، حيث يبقى رمزاً للثورة ، وعنواناً على المقاومة الوطنية ، منتظراً ما تأتى به الأحداث ، فإذا سلمنا جدلا بوجاهة الظروف التى قرر فيها عرابى وزملاؤه أن يسلموا أنفسهم لقائد الاحتلال البريطانى ، فما معنى اللجوء إلى محاميين إنجليزيين يدافعان عنه ، وهما فى نهاية الأمر لم يفعلا أكثر من نصحهما له بأن يعترف على نفسه بتهمة التمرد على الخديو فى مقابل تخفيف عقوبة الموت إلى النفى . وإنما الذى لا نفهمه مطلقاً ، ولا نجد له تفسيراً ، هو تقديم عرابى للورد دوفرين فى ١٥ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ [1] مشروعاً للإصلاح الإدارى والحكومى فى مصر ؛ وذلك عن طريق المستر برودلى محامى عرابى ، فالتحدث إلى مندوب الحكومة التى غزت مصر ؛ وتقديم الاقتراحات الخاصة بإدارة شئون البلاد التى غزتها ، واستولت عليها بالخديعة والخيانة والعنف ، تسليم صريح لاضمنى بحق تلك القوة الغازية فى إدارة البلاد ، وفى ثقة صاحب الاقتراح فى حسن نواياها ، وفى جواز التعامل معها . فإذا كان هذا الاقتراح مقدماً من زعيم ثورة هذه الأمة التى غزيت فى عقر دارها ، كان معنى ذلك أن الشعب قد أسقط عن الغزاة صفتهم الكريهة الباطلة ، وأسبغ عليهم رداء الشرعية .

وقد استمرت هذه الروح متزايدة ، فقد بقى اللورد كرومر رمزاً على الاحتلال المستبد بشئون مصر ، دون الخديو ودون ممثلى الشعب ؛ وكذلك كان سقوطه فى نظر الوطنيين عيداً وطنياً ، وكان زواله من مكانه بشيراً بضعف الحكومة الاحتلالية ، فانظر ماذا كان أثر هذا السقوط فى نفس شخصية كبيرة من شخصيات مصر ، يعرف صاحبها بين

---

(١) راجع جزء (٢) مذكرات عرابى ص ١٦٥ – طبعة دار الهلال .

مواطنيه برجاحةالعقل، وقوة الشكيمة؛ ونعنى بها سعد زغلول، الذى قال فى مذكراته المودعة بدار الوثائق فى نقد جاء فى ص٢٤٠ من الكراسة رقم٦، إنه حينما سمع نبأ استقالة كرومر شعر «كمن وخز بآلة حادة فلم يشعر بألمها لشدة هولها» ، وذهب ليقابل كرومر ليطمئن على مركزه ، وعندما سأله كرومر عن الأحوال رد سعد بأنها سيئة ، ولكن بعد أن يشرح له كرومر الأسباب الصحية التى دفعته إلى الاستقالة ويطمئنه بقوله : لا تخف «يا سعد باشا» مطلقاً فإن خلفى سيؤيدك بكل ما فى وسعه ، ويقول سعد فى مذكراته : وعندما أبدى عبارات التشجيع والتطمين قلت له إنى لا أفكر فى شخصى ولكن فى بلدى ومنفعتها التى سوف تخسر بعدك خسارة لا تعوض[1] فيرد عليه كرومر : لاخوف عليها (أى على مصر) من ذلك ، فإن خلفى قادر، وقد تربى على يادئى، فيقول سعد «فخرجت شاكراً متأسفاً فرحان حزنان . .»[2]

وإذا أردنا أن نعرف رأى الآخرين فى الاحتلال البريطانى فعلينا أن نقرأ خطبة مصطفى رياض باشا فى حفلة وضع الحجر الأساسى لمدرسة محمد على الصناعية فى ٢٣ من مايو سنة ١٩١٤ وذلك بمدينة الإسكندرية وفى حضور الخديو عباس ، فقد قال رئيس الوزراء المصرى عن اللورد كرومر الذى اعتذر عن حضور الاجتماع :

«جناب المحتشم اللورد كرومر. اعتذر اليوم عن الحضور فى هذا الحفل لتغيبه عن مصر ، وكل يعلم ما له من المقام الأرفع والنفوذ الشامل فى هذه البلاد ؛ وبالأخص ماله من اليد الطولى فى كل ماله مساس بالمصالح والمنافع العمومية ، فهذه اليد الفعالة قد شملتنا ، وهى التى

(١) كتاب الدكتور عبد الخالق لاشين : سعد ودوره فى السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤ .

(٢) ص ٢٢٤ من مذكرات سعد الكراسة (...)

كانت لنا معوانًا ، بل متممًا ومكملا لهذا المشروع ، فحق علينا أن نعرف هذه المبرة ، ونقدم له واجب الشكر ، ونثنى عليه أطيب الثناء » .

فإذا انتقلنا إلى رئيس وزراء آخر ، هو مصطفى فهمى باشا ، وأردنا أن نعرف رأيه فى الاحتلال البريطانى وفى علاقته به ، وعلاقة المصريين به ، استطعنا أن نعرف هذا الرأى مما تحدث به إلى « دجرفيل » صاحب كتاب « مصر الحديثة » الذى صدر سنة ١٩٠٥ على مانقله من هذا الكتاب المؤرخ العظيم عبد الرحمن الرافعى قال :

« انظر إلى حالة مصر سنة ١٨٨٢ وما صارت إليه الآن سنة ١٩٠٥ ، لقد كان يسودها الخراب والفوضى والشقاء ، والآن يعمها النظام والعدل والرخاء .

إن التغيير كان سريعًا واسع المدى لدرجة أنى فى بعض الأحيان أغمض عينى وأتساءل : هل أنا فى يقظة أم فى منام . إننا مدينون لإنجلترا بثروتنا وسعادتنا وهنائنا ، أنظر إلى هذه الأرض المقامة عليها الفنادق والقصور ، إنها كانت منذ عشرين سنة لا تساوى شيئًا ، والآن بلغت قيمتها ملايين من الجنيهات ، فماذا تكون قيمتها لو جلت إنجلترا عن مصر ؟ »

وإذا انتقلنا إلى أهل الفكر فلننظر إلى موقف رجل له فضل كثير على رفع أساليب الكتابة العربية ، وتقدم مناهج الفكر الدينى ، والتحرر من الخرافة الموروثة وأخطاء السلف فى التفسير ، ونعنى به الشيخ محمد عبده . فقد روى عنه تلميذه الوفى فى تاريخ حياته الذى كتبه عنه فى صفحة ٥٠١ ما نصه : « إن اللورد كرومر مندوب الاحتلال البريطانى أعلن أن الشيخ محمد عبده باق فى منصبه بدار الإفتاء مادام الاحتلال باقيًا » وقد أورد أحمد شفيق باشا فى كتابه « مذكراتى فى نصف قرن » مانصه : « وقد انتهت الدسائس ضد المفتى بأن صرح اللورد كرومر يوم ١٤ يناير سنة ١٩٠٣ أثناء مقابلته للخديو ، بأنه

مهما كانت الأحوال فإنه لا يوافق على فصل الشيخ المفتى من الإفتاء مادام موجوداً » ، أى مادام اللورد كرومر موجوداً . وخفاء المفارقة الموجعة بين بقاء شيخ مسلم يدعو إلى إصلاح الدين ، وبقاء الاحتلال الأجنبى فى بلد مسلم ، وهو أمر يأباه الدين وكل دين ، على تلميذ للشيخ محمد عبده ، كرشيد رضا ، وهو رجل حصيف حسن الفهم ، ويقبله الشيخ محمد عبده على نفسه، كما يقبل أن يتبادل مع اللورد كرومر المشورة فى شؤون الأزهر وعلاقة الخديو بها من جهة، ومراجعة اللورد لبعض أحكام الشيخ محمد عبده ، وهو يشغل منصب القاضى ، يريك مدى سقوط صفة العدو الغاصب عن الاحتلال البريطانى ، واعتباره صاحب حق ، فى تصريف شئون البلاد ، حتى ما كان منها دينيًّا كشئون الأزهر ، بل الاعتراف له ، بأنه لا يحب لهذه البلاد إلا الخير ، فالأخذ والرد منه ، هو أخذ ورد تقتضيه المصلحة ، والامتناع عنه فيه المضرة .

أما أحمد لطفى السيد فقد أقام حزبا كاملا على أساس هذا الفهم ، فقد شرح سياسة « الجريدة » ، لسان حزب الأمة ، وقد كان هو رئيس تحرير هذه الجريدة وموجه سياستها ، فقال : إن الجريدة لم تنشأ لأن تحابى السلطة الشرعية (الخديو) أو السلطة الفعلية (الاحتلال) ، ولا أن تعادى واحدة منهما ، ولا أن تنتصر لإحداهما على الأخرى » .

ولما سقط كرومر فى أبريل سنة ١٩٠٧ ، وأقام بعض أعيان المصريين حفلة تكريم له ، وجهت إلى هؤلاء المحتفلين بكرومر اللوم والنقد جريدة « اللواء» ، فرد على هذا اللوم والنقد أحمد لطفى السيد بقوله :

« سياستنا مع الإنجليز لاتخلو من أحد وصفين : إما سياسة عناد وعداء ، وإما سياسة مسالمة لا استسلام ، ولا شك أن سياسة المعاندة عقيمة ، إذ كيف يقبل المعاند من المعاند حسابًا على أعماله ؟ بل كيف يرجو العدو من العدو إصلاحًا له ؟ فلم يبق إلا سياسة المسالمة والمحاسنة مقرونة بالمحاسبة ، وأول مظاهر المحاسنة المجاملة فى المعاملة » .

فلطفى السيد يقترح على الشعوب المنكوبة بالأعداء الغازين والفاتحين المقتحمين ألا تعادى أعداءها ، بل أن تحاسنهم ، لتستطيع أن تحاسبهم؛ وهو نظر لو أخذ به لما كانت صحائف التاريخ عرفت حركة وطنية ، ولاستحالت جميع الحركات الوطنية إلى لون من التخنث ، لا هو قبول بعدوان المعتدين والإذعان له ، ولا هو مجاهدة له ودفع لأذاه ، وتأليب الناس عليه . ولو وجدت خطة كخطة لطفى السيد ، لوفرت الأمم على نفسها العناء ، ولما سفك دم ولا فتح سجن ، ولا شقيت جماعة بتكاليف الجهاد وأعبائه .

إذن هذه هى حالة مصر عندما فتح مصطفى عينيه للحياة العامة ، وهو بعد صبى حليق لم يطرّ شاربه ، ولم يشتد عوده . ولك أن تصور لنفسك المشقة التى يجب أن يتحملها صبى لاحول له ولاقوة ، ولا مال عنده ولاجاه ، ليغير هذه الحالة .

ماذا تكون الرسالة ؟

فماذا تكون إذن رسالة مصطفى على وجه بين ؟

رسالة مصطفى ذات ثلاث غايات يجمعها جميعاً هدف واحد :

الأولى — كره الاحتلال البريطانى ورفض احتماله أو السكوت عليه ، واعتباره بلاء وكارثة وعاراً ، ورفض كل ما يقال عن خيره وفضله وحسن أثره فى مصر ، ورفض المقارنة بينه وبين ما سبقه من عهود فساد أو ظلم .

الثانية — إقناع المصريين بأن إجلاء الاحتلال البريطانى عن مصر ممكن وأنه من غير المستحيلات ، كما يحاول الاحتلال أن يثبت للمصريين .

الثالثة — أن مصر عظيمة وجليلة ورائعة ، وجديرة بكل حب وولاء وفداء ، وأنها بتاريخها وأعمال أبنائها وموقع أرضها قادرة على أن تجمع

الناس حولها إعجابـًا وتقديراً ، من ناحية ، ورعاية لمصالح أوطانهم من ناحية أخرى .

ولو كانت الحركة الوطنية فى أى وطن هى مجرد حب الوطن ، لكانت هذه الحركات من أكثر الحركات الإنسانية نجاحـًا ، فالناس خلقوا يحبون البلد الذى ولدوا فيه ، وطبعوا على أن يفضلوا ماءه وهواءه وعاداته وتقاليده ، على الماء والهواء والعادات والأساليب فى أى بلد آخر . و « المصرى » بين الأمم والشعوب يبلغ فى حب بلده أقصى الغاية ، فهى « أم الدنيا » عنده بصدق واقتناع ، لا عن ادعاء ومزايدة على غيره من الأمم ، ونيلها ينبع من « الجنة » إيمانا وعقيدة ، والقاهرة محروسة بأهل البيت ؛ وأهل البيت ، أى ذوو قرابة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قد اختاروا القاهرة للإقامة فيها ، واختارها الله لهم ليدفنوا فى أرضها ، لأنها خير أرض الله ، وقد ذكرها فى القرآن وفى التوراة معـًا ، كما لم تذكر أرض غيرها ، فى حين لم يُذكر وطن سواها . وقد لا يعجب المصرى أحداً من الشعوب ، حينما يطلق العنان لملكة النقد والسخرية اللاذعة المطبوع عليها ، ولكن للأسف الممض ليست الحركات الوطنية فى القديم أو الحديث مجرد حب للوطن ، ما لم يكن هذا « الحب » مدخلا إلى عقيدة وما لم تفض هذه العقيدة إلى حركة .

وتحويل العاطفة إلى عقيدة هو عقبة العقبات ، والانطلاق من العقيدة إلى العمل هو مجال عمل الزعيم ، ومظهر قدرته ، وامتحان لرسالته . والعمل هو أصعب ملهم للزعيم ، وأعظم مشقة .

إن حب الوطن ، هو الأرض البكر ، يدعو إلى أن تشق هذه الأرض ، وتقلب لتستقبل الهواء ، ثم لا بد أن تحرث ليصل الهواء إلى أبعد ما يستطاع ، ثم لا بد من رى وصرف ، ورى وصرف حتى تغسل ، ولا بد . . . ولا بد . . ثم تلقى البذور مع السماد والرعاية ، وقد لا يسفر هذا الجهد كله عن

شئ ما لم يتداركه الله المحصول بعنايته فلا تهلكه الآفات أو تفتك به الحشرات .

كان على مصطفى كامل أن يسمع المصريين صوتاً — مجرد صوت — يدعوهم إلى التفكير فى الاحتلال كمصاب وعار ، وإلى التفكير فى الجلاء كواجب وشرف .

وكان عليه ألا يطلب منهم شيئا ، لا اجتماعاً يؤمونه ولا مالا يدفعونه ، ولا جهداً يبذلونه ، ولا خطراً يتعرضون له ، ولا أسلوب عيش يهجرونه .

عليهم أن يستمعوا إليه فقط ويتابعوه .

وقد كان .

الخطوة الأولى

ولكن هذه الخطوة التى تبدو هينة لينة هى أيضاً لها خصائص وشرائط ، فليس كل صوت يسمع ، فمن الأصوات ما إن تسمعه الأذن حتى يود السامع أن يطير ، وأن يكون بينه وبين مصدر الصوت بعد المشرقين ومن الأصوات ما يستميل الأذن ويطر بها .

نشر أولى مقالاته فى ١١ من فبراير سنة ١٨٩٣ ، وعمره آنذاك أقل من تسعة عشر عاماً ، وبعد خمسة أيام نشر مقالاً ثانياً فى ١٦ فبراير ، وبعد ثمانية أخرى نشر فى ٢٤ مقاله الثالث ، وبعد خمسة يوماً مقاله الرابع ، وفى ٤ من أبريل المقال الخامس ، وفى العشرين من الشهر نفسه المقال السادس .

هذا التتابع فى الكتابة ، وهذه الملاحقة فى الحديث ، هى حالة رجل يشعر بأنه يود أن يحقق ثلاثة أمور فى آن واحد . أولا : أن ينصت الناس إليه ، ليعرفوا أن له معهم شأناً ، فليس هو كاتب مقالات ، بل

هو قارع طبل ، إنه يدق ناقوساً ، إنه المسحراتى فى الليل البهيم .

وثانياً ، أنه يود أن يتبينوا أن لهذه المقالات إطاراً يجمع بينها ، ومعنى عاماً يضمها ، فعليهم أن يتبينوه .

وثالثاً ، أن هذه المقالات ليست غاية بذاتها ، فإن لها ما وراءها . . .

واستمرت المقالات بعد ذلك حتى بلغت أربعة عشر مقالا ، ولا نحسب أن أحداً من غير كتاب الصحف المحترفين ، فى ذلك الأوان ، قد نشر مثل هذه السلسلة من المقالات ، دع عنك صبياً ناشئاً دون العشرين لم يسمع من قبل له صوت ، ولم يقرأ له قول ، ولم يسمع عنه نبأ .

وإذا كان قد انقطع عن الكتابة قليلا ، فلأنه كان قد سافر ليؤدى امتحاناً فى الثانى من أغسطس سنة ١٨٩٣ .

أدرك المصريون بأدنى الجهد أن ما نشر لمصطفى كامل ليس سلسلة مقالات ، إنما هى ظاهرة جديدة فى حياة « مصر » .

ولو عرف المصريون باقى وجوه نشاط مصطفى فى سنة ١٨٩٣ ، لأدركوا أنهم ليسوا أمام ظاهرة جديدة فحسب ، بل جريئة أيضاً ، فهذا الفيض المتدفق من المقالات التى يكتبها صاحبها فى مصر ، ويرسل بها من فرنسا ، وتتناول الخواطر والتحليلات ، ثم تتناول المشاهدات ووقائع الرحلات ، قد عززت بلونين من الإنتاج الأدبى ، مغايرين تماماً هذا اللون الجديد من الإنتاج المألوف نسبياً ، فقد أخرج كتاباً عنوانه « أعجب ما كان فى الرق عند الرومان » . وقد يبدو غريباً أن يتناول هذا الشاب المشتغل بشئون بلده موضوعاً تاريخياً وقانونياً ، يكاد يكون جانبياً بالنسبة لاتجاه نشاطه العام ، ولكن هذا الكتيب الصغير يدل على صفة أساسية ، عند كل الذين خلقوا ليتحدثوا إلى الناس ويوجهوهم ويؤثروا فيهم : تلك هى صفة الميل إلى الإفضاء إلى الناس بما توافر لهم من رأى أو حقائق ، فهم لا يختزنون شيئاً إلا بقدر

إنضاجه وتحديده وهضمه ، فهم كالنحلة التى لا تكف عن امتصاص الرحيق ، لتفرزه فى موعده عسلا ؛ ولقد قرأ مصطفى كامل شيئاً عن الرق عند الرومان ، بدا له طريفاً ومجهولا ، فلم يطق أن يبقيه عنده فأخرجه وهو واثق أنه سيطرف القراء ، وسيطلعهم على شئ جديد .

ولكنه فعل شيئاً آخر أكثر طرافة ، ذلك أنه أخرج لأول مرة فى تاريخ مصر ، وفى تاريخ الشرق العربى ، وربما فى تاريخ هذه المنطقة من العالم ، مجلة مدرسية . ولولا أننى لم أعن بتحقيق المسألة تاريخياً لجازلى القول إن مجلة « المدرسة » التى أخرجها مصطفى كامل فى الثامن عشر من فبراير سنة ١٨٩٣ ، كانت أول مجلة مدرسية يصدرها تلميذ من ماله الخاص دون أن تعينه جهة ما كالمدرسة التى ينتمى إليها ، أو الوزارة المشرفة على التربية والتعليم ، أو مؤسسة ما ، أو صحيفة تضم صاحب المجلة وبعض زملائه . ونحن نذكرها هنا لدلالاتها العامة ، لنبين خصائص مصطفى الروحية والعقلية الدالة على تمثله منذ اليوم الأول لواجبات الرسالة التى اختارته العناية الإلهية لأدائها .

ظاهرة ومظاهرة

أما النشاط الثالث فهو تزعم مصطفى فى ٢٠ من يناير سنة ١٨٩٣ مظاهرة تقصد دار جريدة الاحتلال الناطقة بالعربية برأيه ، والمدافعة عن صوابه وخطئه ، والمسوغة لوجوده وبقائه ، أى جريدة المقطم ، ثم إلقاؤه خطبة تهييج ، وإثارة ضد هذه الجريدة بمناسبة أزمة إقالة مصطفى فهمى باشا صديق بريطانيا الحميم من رياسة الوزارة ، وهى الأزمة التى انتهت بتعيين صديق آخر للاحتلال ، هو مصطفى رياض باشا فى ١٩ من يناير سنة ١٨٩٣ ، والذى ما كاد يضع نفسه على كرسى الرياسة حتى قال : « إننى أقبل الآن أخذ رأى حكومة جلالة ملكة بريطانيا فى جميع المسائل المصرية الهامة » .

وهذه المظاهرة ظاهرة جديدة أيضًا ، وغير مسبوقة فى حياة المصريين العامة والسياسية ، وهى فى حياة مصطفى ذات ثلاث دلالات — الأولى : أن التعبير عن الرأى عند مصطفى خرج من نطاق الكتابة التى تتم فى عزلة بعيداً عن الناس ، إلى الرأى المنطوق الموجه إلى الجماهير . الثانية : أن التعبير عن الرأى تجاوز مجرد الإلقاء بالرأى ، وتركه يفعل فعله فى الناس ، إلى تجميع الناس وإثارتهم وتوجيههم . الثالثة أنه خرج من نطاق مساهمة الجندى إلى قيادة الزعيم .

وتمتاز سنة ١٨٩٤ بحدث عظيم هو نجاحه فى الحصول على شهادة الحقوق من كلية طولوز ، فأصبح يحمل الوثيقة التى تحتل دوراً بارزاً فى حياة المصريين منذ علمهم الاحتلال البريطانى أن الوظيفة هى الشهادة المدرسية ، وأن الوظيفة هى الحياة بكل لذائذها ومباهجها ونفوذها : المال والمركز والسلطة . أصبح مصطفى كامل رجلا كاملا بحسب المعايير الحكومية الرسمية . وهو لم يشعر بهذا النقص قط بدلالة أنه كتب فى أكبر جرائد مصر سلسلة مقالات ، وهو بعد طالب ، ولأنه عقد صلاته بأكبر الشخصيات وهو لم يحصل على هذه الورقة ، ولأنه ألف الكتب وأصدر المجلات ، دون أن تكون تحت يده هذه الوثيقة ، ومن أجل ذلك بذل جهداً مضاعفًا ليتم دراسة عالية فى عام واحد ، لا لشدة حرصه على هذه الورقة ، ولا لفرط تقديره لها ، بل لعدم اكتراثه بها نفسها ، فهو يود أن يظفر بها لكيلا تقوم عقبة فى وجهه . ولما حصل عليها قام على الفور بعمل .

كان أول عمل أقدم عليه بعد حصوله على أجازة الحقوق من كلية (طولوز) يعد فى حياة السياسة المصرية ثورة ، فقد تحدث إلى جريدة «جازيت دى تولوز» فى ٢٣ من نوفمبر سنة ١٨٩٤ ، فإبداء الرأى السياسى فى مصر كان عملا نادراً فى تلك المرحلة من حياة الاحتلال البريطانى ، فإبداؤه خارج مصر ، وبلغة أجنبية ، ومن صبى لم يكد يبلغ سن

الشباب ، وفى عاصمة لم تكن مطروقة كثيراً من المصريين ، كان كل ذلك ، بشيراً بأن تغييراً هامًّا أصاب الحياة العامة فى مصر ، وأهم من ذلك أن تكتب جريدة أجنبية نبذة عن هذا الشاب المبتدئ وتقدمه لقرائها ، فهذا يعنى الكثير أيضًا ، وكان وحده كفيلا بأن يشجع غير مصطفى كامل ليحذو حذوه ويقلده و يستمد من نجاحه السريع ثقة بالنفس واطمئنانًا إلى المستقبل . ولكن هذا قد تأخر كثيراً ، فالتعويض عن هذا التأخر كان هذا الانفجار العظيم الذى حدث فى الحركة الوطنية ، فاتسع نطاقها ، وعلا صوتها ، وتوالت كتائبها أو قل جحافلها .

وقد تميزت سنة ١٨٩٤ بعمل أدبى ، له أيضًا دلالاته الخاصة ، ذلك هو مسرحية « فتح الأندلس » ، التى تم طبعها فى ١٧ من ديسمبر سنة ١٨٩٤ ، فمصطفى كامل لم يكن من رواد المسرح الفرنسى . نعرف ذلك لأنه يسجل تنقلاته ومقابلاته ومشاهداته فى رسائله الخاصة ومقالاته وأحاديثه الشفوية ، وقد خلت كل هذه الوثائق من الإشارة إلى اهتمام مصطفى بالمسرح : مشاهدة أو قراءة لآثار الأدباء الفرنسيين المسرحية ؛ فالتفات ذهنه إلى العمل المسرحى ، وسبقه إلى الإنتاج فيه جميع المصريين الذين اشتغلوا به بعد ذلك بهذا اللون من الأدب ، يدل على أنه كان يلقى البذور فى كل ناحية ، فيصدر أول مجلة مدرسية ، ويخرج أول مسرحية ، ويلقى أول خطبة سياسية فى الخارج ، ويدلى بأول حديث صحفى لسياسى مصرى لجريدة أجنبية كبرى فى أوربا .

وقد جرت أحداث هذه المسرحية الصغيرة ، حول عصر فتح الأندلس ، ليستمد منها مؤلفها ، نصائح وطنية يوجهها إلى مواطنيه ، فهى عمل سياسى ، ولكن وقوعه على هذا القالب الأدبى الخاص دال على دقة إحساسه ، وحسن فهمه لأثر هذه القوالب المتعددة فى إيقاظ النفس وإثارة انتباهها .

وفى السنة الأولى من سنة ١٨٩٥ أضاف مصطفى إلى آثاره المبتكرة عملا جديداً ، هو حديث أجراه مع « الكولونيل بارنج » شقيق اللورد كرومر الذى كان آنذاك معتمد الحكومة البريطانية فى مصر . وهو حديث يدل على حدة الحاسة الصحفية، فقد قابل مصطفى محدثه على سطح الباخرة التى كانا عائدين عليها معًا إلى الإسكندرية ، وروى مصطفى كيف دار الحديث ، بطريقة حية مليئة بالحركة ، تقل فيها الألفاظ والأوصاف، وتنطلق إلى الغاية انطلاقًا مباشراً ، مما يرشح مصطفى للكتابة المسرحية لو توافر عليها ونمت موهبته فيها .

ولقد هاجم فى الحديث الموضوع الذى كان أكثر الموضوعات حساسية فى عهد نشره، ذلك هو موضوع العلاقة بين مصر وتركيا والولاء المصرى لدولة بنى عثمان ومايتضمنه — فى رأى الإنجليز وأعوانهم — من نقص فى الوطنية المصرية .

وقد حقق هذا الحديث جميع ما كان يستهدفه مصطفى من أعماله الأدبية والصحفية ، ونعنى بذلك أن يبعث الكراهية للاحتلال فى نفوس المصريين ، وأن ينزع من قلوبهم الخوف من سلطانه ، وأن يقوى الأمل فى النجاة منه والخلاص من براثنه .

فقد أظهر لقراء الحديث أن شقيق اللورد كرومر معتمد الاحتلال يصرح بأن احتلال بريطانيا دائم ، فى حين أن الساسة الإنجليز أعلنوا مراراً أنه مؤقت وقدموا على ذلك المواثيق، لذلك سأله مصطفى : كيف يجهر بما ينقض عهود هؤلاء المسئولين ؟ ثم سأله مصطفى أيضًا ماذا أنتم فاعلون أيها الإنجليز إذا فضحت نوايا كم وعلم الناس كذبكم ؟ فضحك الإنجليزى ضحكًا عاليًا وقال: ما أطيب قلوبكم وأسلم نوايا كم أيها المصريون ! أتظنون أن الإنجليز وهم أحق الناس بكل نعمة يجلون عن مصر، ويتركون لكم أو لغيرها تبرها الغزير ، وخيرها العميم ؟ . . وماذا على رجالنا إذا كانوا حققوا لكم ولأوربا الاحتلال المؤقت (والجلاء القريب)

ومبدؤهم : الكذب فى خدمة الأوطان جائز ! وهل تصدقون أن أوربا ستنجدكم ؟ ثم أضاف الإنجليزى: على أنى إن وافقتك فقلت إن أوربا ستنصركم وتجبرنا على الجلاء . فذلك لا يكون إلا بعد أن يبيع فلاحكم أرضه ويسوء حاله . وانتقل الحديث إلى الساسة المصريين الذين يعاونون بريطانيا أمثال نوبار فأثنى عليهم (بارنج) الإنجليزى، ورد مصطفى عليه بأن وجود بعض الخونة لا يمنع من وجود الوطنيين الذين يستطيع الواحد منهم أن يحيى أمة كاملة، وأن صحائف التاريخ تؤيد هذا القول وتثبته . ولقد شككت جرائد الاحتلال فى صحة هذا الحديث ، واعتبره (المقطم) ضرباً من التأليف أقدم عليه مصطفى كامل ، وقد يكون للخيال نصيب فى هذا الحديث حقاً ، ولكنه خيال مستوحى من الحقيقة ؛ ولقد كان ضرورياً أن يكون للخيال نصيب فيه ، ليكون أكثر إثارة لمشاعر القراء ، وأقدر على إثبات أن الاحتلال البريطانى ، ليس « غولا » لا يمكن التحدث مع رجاله ، وأن رجاله ليسوا دائماً فوق الشبهات .

المحكمة المخصوصة

وفى ١٥ من فبراير سنة ١٨٩٥ ، صدر «ديكريتو» أى قانون بإنشاء محكمة عرفية ، اسمها المحكمة المخصوصة ، اختصاصها أن تحاكم المصريين الذين يهاجمون جيش الاحتلال ، لتحكم بما تشاء من العقوبات، ولتضع لنفسها الإجراءات التى تختارها ، فهى تحكم وتقضى وتحاكم وتشرع وتقنن ، ولا يستأنف حكمها ، وصدور هذا القانون فرصة لا تفلت من يد مصطفى كامل ليثبت للمصريين أساوب الاحتلال فى حكم مصر ، وطرائقه فى إرهابها ومدى ظلمه وطغيانه ، وقد اختار عنواناً لائقاً بجملته ، فقد وضع على رأس هذا المقال « صواعق الاحتلال » فقال :

تأسست هذه المحكمة على شكل يكفى وحده لأن يبرهن للعالم بأسره

أن الإنجليز لا يعرفون للقانون اسماً . وهل سمعتم ياقوم ، بمحكمة تحكم بما يشاء هواها ، محكمة تحكم بصلم الأذن ، وجدع الأنف ، وسلخ الجلد ، وبالجلد والضرب ؟ هل رأيتم ياقوم فى التاريخ أمة تحاكم على غير قانون ودستور ، أجيبونا يا معشر المشرعين ، وأسمعونا كلمة الحق أيها المنصفون . . . نعم نعم ، أنتم تريدون أيها المحتلون بهذه المحكمة عقاب كل مصرى أمين يعرف أنكم خصوم بلاده ، وتقصدون بها إهانة الوطنيين بسجنهم السنين الطوال إن لم نقل بإعدام الكثيرين منهم ،

وكأن مصطفى كامل كان يتنبأ بمقاله هذا ، فإن هذه المحكمة (المخصوصة) اجتمعت فعلا فى ٢٨ من يونية سنة ١٩٠٦ ، وحكمت بالموت وبالأشغال الشاقة المؤبدة ، وبالجلد مع السجن ، وبالجلد وحده على نحو ٥٠ من الفلاحين البسطاء ، لا لأنهم اقتحموا معسكراً للبريطانيين بل لأن البريطانيين اقتحموا قرية « دنشواى » الآمنة وجرحوا امرأة فيها وأحرقوا جرنا وروعوا أهلها فكأن مصطفى كان يقرأ من كتاب مفتوح .

فرنسا ومصر

وفى مارس سنة ١٨٩٥ دعا مصطفى كامل «ديلونكل» النائب الفرنسى الذى عرف بعدائه لبريطانيا ، وكراهيته لاحتلالها مصر ، وتعبيره عن هذه العداوة وتلك الكراهية فى مناقشاته فى مجلس النواب الفرنسى ، وفى مقالاته وأحاديثه فى صحف فرنسا ودعوة نائب أجنبى إلى مصر لم تكن عملا ضخما فى نفسه ولكن دعوة « ديلونكل » إلى مصر فى سنة ١٨٩٥ ، كانت كذلك لأكثر من سبب ، فالمصريون كانوا لايتصلون إلا بحكومة بلادهم ، ولايترددون إلا على دار المعتمد البريطانى ، يلتمسون عنده العون ويقدمون إليه الشكاوى ، ولايجرؤون على الاتصال بسواه من الأجانب ، فتحدى هذا الدستور الوضيع ، ودعوة أجنبى غير بريطانى ، ثم دعوة هذا

الأجنبى ، لا لزور مصر فحسب ، لأنه من أصدقائها ، بل لأنه من أعداء الاحتلال البريطانى ، ثم دعوته ليخطب ضد هذا الاحتلال فى مصر . وعلى مسمع من ممثلى هذا الاحتلال الكبار ، فهذه هى المعانى التى فعلت فعلها فى مصر ، فأنصار مصطفى الذين كانوا يزدادون ببطء رأوا فى هذه الحركة خطوة جريئة ، تؤدى إلى التنديد بالاحتلال ، وإثارة الدول عليه ، وقبول نائب مسئول فى دولة كبيرة كفرنسا دعوة مصطفى كامل لزيارة مصر وإلقاء الخطب ضد الاحتلال فيها ، معناه أن فى هذه الحركة الوطنية عناصر قوة ، وأنها قادرة على أن تستزيد من هذه العناصر . فهذا الاحتلال إذن ليس قوة غير بشرية ، ومحاربته ليست عملا عقيما ، ولما عاد النائب الفرنسى إلى بلاده فى ١٣ من أبريل سنة ١٨٩٥ ، كانت زيارته قد أثمرت ثمرتها المرجوة ، فالجرائد والدوائر الوطنية رحبت به وأحسنت الترحيب ، والجرائد الاحتلالية غاظتها ، واستنفدت صبرها ، فخرجت عن حلمها الذى تتظاهر به ، وحملت حملتها الضارية على مصطفى كامل وأعوانه ، وأوهامه فى تحريك الاحتلال من مكانه فوق صدر مصر . وكل هذه الضجة ، بالتأييد والهجوم ، وبالحديث عن موقف الدول الأجنبية من الاحتلال البريطانى ، وعن مدى جدية تأييدها للحركة الوطنية المصرية ، يكسر الجمود الذى كان يسود البلاد قبل مجئ مصطفى كامل ، ويطلق المشاعر من عقالها . ولا شئ أنفع فى تأييد الحركة الوطنية من انطلاق المشاعر الحبيسة ، وحرية التعبير عن نفسها . وقد قال مصطفى كامل بالضبط هذا الذى نذكره فى خطاب منه إلى أخيه « على فهمى كامل » : « إنى أشعر من جهة أخرى بأن البلاد فى حاجة لرءوس وألسنة وأقلام مصرية كثيرة حتى تقرّب البعيد بما تحدثه فى العالم من تأثير ، ولى الأمل أن ينتشر الشعور فى البلاد بسرعة ، فإنه وحده رأس مال محررى الأمم والشعوب ، وبدونه لا يستطيع خادم ، مهما كانت أمانته وقوته ، أن يصل إلى الغرض المرجو » .

وقد جاء تقديم اللوحة المصورة والملونة إلى الأستاذ « بريسون » رئيس

مجلس النواب الفرنسي في يوم ٤ من يونية سنة ١٨٩٥ : صورة أخرى من صور إثارة الاهتمام بالحركة الوطنية فى الخارج ، وبإثارة المشاعر فى مصر . رسمت هذه اللوحة لتمثل الفتاة « ماريان » الرمز التقليدى لفرنسا ، واقفة على منصة ، وإلى جانبها أربعة شخوص يرمزون إلى الأمم التى أعانت فرنسا على تحريرها ، وهى الولايات المتحدة وإيطاليا واليونان وبلجيكا ، وأمامها شاب مصرى يرمز إلى الشباب المصرى ، ووراءه شخوص يمثلون مختلف الطوائف فى مصر . وفى الجانب الآخر فتاة مكبلة بالأغلال ، يحرسها أسد باطش ، مدجج بالسلاح يلبس خوذة تزيد وجهه الصارم تجهماً ، وإلى جانبها شيخ تسيل من جرة إلى جانبه مياه متدفقة . أما الفتاة فترمز إلى مصر ، والأسد والحارس القاسى هما بريطانيا وجيش الاحتلال . أما الشيخ والجرة فيرمزان إلى النيل ومائه العذب ، وقد كتب مصطفى تحت هذه اللوحة ثلاثة أبيات من الشعر البسيط الساذج ، حفظها المصريون ، وجرت على كل لسان هى :

أفرنسا يا من رفعت البلايا ... عن شعوب تهزها ذكراك
انصرى مصراً إن مصر بسوء ... واحفظى النيل عن مهاوى الهلاك
وانشرى فى الورى الحقائق حتى ... تجتلى الخير أمة تهواك

وقد ذهب مصطفى كامل ومعه عدد من الشباب المصرى الذى كان آنذاك فى باريس يطلب العلم أو الاستجمام ، وقدموا إلى سكرتارية مجلس النواب الفرنسى هذه الصورة ، ومعها رسالة كتبها مصطفى بأسلوبه الذى يجمع بين بساطة النثر وسلاسته ، وحلاوة الشعر وعذوبته ، كما يجمع بين الحجة السياسية واللمعة الروحية . قال :

ياحضرة الرئيس :

إنى بأشد انفعال يخالج القلب تأثيره . أتشرف بأن أقدم لمجلس النواب الذى أنت له نعم الرئيس هذه اللوحة التى تمثل مصر طالبة من فرنسا أن تكون لها خير عضد يساعدها على استرجاع حريتها واستقلالها .

وأن هذه اللوحة لتمثل لدى مجلس النواب حالة أمة ناشئة غيور على حريتها المسلوبة بغير حق منذ ثلاثة عشر عامًا . ولقد برهنت الأمة المصرية ياحضرة الرئيس — مع ما يعتورها من المصائب الشديدة — على سكينة وصبر عجيبين استمالت بهما قلوب الأمم الأوربية، ولكن لما اعتراها النصب جاءت مستغيثة بفرنسا ، هذه الدولة العظيمة التى أعلنت حقوق الإنسان ، والتى سارت منذ قرن فى سبيل التقدم والمدنية ، جاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة التى حررت عدة من الأمم ، فهل تجاب إلى استغاثتها وتضرعها ؟ وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها فى العالم الإسلامى الواثق بها ؟ على أن ذكر اسم مصر عندما تكون حرة بجانب أسماء الأمم العديدة التى حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها ، فلتحى فرنسا محررة الأمم » .

وقد يبدو هذا العمل صغيراً، بل قد يبدو ساذجًا فى نظر بعض الناس لا سيما هؤلاء الذين آثروا جانب الاحتلال البريطانى . والتعاون معه ، والاعتماد عليه ، حتى من كان منهم عاقلا أريبًا ، محبًّا لمصلحة وطنه راغبًا فى تقدمها ، ولكن بما يتفق مع العمل . وبما لا يصادم الواقع القائم . هؤلاء قد يحسبون تقديم ورقة ملونة عليها أبيات من الشعر الساذج عبث أطفال ؛ فلا رئيس مجلس النواب الفرنسى يحتفل به ، وإن احتفل به فهو لا يملك شيئًا من أمر السياسة فى بلاده ، التى تحكمها صلات الأحزاب بعضها ببعض ، ومصالح الدول الكبرى ؛ ولكن الواقع غير ذلك ، ففى تاريخ الثورات والحركات التحررية تكتسب حركات صغيرة ، وتطورات ثانوية ، قيمة كبرى . ولقد ضرب لنا القرآن مثلا إذ جاء فى سورة البقرة : « ولا تقولوا راعنا بل قولوا انظرنا » . فالمسلمون حينما يوجهون القول إلى النبى عليه السلام يقولون : « انظرنا » ، والمشركون يقولون « راعنا » ، والقرآن يحتفل بالنص على اللفظين وهما مجرد لفظين ، لأن كلاًّ منهما يمثل موقف قائله من رسول الإسلام ،

عليه الصلاة والسلام . وفى الثورات قد يؤثر فى اتجاه الأحداث رفع مزقة من قماش فى النفوس ، فيتخذ الثوار منها علماً ، ويبعث العلم حرارة وشجاعة فى القلوب ، فيندفع الناس أقوى نفساً وأثبت جأشاً » .

كذلك فعلت هذه اللوحة فى الميدان الدولى وفى مصر ، فقد علقت على تقديمها من جرائد فرنسا العتيدة « الجولوا » فأصبحت موضوع الحديث فى كل أنحاء فرنسا ، ولا نخطئ إذا قلنا فى كل أنحاء العالم . فقد قالت جريدة (الجولوا) : إن العمل فى ذاته جليل ، وهو يعد بمثابة تاريخ لظهور الأمة المصرية بمظهر الأمم الحية التى تشعر بكرامتها وأنها لايصح أن تكون كمية مهملة » .

أما جريدة «أكسترا جيلاط» فقد قالت : « الظاهر أن فى مصر جمعية كبيرة تعمل لإنقاذ الوطن ، وأن مصطفى كامل موفد من قبلها . وقد كان أول عمل له هو تقديم عريضة لمجلس نواب فرنسا . . » وتختم قولها بعبارة قالت فى ختامها : نهنئ مصطفى كامل من صميم فؤادنا على عمله هذا ونرجو له التوفيق هو وإخوانه فى هذا العمل الوطنى العظيم » . أما جريدة برلينر تاجبلاط الشهيرة فى ألمانيا فقد قالت : « يظهر أن المصريين متألمون كثيراً من أعمال الإنجليز فى مصر ، وأن توغل الاحتلال الإنجليزى فى بلادهم علمهم كيف يكونون رجالا » .

وقالت جريدة « دى روما » ذات المكانة الرفيعة فى إيطاليا كلاماً فى هذا المعنى . أما جرائد فرنسا ، فلا تسأل عن سرورها وترحيبها بهذه العريضة ، كأنها كسبت معركة ضد الاحتلال البريطانى وضد بريطانيا التى تسابق فرنسا فى الحلبة الاستعمارية وتسبقها ، فقد صدر من هذه الصحف ما يشبه غناء جوقة الإنشاد تنافست فيه الطان ، الديبا ، الربيليك فرنسيز ، الفيجارو البتى جورنال ، السولى ، الإنترفسيجان ، الراديكال ، الفيرتيه ، السيكل ، الماتان ، الباترى ، فرانس ، الليبرتيه .

فقل لى بربك، أى نجاح يمكن أن يطمع فيه سياسى متمرس أكثر من النجاح الذى حققته هذه اللوحة بهذه السطور القليلة ، بهذه الأبيات الشعرية الثلاثة . وقد ترددت أصداؤها فى العالم ، وأسقطت عن مصر معرة قبولها الاحتلال واستنامتها له ، وأهدرت حجة الإنجليز من أن احتلالهم محل رضاء الشعب ، وأنه يحقق للمصريين الأمن بعد الاضطراب ، والتقدم بعد التخلف بدليل سكوتهم جميعاً على وجوده، ولكن أهم من هذا كله ما أثارته أقوال صحف العالم فى مصر ، وشعب مصر . فلقد قرأ المصريون ماكتبته صحف العالم عن هذا الصوت الذى انطلق يدافع عنهم فى المحافل ، فأدركوا أنه صوت مسموع وموفق ، وأنه بالجهد الضئيل يحقق النجاح الضخم ، دون أن يكلفهم مليماً ولا جنيهاً ، ودون أن يقتضيهم جهداً ولا نصباً . زادت الآمال فى نجاح العمل الوطنى ، وقل أنصار الاحتلال ، بقدر ما يتخرج من طلاب المدارس العليا ، وبقدر ما يدخل هذه المدارس والمدارس الثانوية ، فهؤلاء جميعاً كانوا أنصار هذه الحركة الجديدة لأنهم لم يشهدوا عهد إسماعيل ،ولم تصدمهم هزيمة الثورة العرابية ، ولأنهم قرأوا شيئاً عن الثورة الفرنسية والثقافة الأدبية الحديثة القائمة على مبادئ ثورة ١٧٨٩ فى باريز .. وهؤلاء كان منهم المحامى والمدرس والقاضى والطبيب والصحفى والموظف فى مختلف الوزارات والمصالح ، فى القاهرة وفى الريف فأذاعوا فى محيطهم ذى الأهمية الكبرى . روح الحركة الجديدة وأحسنوا الحديث عنها ، ودافعوا عن القائم بها ومدحوا صفاته ، وهزأوا بالاحتلاليين الذين كانوا يجدون فى الماضى القريب جواً مشجعاً ومرحباً ومؤيداً . وقد أكد نجاح هذا العمل الصغير ما قالت صحف بريطانيا ، وكان قول جريدة ذى ستنادارد نموذجاً له :

« ظهر بين المصريين رجل مهيج يدعى أنه مصرى ، والحقيقة أنه تركى ، وقد كان أبوه موظفاً فى سراى الخديو . قدم هذا المهيج المغرور

استنجاداً لفرنسا من الاحتلال . ونسى ما عليه إنجلترا من القوة والحق في احتلال مصر ، ويظهر أن المصريين ناكرو الجميل لأنا أحسنا إليهم ، فعلمناهم بعد أن كانوا أنعاما ، ونظمنا جيشهم وأحسنا أحوالهم المالية ، فالرأى العام الإنجليزى لا يلتفت إلى هذا الهذيان الذى يدل على أن يداً كبيرة تحركه ضد إنجلترا صاحبة الحول والطول .

« وإننا ننذر هذا المصرى وغيره إنذاراً أخيراً بأن الدول الأوربية جميعاً ترى مصلحتها فى بقاء الاحتلال ليضمن لها مصالحها ، لأن المصريين ليسوا أكفاء لهذا العمل » .

حقاً إن من يعمل ضد الحرية كمن يعمل لها ، فإن كلمات «الاستاندارد الإنجليزية» كرمت به المناضلين ضد الاحتلال ، ورفعت من شأن مصطفى كامل . وأضفت على خطوته البسيطة جلالا وهيبة ، فهذه جريدة إنجليزية وقور ، والإنجليز مشهورون بالبرود وضبط النفس ، وبعدم الانفعال والغضب فى المناقشات ، فما بالها خرجت عن تقاليد شعبها وسبت مصطفى وكذبت فى حقه أكاذيب مفضوحة عند كل المصريين ، فمصطفى كامل مصرى تفيض تقاطيع وجهه بالمصرية . وهو ابن موظف صغير ، وهو آخر الأمر شاب لا حول له ولا طول ، وليس فى جيبه من المال إلا مايقيته . إذن مصطفى على صغر سنه وحداثة عمله قد أوجع الإنجليز وأطار صوابهم ، فهو بالتالى أهل للتأييد والإعجاب .

أما السطور التى كتبها مصطفى فى رسالته لرئيس مجلس النواب ، فسنعود إليها فى موضع آخر ، ولكنا فى هذا المكان نحب أن نشير إلى هذا التوازن العجيب الذى تتسم به هذه السطور ، فقد عرف كيف يرضى كبرياء فرنسا ، دون أن يسرف فى التواضع ، ففرنسا محررة الأمم ، ولكن تحرير مصر فخار لا تملك دولة أن تهمله فتضيع على نفسها شرفاً . ومصر وإن اعتصمت بالصبر وبعدت عن العنف فإن الصبر ثقل عليها ،

وفى هذا من التهديد البعيد والخفى معاً : ما يحرك اهتمام الدول وإنجلترا بالموقف فى مصر ، إذ ينذر بأنه قابل للانفجار إذا طال إهماله . وفى هذا ما يحقق رسالة مصطفى كامل من بعث الحب لمصر والكره للاحتلال وبعث الأمل فى إجلائه والخلاص منه .

ضربة معلم

ولم يمض إلا بضعة أشهر حتى وفق مصطفى إلى ضربة من تلك الضربات التى يسمونها فى الفرنسية « coup de maitre » ضربة معلم ، فقد أرسل فى ٢ يناير سنة ١٨٩٦ رسالة إلى رئيس وزراء بريطانيا السابق « جلادستون » يسأله عما إذا كان باقياً على موقفه من وجوب جلاء بريطانيا عن مصر وعن تمسكه بالوعد بهذا الجلاء . . . وجلادستون إن كان قد جاهر فعلا ومراراً بأن مصلحة بلاده كائنة فى جلاء جيوشها عن مصر ، وأنه حاول تحقيق هذا الجلاء بالاتفاق مع وزير خارجية فرنسا « وادنجتون » فإنه فى الواقع كان حريصاً على هذا الاحتلال ، ولذلك فإن إحراجه واستخلاص تصريح منه ضد الاحتلال أمر ممكن ، فإن تصريحاً منه ضد الاحتلال سيبعث أملا قوياً فى نفوس المصريين ، ويسبب إحراجاً للاحتلال ورجاله فى مصر ، فيترك دوياً فى محافل السياسة العالمية ، وقد تحقق هذا كله ، ففى ١٤ من يناير سنة ١٨٩٦ أرسل جلادستون السياسى الشيخ العتيد ذو المكانة الرفيعة فى بلاده وخارجها إلى الشاب المصر المبتدئ المجهول تقريباً بقول صريح اللفظ :

سيدى العزيز :

إنى أستحسن ما فهمته من إحساساتكم نحو بلادكم باعتبار كونكم مصرياً ولكنى مجرد من كل سلطة .

« أما آرائى فلم تتغير قط ، وهى دائماً أنه يجب علينا أن نترك مصر بعد أن عملنا فيها بكل شرف ، ولفائدة مصر نفسها العمل الذى من أجله دخلناها .

إن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين .

ولما كنت فى منصبى أخيراً رجوت مساعدة الحكومات الأخرى توصلا إلى تسوية هذه المسألة المهمة . والسلوك الذى اتبعه مسيو وادنجتون (وزير خارجية فرنسا) فى عام ١٨٩٢ شجع أملى ، غير أن الحادثات لم تخط خطوة واحدة مع عظم ما أملنا إذ ذاك ، ولست أدرى لأى سبب » .

وفى رأيى أن هذه الرسالة كانت قفزة بعد لوحة ٤ من يونية سنة ١٨٩٥ المقدمة إلى رئيس مجلس النواب الفرنسى ، والتى أثارت ما أثارت من اهتمام وتعليق ، على ما رأينا . . . فمصطفى كامل ، المجاهد المصرى ، الذى يعمل وحيداً ، والذى لا يمده شعبه إلا بالحب والعطف والتشجيع ، يحصل على شهادة اعتراف به « كسياسى » ذى مركز ومكانة . فهو يخاطب أولا رئيس وزراء بريطانيا ، وزعيماً من أكبر زعمائها ، ورئيس الحزب الحاكم لسنين فيهــا ، فمن جرؤ قبله من شيوخ السياسة المؤيدين للاحتلال ، واللذين يؤيدهم الاحتلال على فكرة كهذه ؟ فأية ثقة فى النفس يتمتع بها هذا الشاب ؟ . . وقد حدث شئ أكثر أهمية ، فالسياسى البريطانى العجوز رد عليه ، فتأمل أيها المصرى فى هذا وأدرك معناه ، ولا معنى له إلا أن لهذا الشاب قيمة تمثيلية . أى نيابية عن بلاده ، وهذا أكبر عناصر زعامة زعيم فى أمته .

ومعناه أيضاً أن هذا الشاب يعرف كيف يخطو ، ويعرف أين يضع قدمه . وأخيرا لقد انتزع هذا التصريح الصريح من سياسى بريطانى ، لا من صحفى غير مسئول ، ولا نائب من الأحرار الذين يوجدون فى كل بلد ، ليوزعوا على الناس الأفكار المتطرفة . والتصريحات المثيرة ربما

يصلون إلى الحكم ، فيلتزمون واجب الرزانة ، ومقتضيات المسئولية .
وأخيراً ماذا قال هذا السياسى البريطانى العظيم عن الاحتلال ؟ لقد قال :
« فى رأيى أن زمن الجلاء قد وافى منذ سنين » .

وهنا يبهت الذى كفر . إذن مصطفى كامل لا يحاول مستحيلا .
واتهامه بالطموح مع الخيال هو من قبيل الغيرة منه والكره له ، فليس هو
القائل بأن زمن الجلاء قد وافى ، بل يقوله رئيس وزراء سابق ، وصاحب
أقلية محترمة ومؤثرة فى مجلس العموم البريطانى ، وقد كان زعيم أغلبية قوية
وحاكمة لسنين .

وفى سنة ١٨٩٥ ، تكسب رسالة « أخطار الاحتلال البريطانى »
لمصطفى تأييد صحفية كبيرة وزوجة سياسى جمهورى كبير وصاحبة
« صالون » أدبى ضخم هى مدام جولييت التى يلتف حولها أعلام الأدب
والفكر الفرنسى أمثال بيرلوتى الشاعر وإرنست جوديه والكولونيل مارشان .
فمصطفى إذن لا يسير وحده ، وقد استطاع أن يجند لقضيته أقلاما
تقرأ فى بلادها وخارج بلادها ، ومن خلفها من مفكرين وصحفيين
وساسة . . وكل هذا جهد شاب ، فماذا يحدث لو تحركت الأمة
كلها ؟ ألا تتحرك مصر ؟

ولما عاد مصطفى إلى مصر ذهب فى ٣ من مارس سنة ١٨٩٦ إلى
الإسكندرية ليلقى خطبته العذراء فى المسرح العباسى . نعم إنها خطبته
العذراء ، بل لعلها الخطبة العذراء فى تاريخ الحركة الوطنية ،
والتاريخ السياسى المصرى الذى لا يذكر لنا أن اجتماعاً سياسياً انعقد فى
مصر ، بعد الاحتلال ، ليسمع المجتمعون فيه كلاماً فى علاقة مصر بالاحتلال
البريطانى والحملة عليه والدعوة إلى الجلاء ، وقد وصفت جريدة المؤيد
الحقيقة إذ قالت : إنها الخطبة الأولى التى أقدم على إلقائها شاب مصرى
غيور عرف واجب الوطن وضرورة التفانى فى حبه المقدس بعد أن مر على
الاحتلال الأجنبى أربعة عشر عاما . « ولما هم مصطفى بالعودة إلى القاهرة

قدم له أهل الإسكندرية وساماً من الفضة رسم على أحد وجهيه صورة السعف المصرى ومسلة الثغر . وكتب على الوجه الآخر هذه الجملة :

برهان الإخلاص من أهالى الإسكندرية »

« للوطنى الغيور مصطفى كامل »

وبهذه الهدية وبالتوديع الحار الذى ودع به مصطفى على محطة الإسكندرية ثبت لمصطفى أن العنصر الأول من عناصر رسالته قد تحقق : « رفض الاحتلال والأمل فى الجلاء » .

فإن الوسام الذى منحته الإسكندرية له كان تعبيراً عن تقدير جهاد مصطفى ضد الاحتلال . وعن السعى من أجل الجلاء .

من يعمل ضد الحرية يعمل لها

وفى هذه الفترة سلط الإنجليز على شقيق مصطفى كامل الضابط « على فهمى كامل » نار اضطهادهم . وقد كان فى سنة ١٨٩٥ فى « سواكن » بالسودان . وكان يتحرق للعمل مع أخيه مصطفى ، وكلما نجح مصطفى وعلا صوته ، والتفت المصريون إلى كفاحه ، ضيق الإنجليز على أخيه « على » الخناق انتقاماً من مصطفى . فدل هذا على مدى نجاح مصطفى . ورأى « على » أن يتخفف من قيود الجيش الذى كان مصريا بالاسم وبريطانيًّا بالروح وفى الواقع ، فقدم استقالته لقيادته فى السودان ، فرفض قائد الكتيبة الاستقالة وأمر باستردادها ، فلما استردها « على » أحاله الإنجليز إلى الاستيداع فى شهر نوفمبر سنة ١٨٩٥ ، ووصل إلى مصر فى ٥ ديسمبر فى السنة نفسها، ولما خطب مصطفى فى الإسكندرية ذهب « على » معه ، وحضر الاحتفال ، فطار صواب الإنجليز كل مطار ، فاتهمه الإنجليز أنه قدم استقالته وقت الحرب ، لأن بريطانيا كانت تعد آنذاك العدة لإيفاد حملة إلى دنقلة لاستردادها بعد إجلاء الجيش المصرى عن السودان سنة ١٨٨٤ . وقدموه إلى المحاكمة أمام مجلس عسكرى

برياسة « كتشنر » نفسه قائد الجيش ، وحكموا عليه بتنزيله إلى درجة « نفر » وأرسلوه مكبلا بالحديد إلى السجن . ثم نقلوه إلى السودان ليشارك فى الحرب فى واقعتى « فاركه » و « الحفير » وهو جندى بسيط ، فهيأوا له فرصة القتال مع إخوانه جنود مصر .

وكانت هذه الواقعة عظيمة الدلالة على مدى النجاح الذى حققته حركة مصطفى التى لم يكن قد انقضى على بدئها سوى سنتين اثنتين ، إذ بدأ نشر أولى مقالاته فى فبراير سنة ١٨٩٣ ، وكان اضطهاد شقيقه فى صيف سنة ١٨٩٥ . . وقد نقل الإنجليز بهذا الاضطهاد الصارخ إلى الجيش بذور الغضب القومى ، وأذاعوا اسم مصطفى بين الضباط والجنود . . وزاد من عطف المصريين على مصطفى وعلى أخيه . فإن الشعور دائماً هو زاد الحركة ، كما قال مصطفى بحق .

ولما خطب مصطفى فى ١٣ أبريل سنة ١٨٩٦ ،وفى مدينة الإسكندرية أيضاً ، كانت خطبته هذه المرة بالفرنسية ، وقد حضرها الأجانب من صحفيين وأعيان الجاليات الأجنبية . وكان التكلم بلغة أجنبية فى مصر ، فى ذلك الحين ، شهادة للمتكلم بأنه متعلم ومستنير ، لعظم مكانة الأجانب فى مصر وتملكهم العقارات والمصارف والشركات ولشمولهم بالرعاية من جانب الاحتلال ، فلما خطب مصطفى بالفرنسية ثم جاءت خطبته فى الوطن وحق مصر فى الاستقلال ، زادت ثقة الشعب فى الزعيم الشاب ، وأدركوا أنه كفء للمهمة التى ندب نفسه لأدائها ، فلما جمع خطبه فى سنة ١٨٩٥ — ١٨٩٦ وطبعها راجت رواجاً كبيراً ، فطبع منها وبيع نحو ١٥ ألف نسخة ، وكان ذلك الرقم آنذاك كبيراً ، وجنى منها مصطفى ربحاً مادياً لا بأس به ، أسعد المكافح الشاب ، لأنه كان دليلا ملموساً على أن صلته بالشعب قد انعقدت وتوثقت ، وعرف كل منهما صاحبه ، فالإعجاب اللسانى شائع وذائع فى البلاد المنكوبة بحكم الأجانب ، أما الإعجاب المصحوب بالحركة والذى يحمل الإنسان على أن يسعى لاقتناء

كتاب الزعيم ، ويدفع فيه ثمناً، هذا الإعجاب الذى تجسد عملا ظاهراً كاى قليل الحدوث .

واسنا نود بطبيعة الحال أن نتابع نشاط مصطفى كامل الدعائى والسياسى ، عملا عملا ، ورحلة رحلة ، وخطبة خطبة ، ولكننا نود أن نستخرج من هذا النشاط الواسع النطاق المتنوع المستمر المتجدد ، معالمه الكبرى ، ولذلك لا بد أن نمر على ما صدر من نشاط مصطفى سنتى ١٨٩٦ و ١٨٩٧ على احتشاد الأعمال والخطب والاتصالات والأسفار فيهما ، ونقف قليلا أمام سنة ١٨٩٨ المعروفة بسنة « فاشودة » ، ونحن نمنح هذه السنة التفاتاً خاصًّا إذ كانت من السنين العجاف التى امتحنت خلالها الحركة الوطنية امتحاناً قاسياً ، فقد حدثت واقعة فاشودة التى انسحبت فيها السياسة الفرنسية أمام السياسة الإنجليزية فى أعالى السودان ، ولم تقو على مناجزة الإنجليز ، ولم يتحقق ما أمله الوطنيون من فتح ملف قضية وادى النيل ، وتزاحم القوى الاستعمارية وتطاحنها حوله مما يؤدى إلى الضغط على بريطانيا لحملها على الجلاء باعتبار أن الاحتلال البريطانى ضربة قاصمة لمصالح هذه الدول يهددها فعلا ويزداد خطره على مر الأيام .

والزعيم ليس هو الموقظ للهمم والداعى إلى القتال فحسب ، بل هو المثبت للعزائم عند الهزائم ، فالتخلف عن النزول إلى ميدان القتال ، عند الوقت المناسب ، كارثة للأمة ؛ ولكن الكارثة تستفحل وتشتد إذا نزلت الأمة إلى القتال وهزمت ، فخارت عزيمتها وضعف احتمالها ، وآثرت الفرار على مواصلة القتال ، ولذلك كان فرح خصوم الحركة الوطنية المصرية وأعداء مصطفى عظيماً بحادثة فاشودة ، فظنوا أن صوته سينخفض وعزمه سيفتر وأنصاره سينفضون من حوله حينما يثبت لهم أن فرنسا التى أوهمتهم أنها جديرة بمنازلة الإنجليز وبالضغط عليها ليتركوا مصر أضعف من أن تحقق مما ادعته شيئاً ، لقد ثبت مصطفى كامل ثباتاً قويًّا وضاعف قواه،

ووسع من نطاق نشاطه . وقد عبر عن هذه المعانى كلها ، إذ خطب فى ٢٣ من ديسمبر سنة ١٨٩٨ ، فى « التياترو الإيطالى » فى الأزبكية بالقاهرة . وقد قال فى هذه الخطبة قولته التى أصبحت شعاراً للوطنية المصرية وعلماً على جهاده إذ قال : « لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس من الحياة ». لقد حمل على الاستسلام فى هذه الخطبة حملة ضارية ، لأن الميل السائد وقتذاك هو الميل إلى الاستسلام أمام انتصارات الاحتلال وهزائم الوطنيين ، فقال : هل بالاستسلام وتسليم الأوطان تقابلون نعمة الله عليكم بمصر وهى جنة الأرض وأبدع البلدان ؟ وهل يليق بكم وأنتم سلالة أشرف الأمم أن ترضوا بهذا الهوان وتقبلوا هذه المذلة وأنتم صاغرون ؟

لقد بالغنا فى الاستسلام وأبدعنا فيه كل إبداع ، وما جنينا إلا الخيبة والفضيحة والعار ؟ » .

ثم قال : « وإذا ألقى الخطيب النصيحة على قومه ظن كل إنسان أن النصيحة موجهة لغيره لا له ، فيقول : « لقد أصاب الخطيب ، ولكن الأمة ميتة . فمن هى الأمة ؟ ألستم من أعضائها وأهم أعضائها ، أو ليست الأمة هى الفرد متكرراً ، فإذا قام كل واحد بواجباته ، وأصلح المعوج من أموره صلحت أحوال المجموع ، وردت على الأمة حريتها وسعادتها ، ولبس الوطن ثياب الحياة والقوة » .

جملة القول أن مصطفى بدا وقت المحنة والانكسار واثقاً من نفسه ، واثقاً من المستقبل ، داعياً إلى تجديد القوى ، وتقوية العزم ، فاشتعلت من قلبه الكبير قوة تدفقت إلى شرايين أعوانه وأنصاره .

وبلغ من قوة هذه الخطبة وقوة أثرها ، أن بعض صحف الاحتلال الصادرة باللغة الفرنسية كما قلنا آنفاً قد اتهمت مصطفى بأنه يدبر مع طلاب المدارس العليا ثورة ضد النظام . والحق أن الوقوف فى وجه روح الهزيمة كانت ثورة ضد النظام ، ذلك لأن النظام البريطانى ذا الوجه المصرى كان قائماً

على تثبيت اليأس فى قلوب المصريين وتخديرهم بحيث يفرحون بالقليل الذى يجود به هذا « النظام » من مدارس تفتح ، وجسور تشاد ، وإصلاحات فى الرى تجرى . وقد نجحوا أول الأمر فى هذه العملية القاتلة ، وما لبث المصريون ، أو أكثرهم ، أو قل الجيل الجديد منهم ، أن يدرك أن كل ما تفعله بريطانيا فى عشرة أعوام من هذا القبيل كان يجرى أضعافه حتى فى عهد مضطرب كعهد إسماعيل فى عام واحد .

مدرسة وصحيفة

وفى مارس ١٨٩٨ أنشأ مصطفى كامل المدرسة المسماة باسمه ، أو تولى إدارتها ، وقد كانت نموذجاً للمدرسة الوطنية مع قلة موارد مصطفى المالية وكثرة أعبائه ، وتعدد أسفاره وانشغال باله بمكايد السياسة المقامة فى طريقه من الإنجليز وأعوانهم دائماً ومن الخديو أحياناً ، ومن ضعف إخوانه وأنصاره أحياناً أخرى ، فإذا كانت سنة ١٩٠٠ ، وكان الثالث من يناير ظهر « اللواء » اليومى . لواء الحركة الوطنية التى تكسب كل يوم مزيداً من القوة والعزم وحسن التنظم . وإصدار جريدة يومية فى تلك الأيام فى مصر كما هو الحال فى بريطانيا أو الولايات المتحدة ، عمل شاق ومرهق ، ومكلف . إن جريدة يومية فى أمريكا تحتاج حسب تقرير لجنة من لجان الكونجرس الأمريكى من مليونين إلى ثلاثة ملايين دولار ، وفى انجلترا حسب تقرير إحدى اللجان الملكية تحتاج إلى نصف مليون جنيه ، وإلى جانب المال هناك الحاجة إلى جهد وسهر ، وعمل وتنظيم وإشراف . الجريدة مصنع ومتجر ومعهد ، والجريدة مال وإدارة واتصال متعدد الأساليب ومتنوع الغايات ، ولذلك لم يستطع حزب فى مصر أن يملك جريدة يومية ناجحة بعد جريدة اللواء . فأكبر الأحزاب فى مصر ، عقب ثورة سنة ١٩١٩ ، وبعد أن زاد عدد المتعلمين ، وتضاعف اهتمام

المصريين بالشئون العامة ، لم يستطع أن يملك جريدة ناجحة يديرها وينفق عليها ، والجرائد الحزبية الأخرى بقيت مزدهرة حيناً ، ثم استمرت تكافح حيناً آخر بفضل ثراء رئيس الحزب وثراء كبار أعضائه ، ثم خرجت من عداد الصحف اليومية الكبيرة .

لذلك كان صدور جريدة اللواء عملا سياسيا ووطنيا عظيماً آنس المصريين وأسعدهم ، إذ كان مصطفى كامل يطالعهم عن طريقها كل يوم بمقال فى شئونهم العامة ، ثم عرفوا عن طريقها عدداً من أحسن الأقلام المصرية والعربية ، قدرة وعلماً وصلابة . أصبحت اللواء قلعة من أكبر قلاع الوطنية ، واستظل بها المصريون ، فقوت صفوفهم ، وثبتت عقائدهم ، وعلمت أجيالا جديدة كان يمكن أن تسقط فى أيدى دعاة الاحتلال ، أو دعاة المهادنة والاعتدال ، وحضرت الشعب لأدوار من الجهاد السياسى والاجتماعى العلنى والسرى ، العملى والقانونى ، فى مصر وفى الخارج ، فكان من ثمار هذا التحضير العمل الجاد الذى تم بزعامة محمد فريد، والثورة التى فاجأت الناس فى مصر وفى خارجها سنة ١٩١٩ ، فإذا جاءت سنة ١٩٠٦ ووقعت حادثة « دنشواى » ، التى فقد فيها الإنجليز عقلهم ، وأعدموا أربعة من الفلاحين المصريين ، وحكموا بالأشغال الشاقة على واحد وبالأشغال الشاقة المؤقتة على ثلاثة ، وحكموا على أكثر من عشرة بالجلد ، كل ذلك مقابل وفاة ضابط من جرح بسيط فى رأسه ، ضاعف أثره عدوه فى الشمس المحرقة ستة كيلومترات من الخوف والعطش .

دنشواى فى يد مصطفى وقلمه

ولقد استطاع مصطفى كامل بأسلوبه ومثابرته ونشاطه ، أن يظهر هذا العمل فى حجم يزيد على حجمه كثيراً ، وبصورة أفزعت الرأى العام العالمى ، وأربكت الرأى العام البريطانى ، وأشعرت المصريين أن زعيمهم وضع الاحتلال البريطانى فى قفص الاتهام ، ووقف أمامه يندد به ، ويكيل له الضربات ، ويصفه بأقبح النعوت ؛ مع أن ما كان يجرى كل يوم فى بلد عربى ، كالجزائر ، أو بلد شرقى كالهند ، دع عنك ما يجرى فى مستعمرات إفريقيا السوداء الشرقية والغربية على السواء يزيد أضعافاً مضاعفة على حادثة دنشواى ، وقد ظهر هذا جليا عند ما رفع الستار عن فظائع الاستعمار الفرنسى فى الجزائر ، فقد حدثنا الفرنسيون الأحرار عن فظائع حرق قرى بأسرها ، بأسلوب عرف باسم « الجحيم » ، وانتهاك حرمات المساجد ، وإبادة المزارع ، وسم المواشى ، كما حدثتنا حوادث « البنجاب » التى وقعت فى ثورة الهنود عقب الحرب العالمية الأولى عن فظيعة « أمر تسار » ، وهى حادثة إذا قورنت بها حادثة دنشواى بدت لطفاً ورحمة وإنسانية ؛ ولكن مصطفى كامل أتيح له أن يخطب من منابر تسمع ، وأن يخاطب الضمير العالمى بكلام يقرأ ، وأن يواصل حملته بحماسة وهمة تؤثران وتكسبان العطف ، وقد كان الأثر الأول لهذه الحملة الناجحة أن ما كان يقال عن انفصال الريف عن القاهرة وعن اقتصار حركة مصطفى كامل على المدن الكبرى وحدها سقط نهائيا ، فاسم مصطفى كامل كان على لسان الفلاحين المصريين فى قراهم وعلى مصاطبهم قبل حادثة دنشواى ، فجاءت هذه الحادثة مجرد تأكيد للعلاقة والارتباط بين الزعيم الشاب وأهله فى القرى وعلى شطوط الترع والمساقى وفوق النوارج والمحاريث . فقد انطلق الشعر الشعبى ينظم أزجالا ومواويل يبكى فيها

ضحايا دنشواى ويشيد بمصطفى باشا « ووجفاته » أى « وقفاته » ، وكانت حادثة دنشواى مظاهرة وطنية من الطراز الأول حضرت للمظاهرة التى تليها ، وهى مظاهرة تشييع جنازة مصطفى كامل نفسه ، وفلاحو دنشواى يحملون نعشه ، وألوف المصريين يقفون على جانبى الطريق ، وفوق أسطح المنازل وفى النوافذ والشرفات متشحون بالسواد ، فى حزن مصحوب بالعزم والإصرار ، قاماتهم مشدودة وعيونهم لامعة وصرير أسنانهم يسمع :

إلهام الحب

وبهذا يكون القسم الأول من الرسالة قد أدى على أحسن وجه .

أما جانب إثارة حب مصر فى القلوب ، الحب الفعال المنتج المؤثر ، حب التضحية والبذل وإنكار الذات ومجاهدة الخصوم والإيمان بالمزايا والمحاسن ، فقد أدى كما لم تؤد رسالة وطنية فى تاريخ سابق أو لاحق .

ذلك لأن مصر بتاريخها الطويل ، وما شهدته من حضارات ورسالات وأنبياء وقادة ، وما مر بها من أحداث رائعة ومواقف فذة ، تلهم الحب والإعجاب والتقديس للملايين ممن لا ينتمون إليها بالدم والمولد ، فما بالك بواحد من أبنائها ، وهبه الله إحساساً غاية فى القوة والنفاذ ، وعاصفة لا ينفد لها اتقاد ولا تنطفىء لها جذوة ، وخيال فسيح مترامى الآفاق . لذلك أتيح لمصطفى كامل أن يقول فى مصر ، وفى حبها وفى أمجادها وعظمتها ومزايا موقعها وجلائل تاريخها ، ما لم يقله شاعر بالعربية أو بأية لغة أخرى فى شىء أو شخص ملك على القائل لبه وعواطفه . وقد صاحب هذا الحب مصطفى منذ صباه وعبر عن نفسه فى كل ما خطه قلمه أو نطق به لسانه .

ولعلنا محتاجون أن نعود إلى رسالته الأولى إلى مدام جولييت آدم التى أرسلها لها فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥ فقد كانت قصيدة من الشعر ، إذ قال :

« إنى لا أزال صغيراً ، ولكن لى آمالا كباراً ، فإنى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة ، وهم يقولون إن وطنى لا وجود له ، وأنا أقول ياسيدتى إنه موجود وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه ، وسأجود فى سبيله بجميع قواى وأفديه بشبابى ، وأجعل حياتى وقفاً عليه » .

انظر إليه يقول إن الناس تنكر أن لوطنه وجوداً . يقولون له إن مصر أصبحت عدماً ، إن هذه المعابد والهياكل ، والأهرامات والمساجد ، وما طوته صحائف الكتب من أنباء عظمة ماضيها كلها أشباح تبدو على حائط ، ولكنها لا تمثل من الحقيقة قليلا أو كثيراً ، كل ذلك أصبح ماضياً : ماضياً مندثراً ، وليس لدى مصطفى كامل إلا حجة واحدة ، تثبت بطلان كل ذلك، تلك هى محبته التى لا نهاية لها لمصر ، وما دام يحبها فهى موجودة ، فليس ثمة قوة أعظم من الحب ، يخلق من العدم ، ولا يصدق المشككين ، ولا يتأثر بدعاوى الخصوم الكارهين .

وبهذا الحب مضى مصطفى يحارب كل أعدائه وأعداء بلاده . وبه وفى ضوئه بذر فى قلوب شعب فتى بذور حبها والهيام بها والفناء فيها .

وقد تحدث هو نفسه عن هذا الحب فقال إن روحى تتغذى من حب الوطن ، وبغيره لا أستطيع الحياة ، إذ لا قيمة للحياة بغير هذا الحب الرائع الذى يفيض على المرء كل سلوى وكل سعادة حتى فى شقائه وبخاصة فى الشقاء ، إذ لا يجد الإنسان القوة والأمل إلا فى هذا الحب :

ومن هذا الحب ، استوحى هذه الكلمات التى جرت على الألسن فى حياته وبعد مماته أغانى وأناشيد :

« بلادى بلادى ، لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يامصر » .

« هل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر مهما أحبها فلا يبلغ

الدرجة التى يدعو إلى جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها ، ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوا فيها ، واقرأوا صحف ماضيها واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض ، هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً ، وأسمى شأناً ، وأجمل طبيعة ، وأجل آثاراً ، وأغنى تربة ، وأصفى سماء ، وأعذب ماء ، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟ اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا ، وأن شعباً يسكنها ويتوارثها أكرم الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح فى حقها وسلم أزمتها للأجنبى » .

إن مصر جديرة بأن تحب بكل قوة وكل عاطفة ، بكل جارحة ، بكل نفس ، بكل حياة ، ولا عجب إذا وقف من لا يعرف هذا الحب مبهوتاً أمام من يعرفونه » .

« قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصرى مما لا يليق بإنسان ، ولكن أى شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التى سبقت الأمم فى كافة العلوم والمدنية والأدب ؟ أى رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذالشعوب البشرية ومربى العالم كله ؟ » .

« لو تخطفنا الموت من هذه الديار ، واحداً بعد واحد ، لكانت كلماتنا لمن بعدنا ، كونوا أسعد حظا منا ، وليبارك الله فيكم ، وليجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بحق الوطن فى الحرية والاستقلال المقدس » .

ولما كان حب مصطفى كامل حبًّا صادقاً فقد أحب من أجل مصر كل العاملين فى سبيلها ، الأموات والأحياء ، عمل على إحياء ذكرى من من ماتوا ، والأخذ بيد الذين على قيد الحياة ، ولم يفرط فى حق أحد من النابهين ، ولو لم يكن من اتباعه ولا من أنصار حزبه .

أتت ذكرى على باشا مبارك ، فكتب مصطفى كامل فى عدد ١٠ من مارس سنة ١٩٠١ باللواء :

« لا شيء يرفع مقام الوطنية فى بلاد مثل إحياء ذكرى الرجال الذين أخلصوا فى خدمتها ، وقضوا أعمارهم فى العمل لإعلاء شأنها وتحقيق آمالها ، ولا شيء يميت الوطن والوطنية مثل تمكن داء النسيان فى أمة وجهلها تاريخها ، وعدم تقديرها للرجال المخلصين فى خدمتها . وقد بليت هذه الأمة العزيزة بذلك الداء العضال ، فتراها لا تذكر الرجال إلا إذا كانوا القابضين على أزمة أمورها ، أو المحركين لحركة الرأى العام فيها ، ولا تهتم بالحوادث إلا عند حدوثها . فليس للمصائب فى نفوس أبنائها أثر يبقى وليس كذلك للعظمة الباقية فى الأفئدة والضمائر » .

وتحدث عن اللجنة التى أنشئت لتخلد ذكرى على مبارك والتى جمعت بعض المال لهذا الغرض فقال :

« ماذا قررت اللجنة المكلفة إخراجه إلى الوجود ؟ هل ذهبت من النفوس محبة فقيد المعارف ؟ أم محت الأيام فضله ، وقضت على عمله حتى نسى ونسيت آثاره ؟ » :

ودعى للاحتفال بافتتاح مدرسة المرحوم مصطفى بك الشوربجى المجانية فى بلدة « بريم » بمحافظة البحيرة فقال :

« قال القائلون وردد المرددون : إن المصريين اتفقوا على ألا يتفقوا ، وسرت هذه الكلمة فى الأمة وتناقلها الصغير عن الكبير ، وشرحها فلاسفة السوء ، واعتقد الكثيرون صحتها حتى أخذ القوم يتساءلون عن مبلغ هذه الأمة من القوة والحياة ، يتساءلون إلى المجد والارتقاء سائرة أم إلى الموت والفناء هاوية ؟

« فأجيبهم يامن رفعت للعلم والوطن مناراً عالياً ، أجيبهم بأن المصريين اتفقوا على أن يتفقوا ، وأن جمعية العروة الوثقى فى الإسكندرية ، وجمعية المساعى المشكورة فى المنوفية ، والجمعية الخيرية الإسلامية فى أنحاء

القطر ، تنادى بأن فى الأمة رجالا أحياء ذوى همم عالية وعزائم صادقة ».

ويلاحظ أنه لم يكن لمصطفى كامل يد فى إنشاء هذه الجمعيات التى ذكرها ، وأن بعض المشرفين على واحدة منها على الأقل كانوا خصوماً سياسيين له ، ولكن ذلك كله لم يمنعه من أن يثنى عليها ، ويتخذ من وجودها وقيامها دليلا على قيام روح الاتحاد والتعاون بين المصريين على عكس ما يروج خصومهم ، وقد جرت عادة الزعماء فى كل زمان ومكان — إلا ما كان استثناء لا يقاس عليه — أن يحاربوا أو على الأقل يتجاهلوا الأعمال التى تمت بعيداً عنهم ، وعلى غير يد أنصارهم وأتباعهم ، وإن كانت مجيدة وعظيمة ، وقد تجاهلت بعض الأحزاب بنك مصر طويلا ، وكانت تودع أموالها فى المصارف الأجنبية ، لأن طلعت حرب الداعى إلى البنك ومنشئه لم يكن يبدى لزعمائها من الولاء القدر الذى يرضى تلك الأحزاب .

وكما دعى مصطفى كامل للاحتفال بذكرى على مبارك ، وكما أشاد بعمل مصطفى بك الشوربجى الذى أنشأ مدرسة مجانية ابتدائية فى قريته ، دعى للاحتفال بذكرى محمد على ، بمناسبة مضى مائة عام على توليه عرش مصر ، واتخذ من هذه الذكرى مناسبة يذكر فيها المصريين بالأمجاد المدنية والعسكرية التى تمت فى هذا العهد والتى تدل على حيويتهم ، وعلى استعدادهم العقلى والروحى للتقدم والعطاء الحضارى . وقد بدأ حملته للاحتفال بهذه الذكرى بمقال فى « اللواء » يوم ٣ من فبراير سنة ١٩٠١ فقال : خير الأعياد عند الأمم عيد يذكرها بانتقالها من الظلمات إلى النور ، وخروجها من الجهالة إلى العلم والحضارة ، وارتقائها فى سبيل الحياة العالية ، وارتباطها بعائلة أجلستها على العرش بإرادتها » . . ثم قال فليتفكر المفكرون فيما يجب على هذه الأمة عمله اعترافاً بفضل محييها ، وإجلالا للوطن نفسه الذى نهض فى عهده نهضته الكبرى ، ووثب بين الأوطان وثبة الأسد القاهر :

وفى ٢١ من مايو سنة ١٩٠٢ أقام مصطفى كامل احتفالا بمسرح زيزنيا بالإسكندرية ألقى فيه خطاباً من خطبه الباقية ، كان من أهم ما جاء فيها :

« وأين كانت اليابان يومئذ ، فى عهد نهضة مصر فى بداية القرن التاسع عشر ؟ أين كانت هذه المملكة الناشئة ؟ كانت فى دياجى الظلمات ، وغياهب الجهل بعد أن ذكرت فى عداد الأموات ، فقف أيها المصرى فوق أطلال التاريخ ، وارقب الحوادث ، وانظر إلى أى حال صارت اليابان ، وإلى أى حال صرنا ، وماذا كنا نبلغ من الشأو والتأن لو سلكنا ذلك السبيل الذى وجهنا إليه محمد على الكبير » .

والمقارنة التى عقدها مصطفى كامل بين مصر فى أول القرن التاسع عشر وبين اليابان لفتة ذهنية بارعة ، فالمصريون كانوا شديدى الإعجاب باليابان فى تلك الأيام ، وكان تقدمها الحضارى ، وتزايد قوتها الحربية والبحرية ، وحساب الدول العظمى لها أعظم حساب يزيد إعجابهم ، ولا شك أنه مما كان يقوى الأمل عند المصريين فى إمكان العودة إلى القوة التى تمتعت بها بلادهم فى السنين الأولى من القرن التاسع عشر أن يكونوا قد سبقوا اليابان إلى الحضارة وإلى القوة العسكرية فى البر والبحر ، فإنها شرقية مثلهم ، كانت آنذاك آية فى التخلف والضعف والانزواء بين الدول ، وبالجملة هو لا يضيع فرصة مقارنة أو ذكرى أو عبور حادث أو موت عظيم أو وقوع كارثة أو تحقق انتصار ، إلا واتخذ من ذلك كله المناسبة ، ليثير فى قلوب المصريين الإعجاب بوطنهم ، والأمل فى مستقبله وتقديمه على سواه من الأمم والشعوب حتى التى سبقته فى الأيام الأخيرة إلى مكان الصدارة ، لا لعيب فيه ، وإنما لتقاعس أبنائه ، وتباطئهم وتكاسلهم فى أداء الواجب نحوه .

ولقد كان لا يضيع فرصة الثناء على مصرى حقق أى نجاح فى أى مضمار أو مجال ، أو أظهر كفاءة ، أو حل محل أجنبى إلا وأظهرها ،

ولو كانت صلته بهذا المصرى ضعيفة أو مقطوعة ، أو كان من غير المطبوعين بطبعه ، والمتأثرين بمنهجه ، من ذلك ما كتبه عن طلعت حرب ، فقد قرظ كتابه فى « تربية المرأة » فى ١٠ من يناير سنة ١٩٠٠

ولما عين مديراً لشركة العقارات المصرية وشركة امبو خلفاً ليهودى مصرى هو عاداه بك كتب عنه فى ١٠ من يوليو سنة ١٩٠٥ قال :

« من الأشياء التى تسر كل مصرى ، يحب بلاده ، وأبناءها العاملين ما يكون منها شاهداً على كفاءة المصرى فى الأعمال الجسيمة وتقدير الأوربيين له حق قدره ، فإن حضرة المقدام العامل محمد طلعت حرب بك مدير قلم قضايا الدائرة السنية سابقاً هو أول مصرى نقدمه اليوم للقراء انتخب مديراً لشركتين عظيمتين هما شركة العقارات المصرية وشركة كوم امبو ، خلفاً لحضرة عاداه بك مديرها السابق ، وإن من يعلم أن أصحاب هاتين الشركتين ومؤسسيها هم من كبار الماليين المعدودين كالمسيو إرنست كاسل ، والمسيو سوارس وشركائه ، لا يرتاب فى أن الثقة بهذا المصرى الجليل عظيمة ، كما لا شك أن هاتين الشركتين ستصلان إلى شأو بعيد من الرقى والفلاح بما أوتيه حضرة مديرها الجديد من سمو الإدراك وسعة الإطلاع فى المسائل المالية ، فنهنىء الشركتين ، ونسأل العلى القادر أن يهبنا الكثيرين من أمثاله » .

وموقف مصطفى كامل من سعد زغلول وأخيه فتحى زغلول مثل آخر على ما يضمره لكل مصرى يبشر بكفاءة جديدة أو بظهور شخصية ناجحة ، من الحب والتقدير والرغبة فى الإشادة والتشجيع والثناء بقلمه ولسانه وعواطفه ، فإذا خاب الأمل ، لم يتردد فى إظهار أسفه وحزنه لهذا الأمل الضائع دون أن يحرجه ثناء سابق أو تشجيع معلن .

لما أصدر فتحى زغلول ، وكان رئيساً لمحكمة مصر ، كتابه « المحاماة » سنة ١٩٠٠ ، وكانت اللواء فى عامها الأول ، أسرع مصطفى كامل واستقبل هذا الكتاب بترحاب فيه حرارة ، وفيه كرم وسخاء ، ذلك لأن

حركة التأليف فى مصر كانت فى عهد طفولتها ، لذلك كانت فى حاجة إلى من يأخذ بيدها ، وإلى روح من السماحة تبعث فى القائمين بها ثقة وثباتاً ، وكان كتاب « المحاماة » عملا يجمع بين طرافة الأدب ، وروح القانون ، فحق على مصطفى محيى كل حركة ونهضة وخطوة جديدة أن تعلن على الناس قيمتها . ولكن فتحى زغلول فى سنة ١٩٠٦ كتب بخط يده حكم دنشواى الدامى ، فأنزل عليه الوطنيون وفى مقدمتهم مصطفى كامل غضبهم وسخطهم ، حتى قيل إنه حين لقيه فى منزل أخيه سعد زغلول ، رفض أن يصافحه ، كما رفض شوقى الشاعر أن يحضر حفلة تكريم له ، وأرسل إلى لجنة التكريم بأربعة أبيات يقول فيها :

إذا ما جمعتم أمركم وهممتمو بتقديم شيء للوكيل ثمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة وسروال مجلود وقيد سجين
لا تقرءوا شعرى عليه فحسبه من الشعر حكم خطه بيمين
ولا تنشروه فى شبرد بل انشروا على ملأ فى دنشواى حزين

وتقول مدام جولييت آدم فى كتابها « إنجلترا فى مصر » : إن مصطفى كامل حينما زار لندن سنة ١٩٠٦ ، وسعى السير كامبل باترمان رئيس الوزراء البريطانى أن يقابله ، وتمت المقابلة فى مقر رئيس الوزراء الرسمى ١٠ دوانتج ستريت ، عرض رئيس الوزراء البريطانى على مصطفى كامل أن يؤلف وزارة ممن يثق فيهم من الوطنيين . وتقول مدام جوليت فى هذا الصدد :

« إن سير كامبل باترمان رئيس الوزارة البريطانية طلب مقابلة مصطفى كامل ، بعد أن قرأ خطبته التى ألقاها فى فندق كارلتون بلندن وتمت المقابلة بين الرجلين فى داوننج ستريت . وقد قال الزعيم الشاب خلالها للرئيس البريطانى ، أرجو أن تكون قد لمست الآن كيف نال عمالكم فى مصر من شرف إنجلترا بتلويثهم للعدالة .

« ولكن الرئيس البريطانى قال استناداً إلى ادعاءات اللورد كرومر إنه لا يظن أن فى مصر رجالا يستطيعون إدارة البلاد ، فرد عليه مصطفى : اسمح لى أن أقول بأن اللورد كرومر كان يصرف الأمور فى البلاد لصالح إنجلترا وحدها ، وإنه يحكم مصر منذ ١١ سنة بمساعدة وزارة مصطفى فهمى باشا صديق إنجلترا ، وهذه الوزارة مكروهة من المصريين المخلصين لوطنهم والعدالة . فقال له الرئيس : « هل تقبل أن تؤلف وزارة بمعرفتك؟ » فرد عليه مصطفى كامل على الفور : « إن وطنيتى تفرض على رفض كل مركز فى الحكومة مادام ظل الاحتلال قائماً فى البلاد » .

وفى ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩٠٦ عين سعد زغلول وزيراً للمعارف ، فكتب مصطفى إلى مدام جولييت يقول : يلوح لى أن سير باترمان كان مخلصاً فى حديثه معى بشأن استقلال مصر . إن سعد زغلول من ألمع مستشارى محكمة الاستئناف ، ولقد وضعت اسمه فى القائمة التى سلمتها لسير « باترمان » ، ولديك نسخة منها ، فاختيار اللورد كرومر لسعد زغلول من بين الاثنين وثلاثين اسماً التى ذكرتها ، ربما يكون القصد منه الأمل فى ضم سعد زغلول إلى سياسته ، إذ أنه متزوج من ابنة رئيس الوزراء مصطفى فهمى ، والمستقبل كفيل بالحكم على بما إذا كنت قد قمت بالواجب . . »

فكل الأمور كانت تدعو مصطفى كامل أن يغمض العين عن السياسة وتعيين سعد زغلول وزيراً ، فقد كان يحس أنه مسئول عن هذا التعيين ، فضلا عن أنه قدم سعد زغلول إلى قراء اللواء عند تعيينه مؤيداً ومهنئاً ، ولكن مصطفى لم يتحرج من مهاجمة سعد زغلول خصوصاً بعد تصريحه الذى ألقى به أمام الجمعية العمومية فى مارس سنة ١٩٠٧ ، الذى حاول أن يبرر فيه تعليم جميع المواد فى المدارس المصرية باللغة الإنجليزية والذى قال فيه .

« إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية لمحض رغبتها أو اتباعها

لشهوتها ، ولكنها فعلت ذلك مراعاة لمصلحة الأمة . لأننا إذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية، وشرعنا فيه فعلا، فإننا نكون قد أسأنا إلى بلادنا وإلى أنفسنا إساءة كبرى ، لأنه لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا فى الجمارك والبوستة والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة المختلفة التابعة للحكومة » . الحق أنه لم يكن ممكناً السكوت لا من مصطفى كامل ولا ممن هو أقل منه حبًّا لمصر ، أو تطرفاً فى إبداء مشاعره والتعبير عن آرائه . على هذا المنطق المقلوب ، فبدل أن يكون مطلب الوزير استعمال اللغة العربية لغة البلاد فى جميع مصالح الحكومة بما فيها الجمارك ، كما هى الحال فى بلاد الدنيا قاطبة . يضحى بلغة البلاد وبعنصر من أخطر عناصر قوميتها من أجل عدد من الوظائف مهما كثر فهو بالنسبة لمجموع وظائف الدولة صغير وتافه . على أن وظائف هذه المصالح ، مع فرض اللغة الإنجليزية ، على التعليم فى مصر ، كانت وقفاً على الأجانب والمتمصرين . لا لأن هؤلاء يتقنون اللغات الأجنبية بل لأن هذه الوظائف ذات أهمية سياسية لدى الاحتلال ، فلا تثق فيمن يشغلها إلا إذا كان أجنبيا لا يحمل ولاء لمصر . ولا يعرف الحرص على مصالحها. لذلك قال مصطفى فى ٩ من مارس سنة ١٩٠٧ فى اللواء الفرنسى : « إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كان يفهمون من قبل ، لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف العمومية صهر رئيس الوزارة (مصطفى فهمى باشا) الأمين على وصاياه والخادم لسياسته ، وفهموا أيضاً لماذا قامت الصحف الإنجليزية والصحف المتحزبة للإنجليز وذرت الرماد فى العيون قائلة إن الوزير الجديد هو من الحزب الوطنى » .

فمصطفى كامل يحب أعظم الحب من أجل مصر ، ويكره أعظم الكره من أجلها ، ويشجع من يشجع لمصلحتها ، وينتقد من ينقد لخيرها .

الرسول

لقد عرفنا رسالة مصطفى كامل . عرفنا عناصرها ، ومقوماتها ومصادر وحيها وأهدافها وغاياتها . ورأينا كيف أديت كأحسن ما يكون الأداء ، وبلغت أفضل ما يكون التبليغ . بقى أن نعرف صاحب الرسالة .

وصاحب الرسالة فريد فذ بين أمثاله وأشباهه من الزعماء وأصحاب الرسالات ، فتاريخ العقائد وسجل الحركات والثورات لم يعرفا على كثرة ما عرفا رجلا فى مثل خصائص مصطفى كامل وصفاته .

لم يعرف التاريخ ، بغير مبالغة ولا تطرف ، رجلا انقطع منذ كان صبيا إلى أن فارق دنيا الناس، لفكرة واحدة، لايتكلم فى غيرها ولا يعمل لسواها ، ولا يعيش إلا لها ولا يصاب إلا فى سبيلها ، ولا ينجح إلا بفضلها، هى ماؤه، وغذاؤه وهى دواؤه ودواؤه ، وهى هناؤه وبلاؤه ، وهى عزه وشقاؤه ، لا تبرح عقله ، فى الغدو ولا فى الرواح ، ولا تهدأ عنه فى الليل أو الصباح ، ولا ينصرف عنها فى المرض أو الصحة ، ولا يقبل على غيرها فى حالتى الازدهار والإدبار ، هى هو وهو هى ، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فكأنها فكرة تجسدت شخصاً ، أو كأنه شخص أصبح فكرة .

كل سطر فى كتاب مصطفى كامل ، كتاب حياته ، وكل خطوة وهمسة ، وحركة وسكنة وشاردة وواردة تؤيد هذا .

كان تلميذاً فى المدارس الثانوية فألف جمعية الصليبية ، وانضم إلى جمعية الاعتدال ، وجمعية الكمال ، وجمعية العلم المصرى ، وكان نشاطها جميعاً يدور حول العمل الوطنى ، والاستعداد له بالمناظرة أو الخطابة ، فإذا حصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية أرسل إلى شقيقه على فهمى كامل فى ١٢ من يوليو سنة ١٨٩١ فور حصوله عليها رسالة

هى الوثيقة الأولى التى يقع عليها نظر المؤرخ لحياة هذا الإنسانى العظيم . فلننظر بماذا أجرى قلمه :

« السلام عليك أيها الأخ الحبيب . . اليوم أبشرك بأن العقبة الكؤود التى كانت أمامى ، وهى شهادة الدراسة الثانوية ، قد نلتها بعد أن ضعف جسمى فأصبح نحيلا لا صحيحاً ولا عليلا . ولكنى آمل أن تعود إلى القوى لأدخل مدرسة الحقوق الخديوية ، فقد عزمت على الانضمام إلى صفوف طلابها لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ، ومعرفة حقوق الأفراد والأمم . وأنت تعلم أنى أميل إليها كثيراً ، وعزمت كذلك على تأسيس جمعية اسمها جمعية « إحياء الوطن » .

هذا برنامج صبى لم يبلغ السابعة عشرة ، يقرر الدخول فى مدرسة الحقوق ، لا لأنها مدرسة الوزراء والرؤساء ، ولا لأنها مدرسة المحاماة وحلبات المحاكم ، ولا لأنها مدرسة القانون والبلاغة والمحافل العظيمة ، بل لأنها مدرسة « حقوق الأفراد والأمم » هكذا وبالنص ، ولا شىء أكثر ، ولا شىء أقل . حقوق الأفراد ، التى تجعلهم مواطنين شجعاناً ، وحقوق الأمم التى تحقق لهم الحرية والمتعة .

ويأتى بعد ذلك مباشرة بلا تمهل ولا إبطاء ، العزم على إنشاء جمعية إحياء الوطن ، لا جمعية الوطن فحسب ، بل إحياؤه وبعثه .

إذا كانت هذه هى الرسالة الأولى التى يكتبها إلى أخيه ، فرسالته الأولى لأمه الروحية مدام جولييت آدم فى سنة ١٨٩٥ ، أى بعد ذلك بخمس سنوات ، هى كرجع الصدى من هذه الرسالة ، وقد مرت بنا ، فقد قال فيها :

« إنى أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة ، وقد نلت إجازة الحقوق من تولوز قبل سنة ، وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص اللذين أشعر بهما فى سبيل رفعة الوطن » .

نفس الغاية ونفس اللفظ . . السنوات تمر ، والألفاظ تزداد صقلا

وجمالا ، وإيقاعها يزداد قوة وجلالا ، ولكن المعنى واحد ، ويبقى واحداً حتى يلفظ صاحبها أنفاسه فى العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨ بعد ذلك بأربعة عشر عاماً .

كثيرون استولت عليهم أحلام رائعة ، فصرفتهم عن كل شيء إلا مصطفى . سواء كانت هذه الأحلام أفكاراً تسجل فى كتب ، أو أنغاماً توقع وتعزف وتهز الوجدان ، أو صوراً وألواناً أو مشروعات مال ، أو مخترعات علم ، أو كشوفاً فى الطبيعة : فليس مصطفى كامل بدعاً بين هؤلاء الذين أسلموا أرواحهم وأبدانهم وأنفسهم من أجل فكرة واحدة عظيمة .

ولكن هؤلاء جميعاً كانت لهم إلى جانب هذه الفكرة العظيمة ، لذات بدن ، وسبحات روح ، وسقطات نفس . كانت لهم إلى جانب الفكرة الأولى أفكار تتفرع على ساقها وتنبع منها ، وتأخذ عنها ، لكن مصطفى كامل ، كان فى تنسكه فى محراب الوطنية وحب مصر ، لا نظير له ولا ند .

لم يعمل شيئاً قط غير العمل الوطنى المجرد لمصر . لم يترافع فى قضية مع أنه قيد اسمه فى جدول المحامين سنة ١٨٩٥ ، لم يشغل وظيفة ، لم يمارس هواية ، لم يتزوج ، لم ينجب ولداً ولا بنتاً ، لم يقل حرفاً واحداً فى خطاب ، فى كتاب ، فى رواية ، فى مقالة . فى محاضرة يخرج عن المعنى الوحيد الذى عاش من أجله وهو تحقيق الجلاء عن مصر ، وتحقيق الاستقلال لها ، وإعادة مجدها .

لقد كانت آفة العمل السياسى فى مصر فى الخمسين السنة الماضية أنه يجرى لبعض الوقت ، وأنه أشبه شىء بالهواية والتبرع ، يأتى بعد أن يفرغ الساسة من أعمالهم التى يعيشون منها ، ويكونون الثروات ، ويبلغون بفضلها المراكز فى الحكومة والحياة العامة ، فالمثل الذى ضربه مصطفى كامل لم يستطع أحد أن يحذوه أو أن يرتفع إلى مستواه ؛ حتى خليفته

وصديقه محمد فريد ، الذى هو أقرب الناس إلى مصطفى ، تجرداً وإنكاراً للذات ، وتنسكاً فى محراب الوطنية وتعبداً ، اشتغل فى الدائرة السنية ، وفى النيابة العمومية ، وحاول أن يمارس المحاماة حيناً آخر . أما من جاء بعدهما فقد كانوا محامين وأطباء ووكلاء دوائر ، ورؤساء وأعضاء لمجالس إدارات شركات ، وأغنياء ، يتخذون من العمل السياسى وسيلة لإزجاء الفراغ ، ولتحقيق النفوذ والجاه .

وإذا كانت مقالات مصطفى كامل وخطبه وكتبه وأحاديثه وأسفاره ناطقة بأنه عاش ومات من أجل فكرة واحدة ، ملأت عليه حياته ، واستبدت بكل دقائق وثوانى عمره ، فإننا نجد الدليل الأكثر صدقاً والأعظم بلاغة فى رسائله الخاصة التى تصور همومه وأوجاعه ، وأفراحه وأتراحه ، وما يساور نفسه ، وما يتحدث به فى خلوته مع قلبه ؛ وسنجد فى هذه الرسائل كيف كان مصطفى كامل كما وصفه شوقى فى مرثيته « صب مصر ، وشهيد غرامها ، حقا وصدقاً » . وقالت مدام جولييت آدم عنه : « كان يحب أمته حباً لا يقوى عليه الموت نفسه » .

وقد حدثنا شقيقه أنه عندما ذهب إلى الإسكندرية لاستقبال أخيه مصطفى عند عودته من فرنسا بعد أن حصل على شهادة الليسانس ، وذلك فى السادس من ديسمبر سنة ١٨٩٤ ، وجد ضمن متاعه صندوقين كبيرين حافلين بالكتب القديمة والحديثة فى تاريخ المسألة المصرية وسياسات الأمم ، وفيما عدا هذا امتلك مذكرات بعضها من كبار السياسيين وبعضها من مكتبة باريس الرسمية من نظارة الخارجية ؛ ثم قال إنه رتب هذه الكتب فى مكتبه ترتيباً حسناً ، ووضع لنفسه نموذج حياة سار عليه ، حيث كان يعمل كل يوم بلا استثناء ثمانى ساعات فى هذا المكتب ، ذلك أنه كان يستيقظ فى الساعة السادسة صباحاً فيؤدى صلاة الصبح ثم يتناول الفطور ويقصد كوبرى قصر النيل للرياضة ، ثم يعود فى الساعة الثامنة ويدخل فوراً إلى قاعة المطالعة ، ويستمر بين قراءة وكتابة وتقييد

مذكرات إلى الظهر ، ثم يتناول الغداء وينام إلى الثالثة ، ثم يستأنف المطالعة حتى الساعة الخامسة ، وبعدئذ يزور إخوانه وأصدقاءه ، ويعود فى الساعة السابعة ليقرأ مرة أخرى إلى الساعة التاسعة ثم نتناول جميعاً طعام العشاء» .

كتب إلى أخيه رسالة من بروكسل لم تكن بطبيعة الحال معدةللنشر . ولم تنشر إلا بعد وفاة مصطفى قال فيها :

رأيت فى مدينة بروكسل عاصمة بلجيكا ، وهى المدينة الزاهية الزاهرة (ولكنها على كل حال لم تكن فى نظرى أحسن من مصر ، إلا أن حكومة هذه أهلية تعمل بقلب أهلى وحكومتنا مختلطة تعمل بقلب الإنجليزى) كل ما تصبو إليه النفوس الكبيرة من عز وسؤدد لبلادها ووطن آبائها وأجدادها . وقد علمت بعد الخبرة أن رقى القوم هنا مسبب عن صفتين لازمتين لكل أمة تريد أن تنهض بنفسها إلى سلم الرقى ، هما حب الإطلاع ، والاعتماد على النفس . . فسل الله معى أيها الأخ المحبوب أن نصبح سادة فى بلادنا لتعود مصر إلى ما كانت عليه من رفاهية ومجد ، حتى نقدم للعالم معارض أفخر مما رأيته ، وننظم مدائننا نظاماً فوق ماشاهدته. إن الله على كل شىء قدير » .

وكتب إلى أخيه فى ٣٠ من مايو سنة ١٨٩٥ فقال :

« الآن أقضى ليلى ونهارى فى مخالطة كبار السياسيين لأنتفع منهم بخدمة مصر المحبوبة ، والحمد لله قد تشرفت بمعرفة الكثيرين ، رأيت من الجميع استعداداً لمعاونتنا وتحريك المسألة المصرية ، وطرحها على المناقشة من جديد .

وإنى أجد من نفسى قوة فى هذه الأيام ما شهدت مثلها مدة حياتى ، كأن الله يريد أن يكون العامل لبلاده قوياً ، حتى يقاوم هذه الحركة الهائلة ، ولكنى أشعر من جهة أخرى بأن بلادنا فى حاجة لرؤوس وألسنة وأقلام مصرية كثيرة حتى يقرب البعيد بما تحدثه فى العالم من الحركة » .

وأحسب أنه لم يفتك فى هذه السطور ، قول مصطفى إنه يقضى (ليله ونهاره) فى مخالطة كبار الساسة ، فلفظا (ليله ونهاره) هما التعبير الحقيقى عن الحالة الروحية التى كانت تشمل مصطفى منذ بدأ ترهبه وتنسكه وانقطاعه لهذا الحب (الرائع) على حد قوله ، حبه لمصر ، التى يود — على خلاف عادة العشاق والمانمين — أن يكثر عشاقها ، وأن يكثر خدامها ، وأن يتنافس فى إسعادها محبوها . وقد كرر هذا المعنى بنفس الألفاظ فى رسالة تالية أرسلها إلى أخيه بعد الرسالة الأولى بأربعين يوماً فقال :

« . . . فاعذرنى أيها العزيز فإنى أتعب نفسى ليلا ونهاراً ، وإن كان هذا التعب لايذكر فى جانب ما علينا لوطننا المقدس من الواجبات ، فلو رأيتنى الآن لرأيت مصريا يتحرق قلبه لرؤية أمته سعيدة ، مالكة زمام أمرها ، ووطنه مستقلا رفيع المنزلة بين الأوطان . ترانى حركة مستمرة ، تارة أحادث ، وتارة أكاتب ، ومرة أزور ، وحيناً أهاجم وحيناً أدافع ، ولى كبير الأمل أن يفتح باب المسألة المصرية للمناقشة عاجلا أو آجلا وكل آت قريب .

أما صحتى فلم يطرأ عليها تغيير ، وهب أنه طرأ عليها شىء فإن من يبذل الروح وهى الجوهر ، لا يبالى بالجسم وهو العرض » .

ولكم كتب لأمه الروحية « مدام جولييت آدم » رسائل ، تكرر هذا المعنى ، وتسرى فيها تلك النغمة . . الأمل المقرون بالمرارة ، والعزم المصحوب بالعتب على أهل بلده ، الذين — مع التأييد والحب — لايبعثون إليه العشرات الذين يسافرون معه ، ويكتبون ويخطبون مثله . ولكن أكثر هذه الرسائل مسا لشغاف القلب ، الرسالتان التى أرسل أولاهما فى ١٦ من ديسمبر ١٩٠٤ ، والثانية فى ٢٩ من أغسطس سنة ١٩٠٥ ، قال فى الأولى :

« إنى أرى مشهداً من أفظع المشاهد ، ذلك هو سقوط وطنى ، ولو

كنت لا أستطيع تنفس الصعداء كل لحظة لعبرت من زمن بعيد ، إنه لمن أشق الأعمال على الإنسان أن يجاهد ضد الزمن والحوادث والناس ، وليس هناك شيء يؤلمني أكثر من الانحطاط الأدبي الذي استولى على أولئك الذين كان يجب عليهم أن يكونوا أعظم الناس كرماً وشهامة . لا تتخذى من هذا دليلا على الفتور ، ولكنها زفرة متألم ، فإني ما زلت ولن أزال أبذر البذر الصالح ، وأمثل الأمل الحي بالرغم من كل العوائق حتى لا نترك ماضي مصر ولا مستقبلها في يد النسيان » .

وقال في الثانية : « إني كلما فكرت في أني إن زلت عن هذا الوجود فلن يسمع أحد صوت وطني ، كلما ارتقى شعوري وقويت معنويتي واعتنيت بصحتي التي تتحسن شيئاً فشيئاً . . ليس أمامي إلا خمس سنوات أو ست سنوات أكافح فيها أشد الكفاح ، وبعدئذ أستطيع العيش سعيد البال ، فالسعادة لا تنال دفعة واحدة » .

يالشاب المسكين العظيم ! . إنه يطمع في أن يعيش خمس سنوات أو ستا أخرى يكافح فيها أشد الكفاح ثم ينال السعادة . لقد شف إحساسه ورق ، حتى أصبح يشعر بدنو أجله ، ولو أن الغيب لله . فالسنوات الخمس أصبحت ثلاثاً فقط ، والجهاد الذي قطع على نفسه العهد أن يقوم به خلال هذه السنوات ، وفى الوعد به وجاهد ، والسعادة التي كان يطمع فيها ، بعد هذا الكفاح الشاق المضنى ، نالها ، ولكن لم تكن في هذه الدنيا ، بل كانت في الدار الآخرة ، بعد أن التف حول جثمانه شعب بأسره ، فتحققت عنده الوحدة واليقظة ، أي تحقق الأمل . ولا يؤلمك في عبارة الرسالة نبرة تكاد تكون غروراً ، فهو حينما يتحدث عن توقف صوت وطنه ، حينما يقف قلبه هو ، ليس من قبيل الزهو ، بل إنها كما قال « زفرة ألم » ، فقد كان إحساسه بالوحدة يشتد عليه أحياناً ، حتى يحسب أنه وحده الذي يكرر اسم مصر وينطق به ، ويقرع بحروفه الأسماع والضمائر . . والحق أنه وقتذاك كان كذلك . . ولكنه كان

يواصل السعى ، وفى فترات الشدة المدلهمة كان يزداد ثقة وعزماً ، فقد كتب لمدام جولييت بعد أن قطع صلته بالخديو رسالة أرسلها إليها فى ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٠٤ ، كما قال لها فى ١٨ من نوفمبر فى السنة نفسها : « ما دامت هذه الشعلة الوطنية تغذينى وتؤازرنى فإنى لا أهاب أحداً ولا أخشى شيئاً فى الوجود » .

وتوالت الدلائل على إحساس مصطفى كامل بدنو أجله ، فقال لمدام جولييت فى ٤ أكتوبر سنة ١٩٠٧ : « . . . وستكون هذه السنة أهم سنة فى حياتى » . ولقد صدق حدسه ففى هذه السنة تألف الحزب الوطنى ، وصدرت جريدتان باللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وأطلق سراح سجناء دنشواى ، ثم لزم فراشه ، حتى حمل على الأكتاف إلى القبر :

ولكنه أودع كل أمانيه فى جملة واحدة ، قبل أن يودع هذه الدنيا فقال : « كم أتمنى أن أعيش يوماً واحداً بعد أن تجلو جيوش الأعداء عن أرض وطنى ، ثم ألقى الله » .

أما رسائله لمحمد فريد فهى الدليل على أن كل ما يصدر عن مصطفى كامل لا يصدر إلا عن حبه لبلده ؛ فالصداقة والمودة ، والحب والعطف كلها صدى لهذا الحب ، فهو مثلا يكتب له فى ٢٦ من أكتوبر سنة ١٨٩٦ من بودابست ، فيقول له : «لابد أنك تسلمت كل ما أرسلت إليك ، وطالعت صدى ما علمت ، وعلمت بكل ما جرى وكان ، ولا بد أنك سررت وفرحت ، وأن روحك الطاهرة الشريفة الممتلئة حبا لمصر وإخلاصاً ، رضيت عن روح لا تقل عنها حبا للوطن وإخلاصاً » .

وكتب له فى ٣ من نوفمبر سنة ١٨٩٦ من استانبول يقول : « أتلذذ حقا لمكاتبة صديق مثلك أساس مودته محبة الوطن العزيز » . ومن باريس كتب له يقول فى ١٩ من يوليه سنة ١٨٩٨ : « دمت لى أخاً وفيا صادقاً ، ودمت معى خادمين صادقين للوطن المحبوب » .

وفى ٢٩ من يوليه سنة ١٩٠٧ ، كتب له من نابولى يقول :

« إنى لو أردت أن أشكرك على صدق إخائك وتفانيك فى خدمة المبدأ الذى وهبنا حياتنا له لما استطعت إلى ذلك سبيلا ، وحسبى أن أقول إنك خير سلوى لى فى هذه الحياة التى كثرت متاعبى وهمومى بها ، فكنت الأخ الممتاز والعون فى الشدائد » .

أما رسائل مصطفى كامل لصديق صباه ، وزميله الأول فى العمل الوطنى ، منذ عهد الدراسة والتحصيل ، محمد فؤاد سليم ، والتى نشرت أخيراً ، فإنها تفتح لها نافذة فسيحة نطل منها على نفس مصطفى كامل الصديق ، ونفس مصطفى كامل المقاتل . ولأن مصطفى جياش النفس فإن رسائله التى هى قطعة من نفسه ، تفيض حياة وصدقاً :

قال فى ١٢ من يونيه سنة ١٨٩٥ :

« مضى على شهر بباريس وأخباركم عنى منقطعة ، فلا رسالة ولا سؤال . . ولم أر منكم شيئاً يدل على أنكم تفكرون فى ذلك المغترب البعيد الذى فارق الأوطان حبا فى إسعادها وإعلاء شأنها » .

وفى ١٦ من يونيه سنة ١٨٩٥ قال له :

« حمداً لله على انبعاث روح جديدة فى نفوس أبناء مصر . ولكنى مع ذلك عالم بأنى لا أستطيع الاعتماد على أحد من أبناء جنسى ، وأنى إذا تصورت يوماً بأى صورة كانت لا أجد من أمتى عضداً ونصيراً إلا إن كان منك يا أعز أبناء النيل عندى ، هذا ما يحزننى كثيراً فإنى مع ارتياحى للمهمة التى عرضت نفسى للقيام بها والغرض الشريف السامى الذى أعمل له أرى أن غيرى من الذين أحب التشبه بهم كفرانكلين وغيره ، كان يعمل ووراءه أمة تعزز مطالبه وتدافع عنه بعكس ما أنافيه ، فالذين ينصفوننى ويوافقون على أعمالى إنما يقولون بذلك فى مجالسهم الخاصة ، وربما خافوا المجاهرة فى المجالس العامة ، والذين يعترضون على ، ويطعنون فى ، يقولون ذلك جهاراً لا يخافون أحداً .

ثم يقول :

« وعلى أى حال فليست هذه الأفكار مما يضعف عزمى ، أو يثبط همتى . فإنى أعمل الليل والنهار بعزم وهمة حقيقيين ، متوكلا على الله ، واثقاً بالمستقبل ، مؤملا النجاح فى هذا المسعى الذى كنت أتمناه أمامك ، وأظنك لست تنسى ذلك . وإن الله قادر على مساعدتى ، وعلى عودتى إلى أوطانى بعد إتمام المرافعة فى قضية مصر الكثيرة المشاكل والعراقيل ، وإنى إذا مت اليوم بعيداً عن الوطن والأهل والأحباب فإنما أموت مرتاحاً موتة الشجاع فى حومة الميدان ، فاسأل الله لى قوة ومساعدة . واستمر فى مراسلتى [1] » .

وأرسل إليه من فيينا فى ٢٧ من يوليه سنة ١٨٩٥ :

« لقد ورد لى قبل قيامى من باريس رسالة من أحد العمد الذين لم يكن لى معهم سابقة معرفة يقول لى فيها إنه سيبذل جهده فى عمل اكتتاب لمساعدتى حتى أستطيع السياحة فى كل أوربا وإلقاء الخطب ونشر الرسائل وإعطاء بعض الجرائد الفرنساوية والألمانية والروسية وغيرها من الدراهم لتحريكها على الكتابة فى صالح مصر حتى تعلم الحقائق وتهيج الخواطر ضد الإنجليز ، فأملت خيراً » .

ولما أخبره صديقه فؤاد بأن بعض المصريين يحملون عليه ويطعنون فيه رد مصطفى على ذلك بقوله :

لقد قامت المشروعات الخطيرة فى كل زمان بين المشاكل والعراقيل ، وانتقاد الناس وتقبيح هؤلاء وذم هؤلاء حتى فى بلاد أوربا نفسها وبلاد المدنية والحضارة ، انظر إلى مشروع إيفل [2] كم ندد بعمله بادئ

---

(١) نشرها الأستاذ عبد العزيز حافظ دنيا فى سنة ١٩٦٩ بعنوان : (رسائل تاريخية) .

(٢) إيفل المهندس الفرنسى الذى أقام البرج المعروف باسمه بمعرض باريس سنة ١٨٨٩ بمناسبة مضى مائة سنة على الثورة الفرنسية .

ذى بدء ، وكم سب وطعن فيه وقدح فى فكرته وخبرته ، فهو لم يعتن بكل ذلك وسلح الفكرة بسلاحها ، فصارت فى طريقها حتى أصبح الخيال حقيقة والحلم يقظة وصفق له الناس كافة . . ما أردت بذلك إلا أن أعلمك بأن كل المنتقدين لى المقبحين لعملى سيكونون غداً عند خروج الإنجليز من وادى النيل أول المصفقين لى ، وأقول يسبقونك إلى ملاقاتى والاحتفال بى (ذلك إن تحققت الأمنية وبلغنا الآمال إن شاء الله) .

ثم بث صديقه شكواه التى تكوى فؤاده ، شكواه من أنه يعمل وحيداً ، لا يجد معه مؤنساً فى أوربا ولا زميلا ، حتى الأصدقاء يضنون عليه بالرسائل وأخبار مصر ، فقال :

« مع ذلك ماذا ينقصنى أو يضرنى تحزبهم لى أو تجمعهم صدى ، قد مضى على فى أوربا ثلاثة أشهر خدمت فيها بلادى الخدمة التى لم يكن فى استطاعتى عملها سنين وأنا فى مصر ، لم أر فى كل هذه المدة مساعدة من الموافقين على عملى ، لكنى رأيت مخالفة من المخالفين لى ، فالموافقون على أعمالى إنما هم كالمتفرج ، والمخالفون هم أيضاً كالمتفرج القبيح الذى يسبنى ، فلا فرق هناك بين الفريقين ، إن لم يكن أحدهما أكثر أدبا من الآخر .

ثم زفر مصطفى زفرة تكاد تخرج من صدره ومعها قلبه :

أواه يا فؤاد ثم أواه ألف أواه ! الفلاح يسعى ويتعب ، ويعمل الليل والنهار ليسأل فى وقت الحصاد محصولا يسد حاجته ، وأمته يبلغ عددها ثمانية ملايين[1] . نفس تطلب الحرية أنفس معنى من معانى الوجود — ولا تسعى للوصول إلى هذه المرام السامى وإلى تحقيق أمنيتها بل تريد أن تأتيها الحرية وهى نائمة فتوقظها من نومها . والله لست أدرى ماذا يريد

---

(١) كان ذلك تعداد مصر سنة ١٨٩٥ ، فكأن تعدادها زاد نحو خمسة أضعاف فى ثمانين سنة .

الرحمن بهذه الأمة المسكينة . أقول ذلك ولكن قلبي يقول ساعة الفرج لا بد من مجيئها » .

وهأنت ذا ترى كيف تختلط فى رسائل مصطفى كامل خواطر الألم والشكوى من الناس ومن الزمان ، بصيحات الأمل والثقة فى المستقبل . مهما كثرت الصعاب فى طريقه لا يستسلم لها قط ، محققاً شعاره الذى أعلنه فى خطبته الرائعة فى الثانى والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٠٧ المعروفة بخطبة الوداع :

مهما تعاقبت الليالى وتعاقبت الأيام ، وأتى بعد الشروق شروق ، وأعقب الغروب غروب ، فإننا لا نمل ولا نقف فى الطريق ولا نقول أبداً : لقد طال الانتظار !

ثم عاد يقول إلى صديقه فؤاد ، كلاما تخالطه المرارة :

وأشكر الكاهن الأكبر[1] ألف ألف شكر ، وبلغه أنى أتذكر دائماً جملة قالها لى مرة عندكم « أليس فى المصريين رجل واحد ؟ » فقلت له وماذا يعمل الرجل الواحد :

فقال أصل كل شىء واحد ، فليظهر ذلك الواحد وعندئذ ، غيره يتبعه » .

« وهأنذا أنتظر من يتبعنى ، وأظن الأيام والليالى تمر ، ولا يتبعنى غير الهواء » .

ولا تحسبن هذه بادرة من بوادر اليأس ، فلا يشكو هذه الشكوى ؛ ولا يتفجر قلبه إنسان بعنف ألم كهذا سوى قلب إنسان عظيم الأمل كبير الرجاء . اليائس لا يشكو ، وإنما يصمت ويتغير ويختار له سبيلا آخر .

وفى ١٥ من أغسطس فى السنة نفسها يعلق على نبأ نقله إليه فؤاد فى رسالة سابقة فيقول : لقد اندهشت من الخبر الذى سقته لى ، القائل بأن

---

(١) فى الغالب الكاهن الأكبر هو عبد الله النديم .

نظارة الداخلية قررت عدم دخولى الديار المصرية ، فإنه يدل على جنون الإنجليز وعظيم غيظهم . وكلما ازداد جنونهم وعظم غيظهم ازددت أنا همة فى العمل ونشاطاً وثباتاً ، فليأمروا بما يأمرون . إنى قدست نفسى لخدمة أوطانى وأهديت حياتى لأمتى وبلادى ، فليسلبونى هذه الحياة فليس لى وحقك تعلق ما . إنى لآخر لحظة فيها أخدم مصر ، وأفارق الوجود ولسانى يقول : « مصر مصر » ، وأنت أول من يعلم بهذه الإحساسات فىّ ، وعلمك بها أمتن من علم أهلى بها ، فلقد عشنا حيناً طويلا وروحانا ممتزجان ، فما نحن إلا روح واحدة فى جسمين ، ولكن أسألك البحث عن صحة هذا الخبر ، فإن صحته تكون لى دليلا قويا وحجة ساطعة على تخوف الإنجليز من هذه الحركات ؛ وبالأخص تحقق لى من خبر منع دخول الهلباوى بك فإن صديقنا لا يشتغل إلا بالكتابة وكراسته ، وموجود الآن فى جنيف . سأزوره الأسبوع القادم . فلم يمنع من دخول مصر ؟ أمر غريب وعجيب ! » .

ويبدو من هذه السطور انشغال بال مصطفى بنبأ منع عودته إلى مصر ، ولكنه انشغال طبيعى ، لأن حرمان مصطفى من العودة إلى بلاده مع تعلقه الشديد بها ، وحبه العميق المتأجج للأم والأخ والأصدقاء ، هذا الحب الذى يبدو صادقاً وحارا فى كل رسالة ، يكون بالنسبة له عذاباً عظيماً ، ولكن هذا الانفعال بالجانب العام من هذا النبأ صرفه عن الانشغال والقلق على مصير شخصه ، فاهتم كثيراً جدا بنصيب صديقه الهلباوى من هذه الإشاعة ، وأظهر دهشته من أن رجلا منصرفاً إلى مذاكرة كتب اللغة الفرنسية والتقدم فيها والإكباب على الكراسة والكتاب يمنع من العودة إلى بلاده ؛ ولكن مصطفى كامل ما يلبث أن يبدو على صلابته ، فقد اشتد فى لوم أخيه وصديقه فؤاد سليم ، لأنه نصحه بسرعة العودة إلى مصر خوفاً عليه من قرار المنع المحتمل صدوره ، فقال له بلا هوادة :

« يظهر أن شوقك لرؤيتى زائد جداً جداً حتى غطى شوقك على خبرتك ومعرفتك بالواجب ، لأنى أراك قلت لى : الأولى عودتى إلى مصر الآن . وماذا يكون من أمرى إذا عدت ؟ يكون اليأس ؟ أم الهيجان والاضطراب ؟ ومن يستطيع مقابلتى إذا عدت ؟ وهل يتيسر دخولى وعودتى ؟ أأكون أول من يفتح باب المحكمة المخصوصة [1] ؟

عودتى لمصر قبل الجلاء مستحيلة ، وأحب أن أقول لك ما قالته جريدة طولوزية بعد سفرى من طولوز وهو : «أن مصطفى كامل دخل فى صف المحامين من بعد تتمة دراسته الحقوق ، ولكنه لم يترافع فى قضية واحدة ، بل اختار قضيته الأولى والأخيرة : قضية مصر ضد إنجلترا ، وهو يترافع فيها بهمة ونشاط أمام أوربا ، ولا يعود لمصر حتى يسمع الحكم ، ولا شك أنه سيكون فى صالحه ، فلننتظر الحكم » .

ولا يختم مصطفى رسالته هذه بعد هذه الأنباء الخطرة التى تتعلق مباشرة بمستقبله ، والتى تدل دلالة صريحة على مدى تأزم العلاقة بينه وبين سلطات الاحتلال فى مصر ، وانتوائها إنزال الأذى به ، إلا بعد أن يطلب طلباً يدل على هدوء نفسه وقوة أعصابه وانشغاله الدائم بالعمل الذى اضطلع به ، فهو يقول لصديقه :

« أكون لك من الشاكرين إذا أرسلت لى فى أول فرصة (شاهيتين) جميلتين « لوناً » وقماشاً مع إخبارى بثمنهما ، فإن كل ما كان معى من الهدايا النفيسة وزع ، ومحتاج لتقديم هدايا لبعض الكتاب السياسيين ، ولتعلم أن الهدايا فى هذه البلاد من أحسن الأسلحة السياسية » .

ولا ينسى مصطفى هاتين (الشاهيتين) وهما قطعتان من القماش الذى تصنع منه القفاطين ، وهو يروق سيدات أوربا ، ويصنعن منه

---

(١) المحكمة المخصوصة هى المحكمة التى صدر قانون فى سنة ١٨٩٥ بتشكيلها لمحاكمة المعتدين على جيش الاحتلال .

« فساتينهن » ، فهو يكتب فى الرسالة التالية المؤرخة ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٥ : « لا تنس إرسال الشاهيتين ولا تهمل » .

ولكن فؤاد سليم لا يرسل الشاهيتين ، ومصطفى يتعقبه ولا يتركه ، فهو يقول له فى رسالة ١٤ من سبتمبر :

« ولعل امتناعك عن مراسلتى بسبب ما طلبته منك أن ترسل إلى شاهيتين ، إذ قضى عليك (بخلك) أن تحجم عن الجواب » .

ثم يعود إلى أحزانه التى لا تفارقه ، حزنه لبلده الذى كان لا يزال يرزح تحت نير الاحتلال فيقول :

« أكتب لك يا فؤاد وقلبى مملوء بالشجن والأحزان ، وعيونى تذرف الدموع ، وفؤادى كئيب تعيس ، والنور أمامى ظلام فى ظلام ، ولا بهجة لى ولا سرور . نعم نعم ، كل ذلك حاصل ويدوم ما دام الشقاء فى بلادى سائداً » .

ذلك لأن تاريخ الرسالة هو ١٤ من سبتمبر ، وهو يوم دخول الإنجليز إلى القاهرة ، وهو تاريخ كالقرحة الملتهبة لا يهدأ لحظة ولا ينقطع .

وفى الرسالة الرابعة التى كتبها مصطفى فى ٣٠ من سبتمبر أى بعد الرسالة السابقة بأسبوعين لا ينسى « الشاهيتين » فيقول لصديقه :

« لم ترسل الشاهيتين . لعلك تعتذر بوجودك فى شطنوف (إحدى قرى المنوفية وبها أطيان لطيف باشا سليم والد فؤاد) أنا لا أقبل هذا العذر ، فإن تابعك أو سيدك (عثمان أغا) لا يتأخر لو أمرته بإرسالها إلى ، فلا عذر لك أبداً ، لا لأنك بخيل كما أعهد فيك ، وإنما كما يعهد فيك والدك المحبوب نفسه (تذكر تعرف) » .

وكما لا ينسى الشاهيتين لا ينسى الهلباوى بك وأخباره ، ففى رسالتين متلاحقتين يتحدث عن تقدمه فى الفرنسية وعودته إلى مصر ، ويبدو أن العلاقة بين مصطفى كامل وإبراهيم الهلباوى كانت فى تلك الأيام غاية

فى الود والحب ، وذلك كله قبل أن تقع واقعة دنشواى ويترافع فيها الهلباوى ضد المتهمين من الفلاحين ، فتصيبه لعنة هذه القضية التى لم تدع أحداً شارك فى إثمها حتى أصابته بعذاب : كرومر سقط عن عرشه ، وسحب إلى بلده ، وانتهت حياته السياسية ، وبطرس غالى رئيس المحكمة قتل برصاصات إبراهيم الوردانى ، وفتحى زغلول الذى كتب الحكم بيده فقد أكثر ماله فى ديون قمار ، ثم أصيب بمرض عضال ومات دون الخمسين تاركاً مستقبلا باهراً فى السياسة والحكم ينتظره .

وفى ١٦ من أكتوبر سنة ١٨٩٥ تسلم فؤاد سليم رسالة من مصطفى تعد وثيقة من أخطر وثائق الحركة الوطنية التى قادها مصطفى كامل ، ونحن ننقل منها السطور التالية ولا نعلق عليها هنا لأن لها مكاناً فى موضع آخر من هذا الكتاب .

قال :

« عزيزى فؤاد

إنى مندهش جداً حيث لم يصلنى منك لا برقية ولا نقود ولا حتى رسالة واحدة . أتعشم أن يصلنى شىء منك غداً عن طريق البوستة الفرنسية .

صديقى فؤاد العزيز

إننى فى ضيق نظراً لأن الخديو لم يرسل لى من المال مايكفينى للسفر إلى مصر ، إذ أن مقدار ما بعثه لى يكفى فقط لأسدد به نفقات الفندق ، وإننى صممت على عدم رجوعى إلى مصر ، لأن وجودى فى فرنسا مهم جدا للقضية التى كرست لها نفسى جسدا وروحاً . وقد قررت ألا أعود إلى مصر إلا إذا يئست من معاونة الوطنيين . وإنى حاليا يائس من واحد، هو الخديو ، ولكن أليس فى استطاعة والدك والهلباوى ومحمود سالم أن يرسلوا لى سنويا (٤٠٠ جنيه) ما داموا يعتبرون أنفسهم وطنيين ويقدرون جهودى الوطنية ؟ وإذا كانوا غير قادرين على مساعدتى ومساندتى فإنى

سأعود إلى مصر يائساً فاقد الأمل ، ليس من أجل الجلاء فحسب بل من أجل مستقبل الأمة المصرية . وتأكد يا صديقى العزيز أننى لن أمكث فى مصر بعد عودتى دون أن أرى القبر (أكيداً) ، سوف أنتحر ولا أعيش وسط أمة جاحدة ، بالإضافة إلى أنى لا أعرف اليأس إلا بالموت معاً » .

هذه صرخة انشق عنها قلب رأى أن الغاية من حياته قد أصبحت أبعد عن تناوله منها فى أى وقت مضى ، وأن من يحبونه ويحبون هذه الغاية يخوفونها بالسكوت والإهمال ، وقد يستطيعون هم قبول الحياة على هذا المنوال : ذل قائم وظلم باطش ولا جهاد ولا كفاح . أما هو فلا معنى لحياته إلا بالعمل ضد غريمه الكريه وعدوه البغيض : حكم الإنجليز لبلاده .

الفصل الخامس

الإنسان

أرسل مصطفى كامل رسالته السياسية الأولى : « أخطار الاحتلال البريطانى » إلى مدام جولييت آدم ، وقد عرفناها على صفحات هذا الكتاب زوجة لجمهورى كبير هو إدمون آدم ، مساند الجمهورية التى كانت تيارات الرجعية والملكية القديمة تعصف بها وتود أن تقتلعها من جذورها . ساندها بماله كما ساندها بنفوذه ، وحرارة إيمانه ؛ وزوجته صحفية عالية الكعب ، تصدر « المجلة الجديدة La Revue Novvelle » ، وتفتح بيتها لما يسمى « بالصالون » ، وهى ندوة يجتمع فيها الكتاب والصحفيون والساسة والنواب والشيوخ والوزراء الحاليون والسابقون وأصحاب المكانة فى المجتمع الفرنسى ، يتبادلون الرأى ويعلقون على الأخبار ويسمعونها . وكان من العظماء الذى يضفون على ندوتها الرواء والبهجة والحيوية : بيرك فى ، وإرنست جوديه ، والكولونيل (العميد) مارشان ، وهنرى روشفور ، وجستون كالميت ، وكميل بلقان ، وليون دوديه ، وإميل فلورنس ، وأندريه تارديو ، وإدوارد دورمون . شعراء مشهورون ، وعسكريون ذائعو الصيت ، وساسة وصل بعضهم فيما بعد إلى رياسة الوزارة .

فالسيدة جولييت آدم رأت من الدنيا وعرفت من الشخصيات وبلغت من المجد ، ما يصبح معه موعد تمنحه لشاب مصرى مجهول أمراً قليل الإثارة تؤديه كما يؤدى العظماء ضرائب العظمة ، فيقابلون من لا شأن لهم ويطيلون عليهم صبرهم كما يقابلون ذوى القيمة ويفرحون بلقائهم :

انصرفت الصحفية الكبيرة إلى ما كان بين يديها من ورق فى مكتبها الفسيح الأنيق حتى أعلن لها مقدم الشاب المصرى مصطفى كامل ، فرفعت عينيها عن الورق ، ونظرت من مقعدها عبر المكتب إلى حيث يقع الباب ، وفتح الباب فإذا هى وجهاً لوجه أمام شاب ناحل ، أستغفر الله بل صبى يدلف ببطء إلى أولى سنى الشباب . وخيل إلى السيدة الكبيرة أن المقابلة لن تستغرق إلا دقائق تمنحها لهذا الطارق من قبيل الأدب وحسن المجاملة . لم تكن تستطيع أن تخترق حجب الغيب ، وأن تعرف أن هذا الشباب سيكون له دور فى حياتها ، وسيكون لها دور أى دور فى حياته .

حيا بأدب ، ولكن بلا خجل يعقد اللسان ، ولا اضطراب يشتت الذهن . كان مستجمعاً نفسه متحكماً فى أعصابه . وابتسمت السيدة المجربة ثم قالت :

— إنك لم تصدقنى سنك ، فإنك لم تبلغ الحادية والعشرين .

وكانت بهذا تلمح إلى رسالته التى أرسلها إليها فى ١٢ من سبتمبر سنة ١٨٩٥ يقول لها فيها :

« إنى أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة ، وقد نلت إجازة الحقوق من طولوز ، وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص اللذين أشعر بهما فى سبيل الوطن العزيز ورفعته » .

فأجاب فى التو : لقد بلغتها ياسيدتى وأكملتها . .

فلما كتبت عن هذه المقابلة قالت : « إن عقل هذا الشاب قد بلغ أشده واستوى قبل أوانه » .

فلما ناقشها فيما عرض لهما من حديث قالت عن هذه المناقشة : « لقد أطال هذا الشباب التدبر والتروى فى إمكان مصيره خطيب مصر » .

فقد كان صوته قاطعاً ونبرته مقنعة ، وكان يجمل فى لفظ ما يقوله

الآخرون فى كلام كثير . كان يطلب وكأنه يأمر وإن لم يتجاوز قط حدود الأدب .

ثم قالت السيدة جولييت لمصطفى :

ضع ياولدى مقالا فى إحدى المسائل السياسية الخاصة بمصر ، وأفض فيها واسترسل استرسالا بغير تقيد ، فإنه لا تضرنى منك سورة الشباب ولا حدة اليقين .

فأجابها فى لطف : كتابتى مقالة فى مجلة يسرنى سروراً زائداً ياسيدتى خصوصاً فى مجلة كبيرة مثل « لا نوفيل ريفيو » ، ولكن فى ذلك إبطاء ، فأرجو منك ياسيدتى أن تفتحى لى أبواب جريدة كبرى حتى أستطيع أن أكتب فيها من فورى .

ودار بينهما حديث حول الميعاد الذى ستنشر فيه مقالته ، فاقترحت أن يكتب مقالا ينشر فى عدد مجلتها الذى يصدر فى ١٥ من نوفمبر ، وهو يريد أن يكتب فى صحيفة يومية مقالا ينشر غداً . فتنصحه بأن يكتب فى مجلتها لأن الصحف لا تتسع للمقالات المطولة وأن المقالات الموجزة لا تكفى لبيان الرأى ولا تجمع أنصاراً ، واقترحت آخر الأمر أن يكتب مقالا لتنشره فى عدد أول نوفمبر بعد أن كانت مواده قد أعدت وأرسلت إلى المطبعة ، فهتف : « كم تقوينى ثقتك ! إن لى أما أحبها حبا شديداً وهى تثق بمشروعى ، فببركة رضاها عنى وبإرشادك إياى سأقوم يقيناً بعمل وطنى جليل ، وأملى أن أصبح أخا لبيرلوتى الذى يحب الشرق والمسلمين » . وسجلت السيدة جولييت عن هذه المقابلة قولها :

« من تلك المحادثة أخذت حقيقة أؤدى لمصطفى كامل وظيفة الأم ، فعرفته بجميع الأكابر الذين يعنيهم شأن مصر ، وأوليته من حب الأم جميع منازل أبنائى المتقدمين عليه الذين كان يختص منهم بيرلوتى والكولونيل مارشا وإرنست جوديه بالمحبة » .

وليست هذه المقابلة وما أسفرت عنه إلا نموذجاً لما تفعله شخصية

مصطفى كامل فى الناس الذى يتصل بهم و يتحدث إليهم و يعمل معهم : كيف يفكر ؟ كيف يفرض رأيه ؟ كيف يكتسب حب الناس وثقتهم اللهفة التى يبديها للعمل ، والخوف الشديد من مرور الزمن ، والثقة الكبرى فى نجاحه ، وفى حقه فى أن يحمل الناس معه إلى حيث يريد بلا خوف ولا تهيب ولا غلظة أو تسلط ، كل هذا مع النضوج المبكر .

وفى هذه الخصائص تبدو شخصية مصطفى كامل واضحة كلية وكأنك تقرؤها فى كتاب مفتوح .

أولى هذه الخصائص : النضج الذى يكاد يكون معجزة إنسانية . و يليها مباشرة الثقة بالنفس ، ثم يأتى الإيمان بالمثل الذى رسمه لنفسه ، الذى يلد القدرة الفائقة وسريعة الأثر على الإقناع والتوجيه المعلنة عن ملكة قيادة كاملة . و بعد ذلك يأتى خوف خفى من الزمن . . لقد كان منذ البداية يحس إحساساً غامضاً ، لم يفصح عنه قط بأنه ذاهب عن هذه الدنيا سريعاً ، ولكنه أفصح كثيراً عن أنه ليس لديه وقت يضيعه ، فإن أمل بلاده فى النجاة من الاحتلال ، يدنو قريباً لو أن المصريين واصلوا الضربات ولم يخافوا ، أو يتفرقوا ، أو يدعوا مكاناً للحسد والضغينة بينهم . .

أما آيات النضج فإليك الأمثلة عليها . :

أول هذه الأدلة رسالته إلى أخيه على فهمى بعد نجاحه فى شهادة الدراسة الثانوية التى أرسلها فى ١٢ من يوليه سنة ١٨٩١ . فبعد أن يبشره بأنه حصل على هذه الشهادة يقول مباشرة :

ولكنى أؤمل أن تعود إلى القوى ، لأدخل مدرسة الحقوق الخديوية ، فقد عزمت على الانضمام إلى صفوف طلابها ، لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم . وأنت تعلم أنى أميل إليها كثيراً ، وعزمت كذلك على تأسيس جمعية اسمها « جمعية إحياء الوطن » ، و ربما دهشت من إقدامى هذا لضعفى الذى تعلمه فى اللغة الفرنساوية ،

ولكن اعتمادى على الله وعلى نفسى أكبر ضمان لنجاحى ، والله الموفق إلى أقوم سبيل » .

ثم يختم هذه الرسالة الصغيرة المبينة بعبارة تفيض إنسانية :

« دادتى حليمة ترجوك ألا تكون شديداً على العساكر السود ، فإنهم أهل غدر ، ويحملون الضغينة ، وأنت خير من يحسن معاملة الناس ؛ حفظك الله » .

هذه الرسالة قطعة حية من شخصية مصطفى كرسالته إلى السيدة جوليت ، كحديثه مع هذه الكاتبة الفرنسية الكبيرة .

فهى أولا غاية فى الإيجاز وآية فى الوضوح ، ونموذج للحسم الرائع الذى لا يعرف ترددا ، ومثل لتبين الهدف بمزاياه ومتاعبه . فقد كان ممكنا أن تصبح هذه الرسالة برقية فليس فيها حرف واحد زائد ، فهى تتضمن :

أولا : نبأ الحصول على الشهادة الثانوية باقتضاب وبلا فرح غير لائق برجل وبغير غض من قيمة هذه الخطوة التى يسميها : « عقبة كؤود » .

ثانياً : قرار دخوله مدرسة الحقوق .

ثالثاً : تفسيراً لهذا القرار لأنها مدرسة حقوق الأفراد والأمم .

رابعاً : نبأ عزمه على إنشاء جمعية لإحياء الوطن .

خامساً : علمه سلفاً بأن ضعفه فى اللغة الفرنسية يجعل انضمامه إلى مدرسة الحقوق أمراً شاقا ولكنه يعلق قائلا : « إن اعتمادى على الله وعلى نفسى أكبر ضمان للنجاح » .

ثم تأتى هذه الإشارة التى تشعر بصغر سنه : بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة ، فيشير إلى « دادته حليمة » ويحس بالحنو والحب لهذه الدادة ، دون أن يرى لهذا الحب أو الحنو لفظاً يعبر عنه ، ولكن الإكبار من شأن رأيها والاهتمام بتبليغه إلى أخيه يكفى إعلاناً عن هذا ، وهو ينقل نصيحتها الساذجة بحروفها ، ثم يختمها بأجمل ما يختم به كلام « وأنت خير من يحسن معاملة الناس » .

ألا ترى فى هذه السطور ملامح زعيم ، يرصد قصده ويذهب إليه توّا بلا إبطاء ، ولا إمهال ولا تردد . ألا تراه يرى الخطوات التى تكمل بعضها بعضاً : شهادة الثانوية تفضى إلى دراسة الحقوق ، ودراسة الحقوق هى معرفة حقوق الأفراد والأمم ، ومعرفة هذه الحقوق تؤهل لإنشاء جمعية إحياء الوطن .

ثم يدخل مدرسة الحقوق الخديوية ، ويدخل فى الوقت نفسه مدرسة الحقوق الفرنسية . قرار يتسم بكل صفاته وخصائصه : القدرة على إصدار القرار ، وتحمل تبعات القرار ، فإذا جاء الخديو عباس لزيارة المدرسة العليا ألقى مصطفى كامل بين يديه قصيدة من شعره الساذج البسيط :

بشرى الحقوق بسيد الأمراء كنز العلا عباس ذى النعماء
بشراك يادار العدالة والهدى بمليك مصر وأوحد العظماء

وهذه القصيدة أيضاً قرار من قرارات هذه الشخصية الناضجة نضجاً مبكراً ، فقد كانت خطواته الأولى نحو إحياء الوطن والخديو عباس شاب فى مثل سن مصطفى كامل تماماً ، وزيارته لمدرسة الحقوق هى إيماءة إلى أنه يحب هذا الطراز من الثقافة ، لأنها عدة الذين يمكن الاعتماد عليهم فى مقاتلة الإنجليز . فالقصيدة هى عربون الود بين أمير البلاد الشاب الذى تبدو عليه شمائل الوطنية ، وبين الزعيم الشاب الذى عرف منذ اليوم دوره وقرر أن ينهض به . والقصيدة تجعل اسم مصطفى كامل معروفاً ، والشهرة من عدة الزعماء وعتادهم . والوقوف بين السامعين : أمراء ووزراء وأساتذة وزملاء هى تجربة من تجارب النفس التى لن تستطيع أن تترك أثرها وتؤدى عملها وتشق طريقها إلا بمكابدة متاعب التحدث إلى الناس بما تسببه هذه المحاولة من إجهاد للنفس وإرهاق للأعصاب .

من خصائص شخصيته البارزة التى تخطئها العين اتقاد وجدانه واشتعال عاطفته ، فهو لا يستطيع أن يتناول شيئاً ولا أن يخاطب شخصاً ، ولا أن يؤيد رأياً ، ولا أن يهاجم رأياً بغير مبالاة أو بتردد ، فأنت تشعر

فى كل ما يقوله أو يكتبه بقلب ينبض وإحساس يتفجر وعاطفة تتحدث عن نفسها فى عبارة مفيضة ومؤثرة معاً .

وتظهر هذه السمة أوضح ما تظهر فى رسائله إلى أخيه ، وإلى أصدقائه محمدفريد وفؤاد سليم وعبدالرحيم أحمد وأمه الروحية جولييت آدم ، تحس أنه يحبهم بكل قلبه ، وأنه يود أن يثير فى قلوبهم له حبا مماثلا . وإنه فى هذه العاطفة دائماً الطرف الفعال الموجب لا الطرف السالب المتلقى . هو الذى يخطب الود ، وهو الذى يعاتب ، وهو الذى يشتد فى العتاب ، وهو الذى يؤنب ويصفح ، ويطلب المزيد من الود والحب . وهو يحب إخوته ، وهو يحب أمه ، وهو يحب أصدقاءه ، ويحب الذين أحسنوا إليه ولا ينساهم قط فى المحنة . وفى رسائله فيض من تقبيل الوجنات والسؤال عن الأولاد والأهل والمرضى والغائبين .

يروى على فهمى أنه وصل إلى القاهرة من سواكن بالسودان التى كان يعمل فيها ضابطاً فجر يوم الخميس ٣٠ من مارس سنة ١٨٩٣ فسمع من إفريز المحطة من يناديه فى هذه الساعة المبكرة التى يحلو فيها النوم ، فإذا هو مصطفى ، ما كاد يرى أخاه حتى تعلق برقبته معانقاً ، ثم سار خلف الجنود ، حتى وصل إلى ثكناتهم ، فلما وضع «على» سلاحه خرج ومعه مصطفى لا يفارقه ، ثم واظب على زيارته كل ظهر ليتناولا الغداء معاً فى ثكنة الضباط المسماة فى تلك الأيام « القشلاق » . وقد مر بنا كيف أن وفاة أخيه عبدالفتاح التى وصله نبؤها وهو فى قهوة كافيه دى لابيه بباريس ، أفقدته الوعى ، ثم أنزلت به المرض ، وألزمته أن يعود إلى بلاده سريعاً مع أنه لم يكن قد مضى على وصوله إلى فرنسا إلا وقت قليل . ولما حصل على شهادة الحقوق كتب لأخيه على يقول : « إنى أؤكد لك أنى ما سررت بفوزى فى هذا الامتحان إلا لأرضى سيدى البار أخى الرحيم حسين أفندى واصف » .

أرسل من باريس إلى صديقه فؤاد فى ٢٥ من يونيه سنة ١٨٩٥ يقول :

« لم يكن عهدى بودكم لحظة أو ساعة بل كان عهدى به أعواماً وأجيالا لا يغيره البعد ولا النوى. مضى على شهر بباريس وأخباركم عنى منقطعة ، فلا رسالة ولا سؤال ولا جواب » . ثم يضيف إلى آخر الرسالة حاشية يقول فيها : « أرسلوا رسائلكم مسجلة ألف تسجيلة » .

وفى رسالة تالية يقول من باريس أيضاً :

« استمر فى مراسلتى ، واعلم أنى لا أشتاق لأحد فى مصر ، حتى من أهلى أكثر من اشتياقى إلياك ، فإنى ما كنت أعلم قبل اليوم أن لك يافؤاد فى فؤادى هذه المنزلة العاليا ».

وفى رسالة تالية : تسلمت يوم الاثنين الماضى أول يوليو رسالتك الأولى المؤرخة فى ١٩ يونية ، فطرت فرحا وسروراً وابتهجت أحسن الابتهاج .

هذا وأرجوك ألا تحرمنى من رسالتك الجميلة الظريفة ، وإنى لأشكرك أحسن الشكر على إهدائك لى صورتك العزيزة ، فهى دليل بقائك مخلصا فى ودادى صادقا فى محبتى كما كنا دائما بل فوق ما كنا . . وكأنك علمت مقدار شوقى لرؤيتك وحنينى للاجتماع بك والتلذذ بمحادثتك واستطلاع آرائك العالية وإحساساتك الشريفة فأهديتنى بصورتك التى تمثلك أمامى فأحييها ألف تحية ، وفى الحقيقة أحييك ، أحيى صادق ودك وخالص عهدك . دمت لى ودمت لك » .

وفى رسالة ثالثة :

أشكرك شكر الرمضاء للسحاب على هذا الوداد الذى إن تشخص كنت أنت شخصه ، وإن كان لفظا كنت معناه أو معنى لفظه ومعناه ، فعسير على مهما تراءت ألفاظ البلاغة ووسائل التعبير أن أصف لك السرور الذى خالج فؤادى وكل جوارحى بقراءة رسالتيك الأخيرتين ولاتسل كم مرة قبلتهما وكم طرت فرحا لما علمت أنك ستشرفنا فى شهر نوفمبر القادم » .

وفى رسالة رابعة :

« بعد تقبيل وجنتيك . . تقبيل أخ كله شوق إليك وكله اشتياق ، أخبرك بأنى لم أتسلم منك كتابا من نحو خمسة عشر يوما خلافا لعادتك مما زاد تلهفى عليك » .

وفى رسالة خامسة :

« تسلمت أول أمس رسالتك المؤرخة ١٧ سبتمبر ، وبتلاوتها سررت كثيراً مما جاء فيها من اللطائف . ولكن ماختمتها حتى شعرت بألم شديد فى فؤادى وأظنه مسببا عما بدا لى من أنك لاتأتى فى نوفمبر إلى باريس وخصوصا أنى سألتك هذا السؤال مراراً وإلى الآن لم تفدنى ، فطمنى بالله عليك ، فإنى بشوق فريد إليك ، فلا تمر لحظة واحدة حتى أشاهد صورتك المحبوبة ، حفظك الله لأهلك ولى » .

أما رسائله لمحمد فريد ، صديقه وخليفته ، فتجرى خلالها هذه النبرة ، فيقول له فى رسالة مؤرخة ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨ :

« غاية رجائى من الله — إن لم يسمع نداءنا ويخلص أوطاننا — أن يحفظ لى ودك الصادق وحبك الطاهر ، تقبل ألف ألف سلام من خير صديق لك ، ومن أخيك الشاكر العارف للجميل » .

وفى رسالة أخرى أرسلها بعد أسبوع يقول :

« دم أنت ألف مرة وألف عام لأخيك المخلص » .

ويقول له فى رسالة أسبق من تلك الرسائل مؤرخة فى ١٩ من يولية سنة ١٨٩٨ :

« مابيننا من الود والإخاء يجعل مالك مالى ، ومالى مالك ، وحياتى حياتك ، وحياتك حياتى ، هذا ماأعتقده وماتعتقده أنت ، فروحى وروحك بالود والإخلاص فى كل لحظة وكل آن ، ودمت لى أخا وفيا صادقا ، ودمت معى خادمين صادقين للوطن المحبوب » . ويقول له فى رسالة أخرى : «سأكتب لك كل أسبوع ، ولاتنس العائلة ، وأرسل سلامى لكل أفرادها »

ويقول فى رسالة تالية : « إذا قابلت شوقى بك (أمير الشعراء) فقبله لى مرتين». وهكذا، فأنت مع رسائل مصطفى كامل أمام فيض من العواطف يشمل الجميع ، فإذا انتقلنا إلى رسائله إلى صديقه عبد الرحيم أحمد الذى كان يعمل فى ديوان الخديو ، والذى كان فى الوقت نفسه ، صلة الوصل بين مصطفى والخديو[1] فنحن أمام العاطفة المتدفقة نفسها ، وأمام صديق يشكو من تقصير أصدقائه ، وعدم وفائهم لعاطفة نحوهم ، ووده إياهم . مع انشغال باله بأحوال أخيه على فهمى الضابط الذى كان البريطانيون قد بدأوا يضطهدونه . فى رسالة فى الثامن من يونية سنة ١٩٨٥ (والرسائل كلها فى هذه السنة) يقول مصطفى :

« انتظرت ورود رسالة واحدة منكم فلم يتحقق سعدى بذلك مما جعلنا فى اندهاش وحيرة » . وفى آخر الرسالة : « لاتنسوا شقيقى فهمى عساه ينقذ من نارسواكن » .

وفى ٤ من أغسطس قال :

« وصلت إلى باريس منذ يومين بصحة جيدة والحمد لله — وقد كنت أعلل النفس قبل حضورى إلى باريس بأن أجد منك رسالة أو رسالتين ؛ فلما وصلت وقلبت ماوجدت من الرسائل لم أجد شيئا مذكوراً ، ولست أدرى ماداعى تأخيرك عن مراسلتى وأنت تعلم أنها فى الحقيقة داعى بلبالى واشتعال بالى .

« فأسألكم بحق الوطن وحبه أن تفيدونى عن صحة (هذه الأخبار) وألا تخفوا عنى شيئا ما . وهل علمتم أن أخى استعفى من خدمة الجيش أولا ، فإنى لست أدرى » .

وفى رسالة مؤرخة ٩ من أغسطس يعود إلى حديث أخيه فيقول :

« ورد لى كتاب من شقيقى فهمى يخبرنى أنهم يعاملونه بقسوة غريبة

---

(١) صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل — نشر الدكتور محمد أنيس .

جداً جداً ، وأنه يريد أن يستعفى ويستشيرك ، فأنا أكتب بعد رسالتك هذه مشيراً عليه بالاستعفاء ، وأملى أنكم لاتقصرون فى عمل اللازم لتعيينه فى وظيفة مترجم بالأوقاف بمبلغ ١٠ جنيهات » .

ويختتم بقوله : أسألكم مراسلتى على الدوام ، ولو تنقصكم الأوامر السامية (ويقصد هنا الخديو) فإن رسالة منكم تسرنى كثيراً وتشرح صدرى . فاسعوا فى سرور من لايسعى إلا فى خلاص وطنه المحبوب ، وإنقاذه من الخطر العظيم » .

وفى الرسالة الثانية يقول : «أنتظر رسائلكم بالصبر النافد» ، ويختم الخطاب بقوله : « اجعل كتاباتك طويلة وافية ، فإنى بشوق إليك ، وكتاباتك تمثالك أمامى » .

وفى رسالة فى ٢٣ من أغسطس يقول :

« قضيت هذا الأسبوع كله منتظراً منكم رداً على رسالتى التى أرسلتها من فينسيا ، فلم أحظ بنوال هذه البغية العزيزة ، ولاتنسوا إخبارى بأمر استعفاء شقيقى متى فهمتم بذلك » .

وفى رسالة أرسلها فى ١٤ من سبتمبر يقول :

« أخبركم بأنى لم أتسلم منكم من نحو ثلاثة أسابيع رسالة ما ، كنت أنتظر معرفة حكمكم وحكم الرأى العام عندكم عن الرسالة الأخيرة (أخطار الاحتلال البريطانى) ، ولكنكم بخلتم علينا ، فصبراً صبراً » .

وفى الرسالة المؤرخة ١٨ من سبتمبر سنة ١٨٩٥ فاضت المرارة بمصطفى كامل ، وعزّ عليه استجداؤه الرسائل ممن يتصل بهم من أجل العمل العام إلى جانب أنهم من أصدقائه ، فقال :

« ترانى من يوم مبارحتى الإسكندرية وأنا فى بلبال أشتغل بغير سكون وراحة لما يصل إلى من الأخبار المكدرة ، وإنى وإن كنت أعتبرها من الصعوبات التى لابد من قيامها فى وجه رجل مثلى أخذ على مسئوليته

أخطر الأمور فإنى أتعجب كثيراً من أن الذى يقيم هذه الصعوبات فى وجهى هو من أبناء وطنى ومن أعز أحبائى ، وأرحمهم قلبا ، وأكثرهم رضاء على ، بخيل بكتاباته لايراسلنى إلا كل شهرين مرة على أنى أراسله أسبوعيا وأريد بذلك أنت أيها العزيز ، فها أنا ذا قد مضى على فى أوروبا أربعة أشهر ونصف أرسلت لك فيها نحو ثلاثين رسالة ، وأنت لم ترسل إلى إلا ثلاثا فقط على أنك (وأنا أعلم منك ذلك) يلذلك أن تنتهز فرصة مكاتبتى لخدمة الأوطان معى فلم لم تراسلنى ؟ »

ولكن الشيء العجيب فى تكوين مصطفى كامل المزاجى أنه مع هذه العاطفة المتدفقة لايفتقد عقله ، ولا يتطوح مع الخيال ، ولايقول حرفا واحداً لايريد أن يقوله ، فهؤلاء الذين يحبهم ويسرف فى حبهم ، ويتلهف على رسائلهم ، ويبثهم أشواقه عن بعد ، ويشتد فى لومهم إذا تأخروا فى الكتابة إليه ، هم معاونوه فى العمل العام ، وهو بهذا الأسلوب العاطفى الصادق ، يستثير فيهم عاطفة الوطن ، ويقدر فيهم لاالعطف عليه بل العطف على الوطنية التى يدافع عنها ، والمبدأ الذى وهبه جهده وحياته وماله . أفتكون عاطفته هذه هى إحدى حيل نفسه التى فنيت فناء تاما فى حب مصر ، فأصبح كل مايقوله ويعمله ، وما يحسه ويشعر به راجعا إليها ، وصادراً عنها .

وقد بلغ من شدة حرصه على التزام مقتضيات العمل ، وترك الحماسة جانبا ، أنه أرسل إلى أخيه الذى يكبره رسالة فى ١٢ من مايو سنة ١٨٩٥ ، قبل أن تتم اللوحة التى قدمها إلى رئيس مجلس النواب فى ٤ من يونية سنة ١٨٩٥ ، قال له فيها : « إنى أصرح لك بأن صدرك سينشرح عندما تقف على ماسأعمله خدمة لبلادنا التى لا عزّ لنا إلابها ، فقد أوصيت على صورة سياسية تمثيلية لأقدمها مع عريضة سياسية لمجلس النواب الفرنسى . . وإنى أرجو منك ألا تذيع هذا النبأ لأنى

ممن يتمسكون بقول النبي الكريم : استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » .
ولما أرسل إليه عدد من الضباط الذين كانوا يعملون مع أخيه في سواكن في ٢٤ من يونية سنة ١٨٩٥ عريضة تأييد قالوا له فيها : « اقبل شكرنا ، واعلم أن روحنا طوع إشارتك في خدمة هذه البلاد» ؛ أرسل إلى أخيه رسالة يقول فيها : « من الحكمة ألا نمكن العدو من رقابنا ، بل نجتهد في توجيه السهام إليه مع احتراسنا من سهامه . وإني لاأود أن يدخل الضباط في حركتنا دخولا ظاهراً ، لأن هذا يضر بالمسألة المصرية ضرراً بليغا حين يجد الاحتلال مسوغا لاختلاق التهم الثورية » .

ولاشك أن شابًا في مثل سن مصطفى كامل في تلك السنة ، التي لم تكن تتجاوز الحادية والعشرين ، كان يحتاج إلى ضبط نفس شديد ، لكيلا تدير رأسه رسالة كرسالة الضباط زملاء أخيه ، فقد كان جديراً بأن يلعب به الخيال والكبرياء الوطني ، فيحسب نفسه زعيما تحت إمرته ضباط وأنه قادر على أن يتخذ من هؤلاء نواة لعمل عسكري ، وقد تجره الأحلام إلى أكثر من ذلك ، والرأي العام المصري لم ينضج بعد ، وحركة الوطنية لاتزال في بدئها . .

وقد تعجب حينما ترى هذا الذي يتدفق عاطفة ، وقد أصبح قادراً على أن يحيط بالتفاصيل العملية ويذكرها بالدقة ، متتابعة ، وإليك فقرة من رسالته من طولوز في يولية سنة ١٨٩٥ إلى صديقه عبد الرحيم أحمد ، وهو يروي له أنباء خطبته التي ألقاها في طولوز ، لينفي عن نفسه تهمة التبذير ، وليؤكد أنه ملتزم الاعتدال أو التقشف ، قال[١] :

« هذا وإني دعوت بالأمس بعض الرجال الذين خدموني وساعدوني هنا في نشر الإعلانات وتحضير قاعة الخطابة ، واليوم أدعو أرباب الجرائد ،

---

(١) صفحات مطوية من حياة الزعيم مصطفى كامل ، ص ٤٠ .

وأخطب فيهم خطبة قصيرة توافق المقام .

وأحقق لكم أن حضورى هنا أكسب مصر كل طواوز ، وخصوصا رجال التحرير فيها الذين صاروا تحت أمرى ورغبتى (بلا ثمن) . لا تسل عن المصاريف التى صرفت لأجل هذه الخطبة من سكة حديد (١٢٠ فرنكا ذهابا وإيابا) — ١٦ ساعة مسافة السكة الحديد ، وأجرة القاعة والخدم والإقامة والولائم وطبع الخطبة وتوزيعها وإرسالها بالبوستة ، كل ذلك وصل إلى نحو ٦٥٠ فرنكا ، ولكنى مع الاعتدال والتدبير لاأصرف إلا مايوافق المصلحة ويعود نفعه على خدمة مصر» .

وهذا التوازن الرائع بين العاطفة والروح العملية ، تجد مثله توازنا بين المرونة والسياسة ، ورفض الإهانة ، فكل مايقضى به الوصول إلى النجاح من أجل الفكرة العامة مقبول ، وكل إهانة أو تعال أو تجاهل مرفوض ، ويرد على صاحبه فى الحال .

فإذا نصح مصطفى كامل صديقه عبد الرحيم أحمد أن يساير النائب الفرنسى ديلونكل الذى كان يدافع عن قضية مصر ، وحقوق مصر فى مواجهة الاحتلال البريطانى لانتمائه إلى العصبة الاستعمارية الفرنسية المخاصمة والمعادية لبريطانيا وتوسعها على حساب فرنسا ، وكان فى مصر عدد من الفرنسيين والأجانب المتعاونين مع الخديو عباس فى جهوده ضد بريطانيا ، مثل المسيو بوترون Bouteron رئيس اللجنة المختلطة للدومين [1] أى الأطيان المملوكة للحكومة والتى عرفت فيما بعد بالأملاك الأميرية ، والمسيو بروفيرس Precuier رئيس المحكمة المختلطة الابتدائية بالقاهرة ، والمسيو Pront المندوب الفرنسى فى إدارة سكة حديد الدلتا ، والمسيو ارشيد جافيو

---

(١) صفحات مطوية من حياة الزعيم ص ١٩

الأمين Rouis Roviller رويه ورونذا الصــحفى Gavillot بالقلم الأوروبى بقصر الخديو وهو سويسرى الجنســية . وكان هؤلاء الأجانب يفضلون بطبيعة الحال أن يخلوا ميدان الدعاية المصرية فى فرنسا لفرنسى مثلهم ، يشعر بشعورهم ، ويعمل لمصلحة بلده ، ويأتمنونه على أسرارهم وأسرار الخديو ، كما يأتمنهم على أسراره واتصالاته ، فقبل مصطفى كامل أن يدارى ديلونكل هذا ولايغاضبه حتى لايغضب الخديو الواقع تحت تأثير الأجانب المحيطين به والذين يصورون له أن النجاح فيما ينصحون به ، وأن مصطفى غير مجرب ، ولا يدرى من شئون سياسة فرنسا مايدريه ديلونكل . فكتب مصطفى كامل فى هذا الشأن مانصه :

« ديلونكل يحب علو اسمه ، ويسعى لذلك ، فتراه لايسر مطلقا إذا رآنى تعارفت مع أحد ، لأنه يريد أن أكون طوع يمينه، ومع ذلك فهو ينفعنا ، وإن هو احترس ولم يظهر الخفة لايضرنا ، وعلى كل حال سياستى هنا سياسة الكسب لاسياسة الخسارة ، فإنى أستولى على فكره بالقول الطيب واللسان الحلو الذى يخدمنا ، كما أنى أستولى على غيره ، وبقليل من حلو الكلام يستخدم الإنسان كثيراً من الرجال . .

« وفى الختام أريد أن أوضح لكم فقط سياستى التى إذا رضى عنها من لاأغفل لحظة عن الدعاء له بالدوام والعز وبلوغ الآمال سرت عليها ، وإن كانت هناك إشارة أولا عملت بها — سياسة المسايرة والمسالمة والملاطفة مع كل الناس وبالأخص مع المسيو ديلونكل ورفاقه » .

ولكن هذه المسايرة والمسالمة تنقلبان إلى بركان يقذف بالحمم ، فبعد أن يقول ماقاله مما نقلناه الآن يقول فى رسالة أخرى فى أغسطس سنة ١٨٩٥ : « أنا لاآمل من الثبات وتحمل القول المر ، ولا أقف عند نقطة مادام المقصد شريفا ، وأى شرف بعد إعلاء كلمة الحق ، وخدمة الحرية والأوطان » .

ينفى فى رسالة سابقة له إلى صديقه عبد الرحيم أنه لم يكتب لأحد أعضاء حاشية الخديو عباس ، وهو يوسف بك صديق بن إسماعيل باشا المفتش ، وكان قاضيا فى تلك السنة بالمحاكم المختلطة ، ويعتبر عضواً فى اللجنة الأوربية التى ذكرنا أعضاءها ، وكان بحكم اتصاله بالفرنسيين والسويسريين يحقد على مصطفى كامل ، ويدس له الدسائس ويقترح إعادته من فرنسا ، فيعلق مصطفى على هذا اللوم بحدة ويقول : « وربما تلوموننى على عدم مكاتبة ذلك الصديق ، ولكنى أخبركم أن من طباعى — وربما عرفتم ذلك — أنى حر فوق مرتبة الأحرار لاأخالف ماتأمرنى به سريرتى ، ولاتأمرنى — كما تعلمون — إلا بما فيه رعاية مصلحة بلدى العزيز والوطن المحبوب ، ومافيه صيانة الذمة والشرف » .

ولكنه يصل إلى أبعد من ذلك ، فهو يقول لصديقه عبد الرحيم أحمد فى ٢٥ من يناير سنة ١٨٩٩ : « أرجوكم أن تنتهزوا الفرصة اليوم لتطلبوا من سمو مولاى أعزه الله أن يتكرم على بتحديد مقابلة خصوصية أنفى فيها عن نفسى مانسبه ذوو الأغراض لى ، ولكى أعلم إذا كان سموه لايريد نهائيا مساعدتى فى خدمة بلادى ، حتى يتيسر لى عندئذ أن أعمل ماأريد فى مصر أو خارجها ، عاجلا أو آجلا ، وإنى منتظر منك الرد هذا المساء أو غداً ، لأنى لاأريد قضاء الأيام والليالى فى الانتظار » .

وفى ١١ من فبراير ، أى بعد أقل من شهر ، ذهب مصطفى خطوة أبعد فقال لصاحبه عبد الرحيم : « فإن كان لمولانا أعزه الله رغبة فى تشريفى بمقابلته فلتحددوا لى هذه المقابلة هذا الأسبوع ، وإلا فإنى أحمل كل هذا التأخير على عدم حاجتكم إلى خدماتى . . وأظنكم لاتلوموننى إذا عملت من أول الأسبوع الآتى بغير استئذانكم أو انتظار تبليغاتكم » . وبعد ثمانية أيام أرسل إلى صديقه عبد الرحيم :

« أخبركم أنى عزمت عزما نهائيا على مبارحة الوطن المحبوب

الأسبوع القادم ، وأرجو أن ترفعوا هذا النبأ إلى مولاى أعزه الله » .

وقال : لقد فات الميعاد بعد الميعاد ، وانقضت أيامى بين الملل والانتظار ، ولاأجد فى إقامتى فى مصر إلا ضياعا لفرص عزيزة وتحسراً على حظ الملك والبلاد . ولعلكم تفهمون مقدار تألمى من كل ماكان وما أنتم عالمون به حق العلم ، فقد مضى فى مصر أربعون يوما وأنا انتظر الأمر العالى بتشرفى بمقابلة العزيز حفظه الله . .

« وعلى أى حال فأنا مبارح الأوطان غير نادم على ماكان ، بل متخذاً ما رأيته وعلمته دروسا لى أستفيد منها فى المستقبل .

« وفى الختام أهديكم عاطر تحياتى ، وأسأل الله تحقيق الآمال وإرشاد رجال الأمير إلى مافيه خيره ونفع البلاد » .

فهذه السطور تكشف عن السمة الكبرى لشخصية مصطفى كامل ، فهو بعد كونه وطنيا ، الوطنية الهامة ونبراسه ، وخطته ومنهاجه ، ومصدر قوته ، وهدى خطته ، فهو « حر فوق مرتبة الأحرار » ، ومعنى الحرية هنا أنه لايعمل إلا لحساب عقيدته ، فلا يستعبده أحد بماله ، ولابنفوذه ولابما يثيره فى نفسه من أطماع السلطة أو الجاه . ولذلك هو يتلطف للخديو ، ويستعمل لغة القصور فى الحديث عنه ، وفى الحديث معه ، لاطمعا فيه ولارغبة فى التزلف إليه ، ولكن ليخدم قضيته الكبرى وليستغل الخديو من أجل هذه القضية ؛ فإذا بدا له أن الخديو يخشاه ، أو يخشى الدنو منه أو التعامل معه ، اتقاء لبطش البريطانيين ، فما أيسر أن ينأى عنه مصطفى كامل ، ويسقطه من حسابه تماما ، كما رأينا . وسنزيد بطبيعة الحال هذا المعنى فى موضع آخر بإذن الله من هذا الكتاب ، إنما حسبنا أن نقول إن صفة مصطفى كامل الأصيلة هى الوطنية والصلابة ، وإن المرونة صفة طارئة ، وهى مرونة الوطنيين وسياستهم ، وثمة فرق بين وطنية السياسيين ، وسياسة الوطنيين ،

فالسياسيون لايفكرون إلا فى الصالح العارض لحزب ينتمون إليه ، أو حكومة يرأسونها ، أو حاكم يخدمونه ، وقد يضطرون إلى انتهاج الوطنية مسلكا مؤقتا ، فهذه هى وطنية السياسيين . أما سياسة الوطنيين فهى مايلجأ إليه الوطنيون من التضحية أحيانا بالقليل من أجل الكثير ، وبالطارئ من أجل الخالد ، وتحمل الأذى الشخصى فى سبيل العقيدة العامة ، واصطناع الصبر مع الأراذل والمتعالين ، لاطمعا فيما بين أيديهم من مال أو جاه أو سلطة ، وإنما طمعا فى توجيه مالهم وجاههم وسلطتهم فى سبيل المبدأ .

والخاصية البارزة من خصائص شخصية مصطفى كامل الإنسان ، هى جلده على العمل وحبه له ، وحرصه على القيام بالتفاصيل والاهتمام بها إلى جانب الكليات .

قال فى رسالة إلى صديقه عبد الرحيم أحمد أرسلها إليه من باريس : « مرسل لكم بالبوستة ثلاثون نسخة من الرسالة التى نشرتها أخيراً بشأن خطر بقاء الإنجليز فى مصر ، ولعلها تسركم وترضيكم كما سرت هنا فحول السياسيين وعظام الباحثين المدققين ، وقد أرسلت منها عدداً عظيما فى كافة أنحاء أوربا ، وقضيت طوال هذا الأسبوع فى تسفيرها وإرسالها » : فهو يهتم بإرسال الرسالة التى حررها وترجمها إلى الفرنسية وأشرف على طبعها تصحيحا ومراجعة ، ثم يقوم بوضعها فى المظاريف ، ويكتب عناوين المرسل إليهم ويضعها فى صناديق البريد . وهو يقول للصديق نفسه : « فليس فى عينى أجمل وأكمل من رجل يعتمد على نفسه قبل اعتماده على غيره ، وهذا الاعتماد على النفس يقتضى الإنسان أن يقوم بعمل الجماعة وهو فرد » .

ولو أخذنا مثلا ما قام به مصطفى كامل فى سنة ١٨٩٥ لهالنا هذا الجهد المتصل المتنوع ، فهو فى أول السنة يجرى حديثا مع شقيق اللورد

كرومر ، والكولونيل يارنج ، وهما معا على ظهر السفينة التى عاد به إلى مصر ، فإذا علقت جريدة الاحتلاليين على هذا الحديث بأنه حديث خرافة ، رد عليها بمقال ، ثم أتبع ذلك المقال بمقالين فى الأهرام بعنوان : التهديد الباطل وصواعق الاحتلال ، على التوالى ، والأخير منهما احتجاج صارخ على إنشاء المحكمة المخصوصة ، ثم يسافر فى الحادى والعشرين من مارس إلى الإسكندرية ليستقبل ديلونكل النائب الفرنسى ، ثم يصحبه خلال إقامته فى مصر ، ويقيم له فى أبريل سنة ١٨٩٥ حفلة تكريم ، ويخطب فيها ، ثم يودعه فى الميناء عند عودته إلى بلاده ، ثم ينشر مقالا فى الأهرام عن سياسة الدول الكبرى فى الشرق الأقصى ، وهو فى واقع الأمر بحث فى السياسة الدولية ، ثم يسافر إلى فرنسا ويرسل مقالا للأهرام بعنوان « من أين يأتى الخطر » ؟ ويقصد من أين يأتى الخطر للقضية المصرية ، ثم يقدم فى الرابع من يونية من السنة نفسها العريضة المصحوبة باللوحة الملونة إلى رئيس مجلس النواب ، فيثير تعليقات صحف العالم فى فرنسا . تعلق عليها الجولوا ، والكان ، والديبا ، والروبليك فرانسيز ، والفيجارو ، والبتى جورنال ، والسولى ، والانترانسيجان ، والراديكال ، والفريتيه ، والسييكل ، والإكلير ، والماتا ، والباترى ، وفرانس ، والليبرتيه ، كما تعلق عليها فى إيطاليا والنمسا وإنجلترا الصحف الكبرى ، حتى النيويورك هيرالد فى الولايات المتحدة تقول رأيها فيها ، ثم يعود إلى نشر المقالات فى الأهرام فينشر مقالا بعنوان كلمة إلى المدلسين ، ثم يجرى حديثاً مع جريدة الجورنال الفرنسية ، ثم يلقى خطبة فى مدينة طولوز ، فتثير الخطبة تعليقات فى صحف فرنسا مثل (الديبش) والجورنال ، كما تثير تعليقا من صحف خارج فرنسا كالاكستراجيلاط فى فيينا وتعليقات من صحف بريطانيا التى تنهال على مصطفى كامل بأقذع ألفاظ السباب ، ثم يقيم مأدبة للصحفيين والسياسيين وأهل الرأى فى طولوز رداً على حفاوة هؤلاء وصحفهم به

وبخطبته وبشخصه ، ويغادر طولوز إلى ألمانيا حيث يلقى الصحفيين والنواب ، ومنها يعود إلى باريس ، ويشفق أخوه على من هذا النشاط المتصل أو قل المحموم ، فينصحه بالرفق بصحته ، والاتئاد في العمل والسهر ، فيرد عليه برسالة فى ١٨ من يوليو سنة ١٨٩٥ : « لاتحسب أنى أديت ماعلى لبلادى من الدين الكبير حتى إذا قيل لك إن أخاك يردف الحديث بخطبة ، ويتبع الخطبة بمناقشة ، ويقضى على أثر المناقشة بمقالة ، فليس هذا كله شيئا . وإذا كان من يعشق فتاة جميلة لايهدأ له روع ، ولايهنأ له بال ، إلا إذا وفر لها صنوف السعادة والرفاهية ، فما بالك بمن يعشق فتاة الدهر ، وأم العجائب ، مصر ؟ هل يعذر هذا العاشق إذا لم يسل روحه على قدميها إذا اقتضت الحال ؟ » .

ثم يكتب مقالا فى الأهرام بعنوان « ما وراء السياسة الإنجليزية الحاضرة » ، ثم يصل إلى فيينا فى أواخر يولية ، فتجرى معه جريدة الاكسترا تاجبلاط حديثا ، ثم يعود إلى باريس فى أوائل أغسطس من السنة نفسها لينشر فيها رسالته الصغيرة : « أخطار الاحتلال البريطانى » ، فتتلقفها الصحف بالتعليق والترحيب والنقد والثناء والهجاء ، فى مختلف الصحف على تباين نزعاتها وميولها ، وتخصها مدام جولييت آدم بمقال فى جريدة « البتى مارسيليه » .

وفى آخر أيام أغسطس يقيم مصطفى احتفالا بعيد جلوس السلطان العثمانى ، وذلك فى فندق من فنادق باريس ، ثم تلغى الحكومة المصرية تحت ضغط سلطة الاحتلال البعثة المصرية فى باريس ، فتجرى جريدة « الإكلير » مع مصطفى فى سبتمبر من السنة نفسها حديثا ، فتعلق عليه فى الأيام التالية صحف فرنسا ، وفى مقدمتها جريدة (الطان) ، ويختنق الاحتلال أويكاد من هذا النشاط الذى يؤلب عليه — أو يكاد يؤلب — الرأى العام عليه فى مصر ، والرأى السياسى فى فرنسا والنمسا وألمانيا ، بل فى بريطانيا نفسها ، فينفس عن غضبه وغيظه باضطهاد على فهمى

كامل الضابط فى الجيش المصرى بسواكن بالسودان . وفى ١٥ من أكتوبر فى السنة نفسها تنشر له مجلة « النوفيل ريفو » أولى مقالاته ، التى بدأت بها علاقته الحميمة مع مدام جولييت آدم ، وكانت بعنوان « إنجلترا والسلام » ، وجن جنون الصحف الاستعمارية ، وفى مقدمتها « دى استندارد » اللندنية ، فأمطرت مصطفى كامل وابلا من الشتائم ، ومالبثت جريدة « الجولوا » حتى طلبت حديثاً مع مصطفى تعليقاً على هذه الحملات ، فتم الحديث فى شهر أكتوبر ؛ وفى شهر نوفمبر نشر فى الأهرام ثلاث مقالات متتابعة ، الأول عن الوزارة الفرنسية التى شكلت آنذاك ، وهو مقال تحليلى للسياسة الخارجية يدل على اطلاع دقيق على هذه السياسة وتتبع ذكى لعمياتها وألغازها ، وخطاب مفتوح إلى اللورد سالسبرى رئيس وزراء بريطانيا فمقال فى مجلة «النوفيل ريفو» بعنوان «تحالف يتحتم» ؛ فإذا أوشكت السنة أن تنتهى ألقى مصطفى كامل خطبة فى الجمعية الجغرافية بباريس .

كم كانت هذه السنة مليئة بالحركة والبركة ، بالسفر والانتقال ، بالخطبة والحديث والمقالة والرسالة ، والحفلة والاستقبال . ونحن إذ نذكر هذه الأعمال نحسب أنها لا تكلف إلا بقدر الحروف التى نكتبها بها ، ولاندرى أن من وراء كل عمل من هذه الأعمال جهداً ينوء به الجسم والعصب معاً ، وتفكيراً يواجه المشكلات الصغيرة التى تفسد الأعمال الكبيرة ما لم تحل : الخطبة تحتاج إلى مكان لائق ، وموعد مناسب ، ودعوات تصل إلى المدعوين ، وتنظيم للقاعة ، ولطف فى الاستقبال والتوديع ، وعناية بالكبار والصحفيين . فإذا سهى عن شئ من هذا أو لم ينل حظه من العناية فسدت الخطبة وضاع أثرها أو لم يلتفت إليها إلا القليل ، القدرة على العمل والجلد على تحمل متاعبه تحتاج إلى صفة أخرى ، كان حظ مصطفى كامل فيها عظيماً ، تلك هى القدرة على التركيز . فمصطفى كامل كان قادراً أن يهب — كما سبق القول — حياة كاملة

للفكرة التى عشقها واستولت على كل جارحة فيه . والعقل المشتت ، المشغول فى الوقت الواحد بأكثر من عمل ، هو عقل قاصر وعاجز إن يصل إلى أقصى طاقته . أما العقل المستجمع لقواه ، والمحتشد للعمل الذى بين يدى صاحبه ، فهو عقل تتضاعف قوته ، ويفعل فى ساعة ما يعجز عن مثله الآخرون فى أيام . والقدرة على التركيز ، تبدأ فى أول الأمر بالجهد ، ثم تصبح عادة فتتحول إلى قوة وميزة .

والتركيز إعلان فى ذاته على صفات عقلية ونفسية أخرى لا يتم بغيرها . فهو ثمرة الإرادة القوية ، والإيمان بالعمل الذى يتناوله الإنسان . لقد كان مصطفى كامل قوى الإرادة إلى أقصى غايات الإرادة القوية . فقد دخل مدرسة الحقوق وهو يشكو من الضعف فى اللغة الفرنسية ، فلم يتقنها من أجل هذه الدراسة فحسب ، بل أتقنها ليخطب بها ويكتب ، وينطقها كواحد من أبنائها . كل ذلك فى سنين قليلة . فقد دخل مدرسة الحقوق سنة ١٨٩٢ ، وكان يخطب فى طولوز بالفرنسية فى سنة ١٨٩٥ ، ارتجالا ، بغير الاستعانة بورقة .

وآخر الأمر كان مصطفى كامل بكل لطفه وحرارة شخصيته ، وسحرها وجاذبيتها وشدة انفعالها بما تقول وما تفعل ، ولفتاتها الإنسانية ، وإتقانها للفن الرائع ، فن كسب الأصدقاء واستبقاء مودتهم واستثارة عواطفهم ، وتدفق بيانه ، ووضوح أفكاره ، واستقامة خلقه ، وتجرده من المصلحة الشخصية ، وترفعه عن الدنايا والصغائر ، وانقطاعه لمثله العليا ، وتفانيه فيها — بكل هذا استطاع أن يكون رسول الوطنية المصرية ، وأن يجعل منها قوة ، لا تنفد وطاقة لا تنتهى ، وحركة لا تقف ، وإيمانـًا لا يفتر .

وأوحى بمثاله العظيم لألوف من مواطنيه حب المبادئ التى وهبها حياته وحبب لهم الاقتداء به ، والسير على منواله فراح واحداً من أعظم الخالدين فى تاريخ أمته وفى تاريخ الإنسانية .

ولقد أحسنت مدام جولييت آدم التعبير عن هذه المعانى ، إذ قالت فى مقدمة كتاب « رسائل مصرية فرنسية » التى ضمت رسائله إليها :

« هو حيّ فى شخص الكل ، والكل يحيا فى شخصه ، وما يجئ من الحوادث لن يغير شيئاً من صورته وعنوان مجده ، وإن الفخر فى تحقيق آماله حين تتحقق يعود عليه ويرجع إليه لأنه لا شئ ينقص من فضل أول باعث لفكرة استقلال مصر ، لقد قامت عند وفاة مصطفى كامل مظاهرات لم تصدر من أمة أخرى أعظم منها ، وقد صار عمله كله حياً فى قلب كل مصرى ، لأن كل مصرى يفهم أن مصطفى كامل قد أحيا مصر ، إذ نفخ فيها من روحه ، وعندما كان يقول متباهياً : أمتى ، لم يكن يقولها بلسان الملك عن رعاياه ، بل كان يحيّ فى نفسه بلاده ووطنه وكان يحيا معهما » .

الفصل السادس

الداعية

ما مصطفى كامل إلا داعية . .

كان صاحب دعوة ، وقد أخذ ينشرها ويجمع حولها المؤيدين ، ويدفع عنها المعارضين ، يبث لها فى القلوب الحب ، ويثير لخصومها فى النفوس البغض . بدأ هذه الدعوة منذ استطاع أن يحمل القلم ، وأن يتحدث إلى الناس ؛ ولم يفتر حماسه لهذه الدعوة أو إيمانه بها ، كما لم يهدأ نشاطه فى العمل لها ، كتابة وخطابة ، وسفراً وسعياً ، وتنظيماً وتدبيراً ، ودرساً وبحثاً ، حتى النفس الأخير فى الدقيقة الأخيرة فى اليوم الأخير من حياته .

كان يعمل وهو مريض ، وهو شاعر بآلام الغربة والفشل ، وهو يرى الأعداء يتجمعون عليه ، والحساد يتألبون ضده ، والأصدقاء تفتر همتهم ، ويضعف عزمهم ، ويقل بذلهم ويكثر قولهم ، خلق داعية ، ووهبه الله كل أسلحة الدعاة :

أولا — الإيمان الذى لا يقف عند حد برسالته ودعوته ، وهو إيمان يقوى ويتجدد عند النوازل والمصائب ، ويعلو ويتسع نطاقه عند الانتصارات والمكاسب . إيمان يخالط شغاف القلب ، ويجرى مجرى الدم ، ويتردد مع الأنفاس ، لا يبغى جزاء ولا شكوراً .

ثانياً — نشاط جسمى وعقلى لا يدركه ضعف ، ولا يناله فتور ، من الصباح إلى المساء يكتب ويخطب ، ويفض الرسائل ويحررها ، ويقابل الصحفيين والأصدقاء ، ويتعاقد مع المراسلين لصحفه المتنوعة

العربية والإنجليزية والفرنسية ، اليومية والأسبوعية والشهرية ، عدا الكتابات الصغيرة ، وما يترجم إلى اللغات الأجنبية من خطبه ومقالاته .

ثالثاً – دراسة متصلة لتطورات الأحداث فى أوربا كلها ، ومعرفة تامة بما يجرى فيها على المسرح علناً ، وما يجرى وراء المسرح فى الدهاليز ، وتفهم دقيق للشخصيات التى تلعب الأدوار الرئيسية والشخصيات الثانوية ، وما يجرى بين الدول الكبرى من اتفاقات ومؤامرات ، وما يجمعها من مصالح ، وما يفرقها من مطامع .

رابعاً – اتصال مباشر حى بأصحاب الصحف ، ورجال القلم ، وزعماء الأحزاب ، ورؤساء الوزارات ، وحرص شديد على توسيع دائرة معارفة ، وتوثيق عرى علاقاته ، والتودد إلى كل صاحب نفوذ يخدم دعواه ، وكل صاحب قلم ينشر مبادئه ، وهو يجمع بين التلطف والثقة وبين كسب الود ، ويتوسط الأصدقاء والمعارف وإهداء الهدايا وإقامة المآدب .

خامساً – قدرة فائقة على الكتابة السهلة المؤثرة البليغة ، التى لا يبعد معناها عن قارئ بالعربية أو الفرنسية ، خالية من الحشو ومن التعقيدات ، بعيدة عن التكلف والمحسنات ، تصل إلى هدفها بلا لف ولا دوران ، وتفعل فعلها فى السمع والقلب لخفتها وصدقها ؛ وقدرة غير مألوفة على الارتجال والحديث الذى يبعد عن أساليب الخطابة بغير إثقال على السامع . فقد كان خفيف الظل ، حسن المدخل إلى القلوب ، حساساً لمّاحاً ، مجاملا يعرف الكلمة التى تستميل القلب ، وتجذب السمع ، مع الإقناع ، وإثارة الشعور بصدق صاحبها .

سادساً – كان قائداً موهوباً ، يعرف كيف يجمع القلوب ولا ينفرها ، ويحكم العلاقات والصلات ولا يمزقها ، ويستثير نشاط إخوانه ، ويوجههم دون أن يحسوا بأنه يدفعهم أو يحرجهم أو يورطهم . وقد جمع حوله بهذه الموهبة أشخاصا يتنافرون بطبيعتهم ، منهم الغنى واسع الثراء ،

والصغار الفقراء، والعلماء المشهورون والطلاب المبتدئون، وأهل الحضر وأهل الريف ، ورجال الدين ، ورجال القانون ، والمصريون والشرقيون ، والأجانب والمتمصرون ، والمتطرفون والمعتدلون والمحافظون .

سابعًا — كان يفهم أن الدعاية ليست كلامًا يقال، ولا كتبًا توزع ، ولا مؤتمرات تعقد ، وإنما مخاطبة مدروسة ، بمصالح الذين يتحدث إليهم ، يخطب فيهم ، وهو عارف مشاعرهم وميولهم ، فيثير فى نفوس كل منهم الاهتمام به ، والحرص على نجاحه ، لأنه يحقق لبلادهم ، مصلحة أو يدفع عنها شراً .

وقد كان أول آيات توفيق «مصطفى كامل» أنه عرف «عبد الله النديم» الخطيب والكاتب والشاعر والزجال والصحفى والمهرج الذى سبق الثورة العرابية إلى العمل السياسى ، ثم صاحبها ، يخطب لها ، وينشر الصحف ، حتى إذا ما أخفقت، لم يسلم نفسه للغاصب الأجنبى ولا للحاكم المصرى، وإنما ما توجبه الفطرة السليمة ، فقد اختفى حتى هدأت الفتنة ، وذهب الروع ، واطمأن الحكام الجدد نوعًا ، فخرج لا ليلتمس جاهًا ، ولا ليخطب ودًا، بل ليستجم قليلا ثم يعاود النفخ — فى حذر واتئاد أول الأمر — فى نار الثورة تحت رمادها . اختفى عبد الله النديم تسع سنوات والحكومة تبذل أقصى الجهد لوضع اليد عليه ، حتى عثرت عليه فى ناحية السنطة بمحافظة الغربية فساقته الشرطة ، بغير إهانة ، إلى وكيل النيابة قاسم أمين فأحسن استقباله، وطمأنه وداوم السؤال عنه ، وأخرج عبد الله النديم جريدته « الأستاذ » ، وتداولتها الأيدى ، وقرأها مصطفى كامل ، وسعى إلى صاحب «الأستاذ» فاتخذه أستاذاً . ولما أصدر مصطفى كامل مجلة المدرسة أحسنت استقبالها جريدة « الأستاذ » فى الثامن والعشرين من فبراير سنة ١٨٩٣ ، ونوهت بها ، بعد عشرة أيام من صدورها . ولو بقى عبد الله النديم فى مصر لاستعان به مصطفى كامل فى اجتماعاته ، ولاستكتبه فى جرائده ، ولكن اللورد «كرومر» لم يطق حيوية عبد الله

النديم وقوة لسانه أكثر من سنتين ، ثم نفاه فى ١٣ من يونيو سنة ١٨٩٣ ، فغادر النديم بلاده ولم يعد إليها ، فقد لقى ربه فى تركيا .

ولكن اتصال مصطفى بعبد الله النديم كان له أكثر من معنى . وكان أجل هذه المعانى ، وأسماها اتصال الثورات ، وانتقال الشعلة من يد إلى يد ، ومن جيل إلى جيل ، لا تخبو ولا تسقط ، فقد كان مصطفى كامل تجسيداً لروح الثورة الحقيقية فى حركة عرابى ، التقطها من أعظم ثوارها عبد الله النديم .

وقبل أن ينزل مصطفى كامل قاربه فى بحر السياسة المصرية الهائج المضطرب تتلمذ على جميع الزعماء السابقين الذين كانوا يرقبون الأحداث من هزيمة الثورة العرابية ويجترون الألم ، وينتظرون طلوع الفجر ، ويقلبون النظر فى الأمور ، ويتمنون خروج رجل من بين الألوف ، وقد مر بنا أن مصطفى أرسل إلى صديقة فؤاد سليم يقول إن أحد رواد ندوة والد فؤاد سليم قال لمصطفى يوماً : ألا يخرج من بين المصريين فرد واحد ؟ فسأله مصطفى : وماذا يفعل هذا الواحد ؟ أجابه : الأصل فى كل الأمور واحد .

وبمثل هذه الخواطر ، وعلى نارها الهادئة نضج وجدان مصطفى ونضج عقله للأحداث التى تجرى حوله ، وساءل نفسه « أأكون أنا ؟ .. أأكون هذا الواحد ؟ . .

قال لنا على فهمى كامل شقيق مصطفى فى كتابه عنه :

« فى هذه السنة — ١٨٩٤ — والى الفقيد زياراته لصديقة فؤاد بك سليم ، بمنزل المرحوم والده فى سوق السلاح حيث كان يجتمع أعضاء الحزب الوطنى ، لأنه كان من ذوى النفوس الكبيرة العالية فضلا عن تضلعه فى العلوم والمعارف على اختلاف أصنافها ونظره البعيد فى عواقب الأمور . . . وكان المغفور له لطيف باشا سليم يرى أنه لابد من تكوين حزب منظم يعمل لصالح البلاد ، ويدافع عن حقها وكرامتها أمام أوربا عامة وفرنسا خاصة ، وكان هذا الحزب العظيم يضم بين أعضائه

الصحفى الماهر والخطيب المفوه ، والقاضى العادل ، والقانونى البارع ، وكلهم كانوا من خيرة رجال مصر . فانضم المرحوم مصطفى كامل إلى هذا المجتمع وهو فى السنة الثامنة عشرة فرحًا مسروراً ، لأنه كان لايزال من طلاب العلم ، وأولئك مشهورون ، فأخذ يكتب فى الجرائد المقالات وينشر الأحاديث » .

فى ٢٨ من مارس سنة ١٨٩٧ أرسل مصطفى كامل إلى مدام جولييت آدم يقول لها : « إنى مايئست قطّ من مستقبل وطنى ولا من النصر الذى سيكون خاتمة رسالتنا ، لاسيا أن الوطنيين المصريين مستعدون الآن ، ولنا حزب سرى مخلص للغاية ، وهو على استعداد لتضحية ذاته فى سبيل الوطن المفدى » .

يعنى هذا عندى أن مصطفى كامل فهم الدعاية أوالدعوة على وجهها الصحيح ، فهى أولا ، وقبل كل شىء عمل سياسى منظم أو أدنى ما يكون من التنظيم والاستعداد للكفاح ، يبدأ بالقلة ثم يزيد مع الأيام اتساعًا ، يكسب كل يوم أنصاراً ثم كلام يوجه إلى الأصدقاء والأعداء معًا . .

فالدعاية ليست مجرد كلام ، والكلام ما لم يكن لثماره وعاء يحتويها ، وينتقل بالحركة خطوة فخطوة ، ومالم ينتج بالقدر المطلوب على الوجه المقصود ، ذهب هباء فى الهواء . وقد عرف مصطفى كامل وهو فى هذه السن المبكرة رجالا من ذوى المكانة وجالسهم وتحدث إليهم وتحدثوا إليه ، وأنت تعجب كيف استطاع مصطفى ، فى هذه السن فى وقت كان المجتمع فيه محافظًا ، يجعل للسن مقامها ولا يسمح للصغار بمجالسة الكبار ، فإذا جلسوا معهم وجب على الصغار أن يلتزموا الصمت ، فلا يشاركون فى حديث ، ولا يوجهون سؤالا ، ولا يستحسنون جوابًا .

ولو قرأت أسماء أصدقاء مصطفى فى تلك الفترة أوشكت أن تكذب ما ذكر عنه فى هذا الصدد ، فقد عرفه خليل أفندى مطران الشاعر

ومندوب جريدة الأهرام فى الإسكندرية إلى بشارة تقلا باشا صاحب الأهرام عقب حصول مصطفى على شهادة الثانوية العامة ، فاحتفى به (الباشا) ، وأفسح له صدر جريدته . ثم عرف مصطفى كامل بعد ذلك أعيان مصر وزعماءها أمثال أمين باشا فكرى مدير الدائرة السنية السابق ، فإسماعيل باشا صبرى وكيل وزارة العدل (الحقانية) ، ثم محمد بك مجدى المستشار بمحكمة الاستئناف ، ومحمود بك سالم القاضى بالمحكمة المختلطة ، والشيخ على الليثى الشاعر ، وكان قد عرف من قبل على باشا مبارك ، وفى دار لطيف سليم عرف أحمد بك الصوفانى عضو الجمعية العمومية ، وابنه عبد اللطيف بك الصوفانى ، وحسن باشا عبد الرازق عضو مجلس شورى القوانين ، وإسماعيل بك شيمى المحامى ، والقاضى سابقاً بالمحاكم المختلطة ، ومحمد بك فريد رئيس قلم قضايا الدائرة السنية ، ومحمود باشا شكرى . وهؤلاء قدموه لغيرهم ، ومن هؤلاء وهؤلاء عرف مصطفى الكثير عن أحوال بلاده قبل أن يشب عن الطوق ، فقد تحدثوا عن مشاهداتهم وذكرياتهم عن عهد إسماعيل وعهد الثورة العرابية ، وكان بعضهم قد سافر إلى أوربا وتجول فيها ، فقارنوا أمامه بين ما كان يجرى فى مصر وما كان يجرى فى تلك البلاد . . . وهذا هو الزاد الحقيقى للداعية. أن يعرف البيئة التى يتحرك فيها ، وأن يقف جيداً على ما يفكر فيه الناس الذين سيتحدث إليهم ، ويدرك مزاياهم وعيوبهم ، ويحيط تماماً بما يستطيعون أن يقدموه وبما يعجزون عن تحمله أو الإقدام عليه ، ثم يعالج هذا كله ، فيزيد من الانتفاع بالمزايا ، ويقلل ما استطاع من أثر العيوب ، ويضم الأرباع والأنصاف والأثلاث بعضها إلى بعض ، ليخلق منها أعداداً صحيحة ، فالخطيب الذى يتكلم ولا يعمل ، إلى جانب الذى يعمل وحده ولا يطيق الآخرين ، وصاحب الجاه الذى يبخل بماله ، ومن تعوزه شجاعة القلب ، ولكنه لطيف الطبع ومحبب إلى الناس . . هؤلاء جميعاً لا يهملهم الداعية ، غير باحث عن الكمال المطلق فى الأشخاص

والأشياء وإلا فلا يعمل شيئًا .

ولقد أتاح لنا مصطفى كامل ، فى وقت مبكر من نشاطه الدعائى ، أن نعرف أسلوبه فى الدعوة. ونظرته إلى الدعاية الناجحة المثمرة ، وذلك بالحديث الذى أجراه فى يناير سنة ١٨٩٥ مع الكولونيل « بارنج » شقيق اللورد « كرومر » المعتمد البريطانى فى مصر ، فقد ألقى أولا فى وجه هذا الإنجليزى المعتز باستعمار بلاده ، وقوة سلطانها ، وبقدرتها على إخافة أو إرضاء الدول الكبرى ، ألقى فى وجهه بتصريحات الساسة الإنجليز المتكررة أمثال اللورد ليون سفير بريطانيا فى فرنسا سنة ١٨٨٢ ، واللورد جرانفيل وزير خارجية بريطانيا ، والمستر جلادستون وزير خارجيتها أيضًا ، واللورد دربى واللورد سالسبورى ، كلها ناطقة بتعهد هؤلاء الساسة الكبار بأن الاحتلال البريطانى مؤقت ، وأن الجلاء عن مصر آت بغير شبهة ، ولكنه لم يقنع بهذه التصريحات ، وإنما انتقل منها إلى شئ آخر ، حينما قال الكولونيل بارنج ضاحكًا على كلام مصطفى : ومن لكم ياترى من السفراء فى أوربا حتى تحلم بقرب الجلاء ، فأجابه مصطفى فى الحال :

« لنا أوربا بأسرها التى تناديها مصالحها العديدة بأن تنصرنا عليكم كما تنصر تلك المصالح التى سعيتم من يوم احتلالكم البلاد فى تفويض أركانها .

فقال الكولونيل : اصرفوا عن أوربا أملكم ، فإنا نرضيها بالأراضى الكثيرة والأملاك الواسعة . ويعقب مصطفى على هذا بجملة اعتراضية : « كأن إنجلترا ملكت الأرض وما عليها » .

ثم يرد مصطفى على الضابط البريطانى : لنتفق جدلا على ذلك ، ولكن هل نسيت أن فى حمايتكم لمصر ، ووضع يدكم عليها ، ضياعًا للموازنة الأوربية التى تعمل كل دولة للمحافظة عليها ؟ ومهما قدمتم من الهدايا لبعض الدول (علمًا بأنكم لستم المتصرفين فى كل الأرض) فهل تحسبون أنها تقوم لديها مقام (مصر) طريق الشرق الأقصى

وأعظم المستعمرات الأوربية ؟ . . ولم ساعدت فرنسا الولايات المتحدة وطردتكم ؟ أكانت مصالحها هناك أكبر من مصالحنا ؟ ولماذا قامت أوربا مرة واحدة لمساعدة اليونان ؟ . »

فالدعاية عند مصطفى كامل ليست مخاطبة للمشاعر الإنسانية عند الدول العظمى ولا هى استجداء للكرم الإنسانى . ولا إثارة للعطف على المظلومين ، وتحريكاً للضمير ضد انتهاك المعاهدات وخيانة للوعود الدولية . . ولو قبل ذلك لكان ساذجاً ، ولما كان لديه الأمل الذى كان يدفعه فى بعض الأحوال إلى الظن بأن الجلاء واقع بعد سنة أو بعض السنة كما سنرى . ولم يكن فى هذا حالماً . بل كان دارساً حاسباً لعملية توازن القوى الدولية والصراع بين المصالح الكبرى المتباينة والمتعارضة .

وقد يكون فى تصويره للأمور فى هذا الحديث . الذى وقع فى السنة الأولى أو الثانية لنشاط مصطفى خارج بلاده تبسيط أكثر مما يجب . أو سذاجة لابد أن تكون نصيب التفكير السياسى المبتدئ. ولكن التفكير فى جملته صحيح وقوامه العناصر التالية :

أولا — فهم تام لتطور الموضوع الذى يناقشه . واستذكار لما يتصل بهذا الموضوع من معاهدات وتصريحات وأحداث .

ثانياً — إظهار الجانب الأدبى للمسألة وبيان حقوق المصريين من حيث كونها حقوقاً دولية ، وأسانيدها من مبادئ الحق الطبيعى : لا للتوقف عند هذا الحد ، بل للانتقال منها إلى الجانب العملى .

ثالثاً — بيان المصالح الدولية التى تقف فى وجه بريطانيا ، والتهديد بالاستعانة بأصحاب هذه المصالح .

رابعاً — إعلان أن المصريين لا يستسلمون للاحتلال ، ولا يقبلونه وأن مقاومته تزيد مع الأيام .

ولا شك أن هذه هى الخطة المثلى ، فمصطفى كامل ، حينما كان يقصد فرنسا ، لم يكن يطلب منها على سبيل الصدقة والإحسان أن تقف

مع مصر ضد بريطانيا ، بل كان يقصدها لأن فرنسا بطبيعة الأمور
ولغيرتها الشديدة من الاحتلال البريطانى ، ولجزعها المستمر ع
مصالحها الاقتصادية ومركزها الثقافى ، تؤيد كل قول وعمل ض
هذا الاحتلال ، وهى حينما ترى خصوم الاحتلال يتكاثرون يداخا
سرور عظيم ، فما كان مصطفى كامل حالمًا ولاواهما ، ولا خادء
لنفسه ، ولاموهمًا لمواطنيه حينما كان يمنيهم بمساعدة فرنسا لجهاد مع
ضد الاحتلال البريطانى وعطفها على حركة مصطفى كامل ونشاطه
فإنها أفسحت له صدور جرائدها الكبرى ، وأتاحت له منابر فى جمعيا
ودورها وندواتها يخطب فيها ويندد بالاحتلال البريطانى ، ويثير فز
الفرنسيين كلما ضيقت بريطانيا على ثقافة فرنسا ولغتها الخناق ، أو
طردت عميداً ، فرنسيًّا لمدرسة عالية ، وعينت مكانه آخر بريطانيًّا
أو قالت عدد الدروس الفرنسية ، أو استبعدت اللغة الفرنسية تمامًا
التعليم فى مصر .

وليس صحيحًا أن مصطفى كامل كان يعقد أمله كله على فرنس
فما من سنة سافر إلى باريس إلا قصد بعدها إلى عواصم اللغة الأل
برلين وفيينا ، وخرج منهما إلى بوادبست ، وكان له فى جميع ،
العواصم أصدقاء من الصحفيين والساسة والنواب والشيوخ ، بل إنه آ
الأمر قصد لندن نفسها عقب حادثة دنشواى فى ١٣ من ؛
سنة ١٩٠٦ .

ولسنا قادرين على أن نتابع جميع أعمال مصطفى كامل فى ـ
الدعاية ، ولكن يمكننا أن نقول كلمتين فى خطابه إلى المستر جلادس
فى الثانى من يناير سنة ١٨٩٨ . ونذكر القارئ الكريم بما جرى فى
الخطاب ، فقد أرسل إليه مصطفى كامل فى هذا التاريخ رسالة ؛
له فيها : لقد كنتم منذ احتلت إنجلترا وطننا أشد نصراء الجلا
وجاهرتم مراراً عديدة بأعلى صوتكم أنه لا يليق ببريطانيا العظمى أن

مصر إلى أجل غير محدود، فإن هذا يمس شرفها أشد المساس . . . وإننا سجلنا كل تصريحاتكم وحفظنا مجاهراتكم ، ولو أنكم لم تستطيعوا الوفاء بوعود كم عندما كانت السلطة فى يدكم لأسباب نجهلها بالكلية ، فإننا لا نزال نظن أن اعتقادكم الآن كاعتقادكم فى سالف الزمن ، أى أنه ليس لمسألة مصر إلا حل واحد هو الجلاء » . .

فرد عليه جلادستون فى ١٤ من يناير ، وكان فى مصيف ببارتز قائلا :

« إنى أستحسن ما فهمته من إحساساتكم نحو بلادكم بصفة كونكم مصريًّا ولكننى مجرد بالمرة عن كل سلطة و . . أما آرائى فإنها لم تتغير قط ، وهى دائمًا أنه يجب علينا أن نترك مصر ، بعد أن نتمم فيها بكل شرف ، وفى فائدة مصر نفسها ، العمل الذى من أجله دخلناها . وأن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين .

هاتان الرسالتان كانتا من ضربات مصطفى كامل الموفقة ، ولكنه مع ذلك عمل مدروس لم يكن ضربة حظ ، والألفاظ القليلة الواردة فى خطاب مصطفى تدل على فهم سياسى دقيق خال من كل تزيد ، وكل مبالغة وكل تفريط .

ولقد رد جلادستون على مصطفى كامل لأمور عديدة قدرها جميعًا مصطفى وهو يكتب رسالته . أولها أن جلادستون لابد قد عرف من هو مصطفى كامل ، وأدرك مما نشر له فى صحف فرنسا ومما نشر عنه منها أنه الصوت الجديد لمصر الفتية الرافضة للاحتلال ، فالرد عليه رد على شخص ذى قيمة ، هذا أولا ، ولما كان البريطانيون حريصين — لا سيما مع الشرقيين — على الظهور بمظهر الديموقراطيين الذين لايدعون رسالة بغير رد ولا سؤالا بغير جواب ، فمن مصلحة جلادستون الشخصية أن يبدو فى هذا المظهر . ولما كان هو خارج السلطة ، ويهمه أن يقول شيئًا يدافع عن سياسته يحرج به خصومه ، فله مصلحة فى ألا يدع هذه الفرصة

تم، دون أن ينتفع بها . وقد كان .

أما مكاسب مصطفى كامل السياسية والدعائية من هذه الرسالة والرد عليه فقد فاقت كل حساب . كسب مصطفى شخصياً كسياسي وكداعية ، إذ رد عليه شيخ من شيوخ السياسة البريطانية ، ورئيس لوزراء سابق ، وزعيم لحزب الأحرار ، والشخصية المقابلة لشخصية دزرائيلي زعيم المحافظين .

وكسب إذ ظفر بتصريح من رئيس وزراء بأن (زمن الجلاء وافى) فلا داعى إذن لليأس من الجلاء ، كما يحاول أصدقاء الاحتلال من المصريين والأجانب على السواء ، أما الكسب الأكبر فهو ما أثارته رسالة جلادستون لا فى فرنسا وحدها بل فى بريطانيا نفسها ، فقد اهتز وقار التيمس شيخة الصحف البريطانية وأكثرها تحقيقا ومحافظة ، فقد حمل مندوبها فى باريس على جلادستون ومصطفى كامل معاً ، فسلكهما فى حبل واحد ، وكتبت الديلى تلجراف والديلى مسنجر وسان جيمس جازيت وذى جلوب وقد كان المعهود بصحف بريطانيا أن تتغاضى عن كل شىء يجرى فى مصر ، لا سيما إذا كان بطل هذا الشىء مصرياً ، وكان من خصوم الاحتلال ولكن مقام جلادستون حملها حملا على أن تخرج على موقفها التقليدى ، أما فرح الجرائد الفرنسية والألمانية والنمساوية بهذا الحديث فحدث عنه ولا حرج ، فقد كتبت الإكلير ، ولابولوتيك كلونيال ، والديبا ، والفيجارو ، والبوست ، ولوسوار والموند . .

ولم يكلف مصطفى كامل هذا النجاح شيئا إلا بضعة سطور ، وثمن طابع البريد ، وهذا هو النجاح الدعائى والسياسى الرائع . ولو أردت أن تعرف مقدار هذا النجاح ، فقلب الصحف البريطانية بعد سنة ١٩٢٠ ، بعد أن خمدت جذورة ثورة سنة ١٩١٩ ، وبعد أن تحول الأمر كله فى مصر صراعات حزبية ، وحرباً داخلية ، فإنك لن تجد بها أثراً لعمل مصرى ولا لرأى سياسى فيها ، بل إن الدعاية الحزبية التى كانت تقوم

بها الأحزاب فى لندن الواحد ضد الآخر فكانت تكبد المصريين ألوف الجنيهات . ولا تحرك فى الوسط البريطانى ساكنا . وقد بلغ من كثرة الأموال التى تنفقها الأحزاب المصرية على الدعاية فى لندن . أن قال بعض أصحاب جريدة الديلى هرالد المناصرة لحزب العمال البريطانى . إنه لولا أموال الوفد المصرى . لأغلقت جريدتهم أبوابها . وبعد ذلك بسنين قال أصحاب جريدة الديلى تلجراف . إنه لولا مساعدة إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء المصرى المالية لها . لأفلست .

بل إن الأمر انتهى إلى التعاقد مع سناتور أمريكى ، أى عضو مجلس شيوخ وهو المستر « فولك » ليدافع عن القضية المصرية فى أمريكا مقابل أجر يدفع له ، ولما صدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ طالب بباقى الأجر باعتبار أن هذا التصريح أعلن استقلال مصر . وقد كان مؤخر أتعابه مشروطا بحصول هذا الاستقلال .

ويمكننا أن نتخذ من رسالة مصطفى كامل الصغيرة التى عنوانها «أخطار الاحتلال البريطانى» الصادرة فى ٨ من أغسطس سنة ١٨٩٥ ، نموذجا ثانيا لأساليبه فى الدعاية التى لاتهمل الجانب الأدبى والأخلاقى ؛ للمشكلة التى يتناولها صاحب الرسالة ، ولكنه ينفذ فوراً إلى جانب المصلحة التى يوجه إليها الحديث . فقد استعرض مركز مصر وأهميته للعالم قاطبة وأظهر للقارئ ، بأن بريطانيا بفضل وجودها فى مصر . ستكون قادرة على بسط نفوذها على أفريقيا من البحر الأبيض إلى رأس الرجاء الصالح . وأن ذلك سيفضى إلى أنها ستكون صاحبة التجارة الأفريقية والآسيوية الأولى . هذا إلى جانب وضع يدها على جبل طارق وعدن ومالطة وقبرص مما يجعل البحر الأحمر بحيرة إنجليزية ويخول لبريطانيا التصرف المطلق فى قناة السويس ، وتهديد سوريا ، ومراقبة الخطوط البحرية بين الدول العظمى ، فأى دولة ترضى بأن تظل مصر تحت أغلال الاحتلال ، وما من حكومة تستطيع بعد أن وقفت على هذه الحقائق الخطيرة أن تلقى عن عاتقها

مقاومة هذا الاحتلال ؟

فمصطفى كامل لم يدع القارئ الأوربى يفرغ من رسالته حتى يثبت فى يقينه بأن الاحتلال البريطانى خطر عظيم على السلام بأسره ، وأن الذين يقاومون هذا الاحتلال لا يؤدون واجبا نحو العدالة والشرف الأوربى فحسب ، بل إنهم يعملون للسلام العام، ثم لاتحاد المسيحية مع الإسلام، وقصارى القول أنهم يساهمون فى نصرة المدنية .

وأحسب أنه لا يمكن أن يفوت القارئ العربى ، أهمية هذا الكلام . فاتحاد المسيحية مع الإسلام ، كان معنى غير مطروق فى تلك الأيام، وكان يحمل فى طياته من الأفكار السياسية والثقافية شيئاً كثيراً ، ينبه أذهان الساسة إلى قيمة مصر وقيمة الشاب الذى يتحدث باسمها والذى وضع هذه الرسالة . ولقد أكسبت هذه الرسالة ، مصطفى كامل صداقة غالية و نافعة له ولبلاده ، وهى صداقة مدام جولييت آدم التى قالت إنها لم تقرأ — على كثرة ما قرأت — شيئا عن الاحتلال فى مصر فى مثل نضج رسالة «أخطار الاحتلال البريطانى» وقوة حجتها . ولو حسبنا المكاسب المادية والأدبية التى حققها مصطفى كامل بعقد صلته بهذه الكاتبة الكبيرة، صاحبة المقام العظيم ، بمجرد إهدائه إليها هذه الرسالة التى لا تزيد عن عشر صفحات ، لوجدنا أنها تساوى عشرات الألوف من الجنيهات ، لأنها فتحت له أبواب الصحف ، يكتب فيها بلا مقابل، وقدمته إلى عشرات من ذوى الرأى والقيمة فى الحلبة السياسية .

ولقد أتاحت لنا الرسائل التى نشرت أخيراً ، والتى أرسلها مصطفى كامل إلى صديقه توفيق أحمد[1] وإلى صديقه فؤاد سليم[2] نظره أكثر عمقاً إلى أسلوب مصطفى كامل فى الدعاية ، إذ قال فى رسالة فى بداية سنة ١٨٩٥ من باريس :

---

(١) صحف مطوية عن تاريخ الزعيم مصطفى كامل .

(٢) رسائل تاريخية من مصطفى كامل إلى فؤاد سليم الحجازى .

أحب أن أشرح لكم دور المسألة المصرية هنا وأحوال الجرائد ورجال السياسة فأقول : إن لمصر نصراء عديدين جداً ، وكلهم يعتبرونها كالألزاس واللورين[1] أهمية وحضارة بل يقدمونها عليهما . ولكن كل الرجال السياسيين وغير السياسيين يجهلون تماما ما يحدث عندنا ، وعندما أشرح لهم بعض الأحوال تراهم يستغربون ويزدادون حنقاً على الإنجليز ، وقد وعدني الكثير بكتابة الفصول الضافية وبعمل الأحاديث معي ونشرها في الجرائد ، ولذلك أرى أن وجودي هنا له أهمية كبرى ، وأن نشر جريدتي يكون عنوان الفلاح . وسأزيد الحقائق نشراً بالرسائل التي سألقيها في المنتديات والجمعيات ، وأما الجرائد فمستعد لخدمتها أحسن خدمة ، وقد دعوت الكثير من أصحابها للقاء معي ولاطفتهم حتى خلبت عقولهم بحسن الخطاب والاستقبال والاحترام . وكلهم مائلون لمصر ، ولو أن هذه الولائم تكلف مصاريف كثيرة فإني مع الحكمة في صرفها أراها أنفع ما يصرف ، ولإيضاح الحقائق أقول لكم إن بعض الجرائد يطمع في الدراهم وقد لمح لي بذلك بعض أصحاب الجرائد ، ولكن إن قضت الظروف بشراء بعضها فإنها تكون المهمة منها وذلك لا نتكلم عنه إلا عند اللزوم . أما رجال السياسة هنا وأصحاب النفوذ فقد عرفت بعضهم ثم قال :

وفي الختام أريد أن أوضح لكم فقط سياستي .

أولا : سياسة المسايرة والمسالمة والملاطفة مع كل الناس . .

ثانيا : التعارف مع من يهم التعارف بهم وإهداؤهم الهدايا ودعوتهم لولائم عند اللزوم .

ثالثا : نشر محادثات في الجرائد interview فإن لها نتيجة خطيرة وتأثيراً قويا .

---

(١) إقليمان فرنسيان كانت ألمانيا قد ضمتهما إليها في أعقاب حرب سنة ١٨٧٠ .

رابعا : إلقاء الخطب فى المنتديات ، وتكون محكمة وتامة ومملوءة بالسكون والحكمة مع القوة فى البرهان والحجة وستكون أول خطاباتى إما فى آخر يونيه أو فى أول يوليو .

خامسا : نشر رسائل متوالية عن المسائل المتعلقة بمصر ، وسأنشر فى النصف الأول رسالة عنوانها (La danger de l'occupation Britanique en Egypte pour la monde entier) أوضح فيها كل الأخطاء السياسية الكبيرة وهى مكتوبة حاضرة لتوزيعها لكل الرجال السياسين المهتمين .

سادساً : سياحة فى ألمانيا أقدم فيها نسخة من هذه الرسالة إلى البرنس بسمارك وأقابله وأسأله آراءه و إقامة أسبوعين فى برلين أقابل فيها الإمبراطور إن تمكنت من ذلك وساعدتنى الظروف ، وأقابل فيها رجال الجرائد والسياسة .

سابعا : عقب هذه السياسة سياحة فى سان بطرسبرج وهذه سهلة جداً لأن بتعارفى مع شيكولانيكولوفتش يمكن أن أقابل الرجال المهمين .

ثامنا : العودة إلى باريس فى أوائل سبتمبر ونشر جريدتى أول أكتوبر بالفرنساوية والإنجليزية وتكون أسبوعية وفيها كل ما يحدث فى مصر ، ومايكتب فى الجرائد عندكم وكل مايلزم كتابته ، وهى كما قلت تحتاج وحدها إلى ١٥٠٠ جنيه سنويا على فرض أننا سنرسل منها ٣٠٠٠ نسخة لكل جرائد الدنيا الخطيرة وكل الوزراء وأعضاء المجالس النيابية .

وفى ١٩ من سبتمبر سنة ١٨٩٥ ، قدم مصطفى كامل تقريراً إلى الخديو عباس ، يتضمن ما يقترحه فى شأن الدعوة لمصر ، ننقل عنه :

« .... وأحسن ناموس يوصلنا إلى المراد ينحصر على ماأرى فى الأمور الآتية :

اولا : أن نسعى فى تقوية تيار الحركة الحاصلة فى أوربا (حركة العطف على طلب الجلاء) وذلك لايكون إلا باتباع طريق واحد لايتغير وهو طريق التحبب إلى كل السياسيين ، وملاطفة أرباب الصحف والكتابة

والخطابة ونشر الرسائل العديدة عن مصر . . . . ولقد ظن بعضهم أن وجود لجنة فرنسية فى باريس تشتغل بأمر مصر كاف للقيام بهذا الغرض وأن لالزوم لوجودى فى أوربا ، مما أظن أن مولاى لايوافق عليه أبداً لأن مقابلتى للناس وتفهيمى إياهم الأشياء والأمور الجارية فى مصر ، ومطالبتى بحقوق مصر ، وبصفتى من أبنائها يحدث تأثيراً أكثر كثيراً من التأثير الذى يحدثه أبلغ الفرنسيين وأكتبهم كل يوم بأناس مختلفين روسيين كانوا أوألمانيين أوفرنساويين . ومهما كان الفرنسى صادقا فى خدمته لنا فلا يتصور العقل أنه يكون كمصرى يتألم بآلام أمته ويحزن لحزنها ويفرح لفرحها .

ثانيا : استخدام كل الأجناس دون أن نفوض لأى أجنبى كان ، أمرنا ونستودعه أسرارنا لأن الأوربى مهما بدت عليه دلائل الصدق والإخلاص لسدة الأمير ولمصر فهو لا يبحث إلا عن منفعته الخاصة .

ثالثاً : التحبب لألمانيا والتقرب منها بكل الوسائل الممكنة ، وأرى التقرب منها سهلا جداً إذا استحسن مولاى حفظه الله رأيى فى استخدام جريدتين أو ثلاث ألمانية ثم زيادة ذلك بدعوة أولاد الإمبراطور غليوم إلى زيارة مصر فى فصل الشتاء دعوة ودية بواسطة قنصل ألمانيا ، فإن هذا الأمر يقبله الإمبراطور بكل ارتياح أولا لكونه صادراً عن سموكم ، وثانياً لأن إمبراطور ألمانيا يحب شهرة اسمه واسم عائلته فى الشرق ، ودعوة كهذه تستميله ولاشك لنصرة مصر خصوصاً إذا عاد أولاده من مصر ومعهم الهدايا الشرقية النفيسة التى يهديها لهم سموكم .

رابعاً — استخدام بعض الجرائد الأوربية الخطرة من فرنسا وألمانيا والروسيا ، وأرى أنه يكفى من فرنسا استخدام جريدتين ومن الروسيا كذلك ومن ألمانيا ثلاث على الأقل ويسير على استخدام كل هذه الجرائد لمالى من الروابط مع رجال التحرير فى فرنسا ومع كثير من الكتاب الروسيين والألمانيين ، (فضلا عن أنى عازم على زيارة برلين فى شهر أكتوبر

القادم إن شاء الله تعالى ، وأرى أن مبلغ ٧٠٠ جنيه يكفى لاستخدام أهم جريدة مدة عام كامل . واستخدام كل هذه الجرائد يكون دائماً باسم جمعية مصرية وطنية ، وأرى مع استخدام بعض الجرائد الخطيرة ، يجب استخدام بعض أفراد من كتاب أسرار (سكرتيرى تحرير) الجرائد الأخرى فإن بيدهم إدارة شئون الجرائد والموظفين بها يكفى مبلغ زهيد لإرضائهم ، وربما تكفى هدية حسنة وهذا أمر يتعلق بالطباع والأميال .

وبهذا التقرير يضع مصطفى كامل سياسة عامة للدعاية فى أوربا ، تتناول الحكومات والصحف ، والنفقات اللازمة ، والأساليب التى يجب اتباعها لكسب تأييد هذه الصحف ، من هدايا حيناً ، ومن أموال أحياناً ، ومصطفى كامل لا تشغله فرنسا وحدها كما يظن بعض الناس ومازال بعضهم على رأيه حتى الآن ، أخذاً بالظاهر من نشاط مصطفى كامل . ولكنه لم يكف عن لفت النظر إلى الاهتمام ببرلين و بطرسبرج (لننجراد الآن) عاصمة روسيا ، بقدر الاهتمام بفرنسا ، واهتمام دولة ما بمصر يدفع الدول المنافسة إلى بذل اهتمام أكبر بها وهكذا .

ولقد أكد مصطفى وجوب أن يكون المتكلم أصلا مصريًّا ، وأن يكون الأجانب مساعدين ، لأن كلام المصرى عن وطنه أوقع ، لاسيما إذا كان الحديث عن استقلال مصر ، لا عن عمل تجارى أو اقتصادى .

ويدل تفكيره على إصدار جريدة مصرية تنشر أخبار مصر — وتترجم المقالات المنشورة فى صحفها ، على تقديره للمواظبة والمتابعة فى الدعاية ، وعلى طموحه ، إذ أن التفكير فى إصدار صحيفة ناطقة باسم مصر ، لم يخطر على بال أحد بعد ذلك ، لكثرة تكاليفه ، وضخامة أعبائه . .

* * *

الفصل السابع

بلاغة الروح

كل مايقوله مصطفى كامل ، وكل مايكتبه ، تتخلله جاذبية ، ويرى فيه سحر ، لاتدرى بالضبط أين مصدره . فألفاظه بسيطة ، وصياغته سهلة ، وأفكاره فى متناول الكاتبين والقائلين ، ولكنها حينما يصف بعضها إلى جانب بعض ، ثم تتلى ، تحس أنها عمل ، تتقطع أنفاس الكاتبين المجيدين ، والخطباء المتمرسين دون الوصول إليه .

فخطابه إلى مدام جولييت آدم فى الثانى والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٩٥ ، مثال من هذه البلاغة الفريدة ، فهو يقول : « إنى لا أنال صغيراً ولكن لى أطماعا جماما ، فإنى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة » .

إن هذه الألفاظ فى جملتها ، فريدة بين أجمل القصائد بالعربية وبكل لغة أخرى . ثم قوله : يقولون إن وطنى لاوجود له وأنا أقول ياسيدتى إنه موجود وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه .

هذا المعنى البسيط ، عميق وبعيد أيضا . فالقول بأن وطنا ما لا وجود له ، وأن الدليل على كذب هذه الدعوى ، هو حب إنسان له هو أسلوب جديد لم يسبق إليه مصطفى أحد ، ولم يقلده فيه بعده أحد.

ثم قوله : وقد قيل لى أكثر من مرة إنى أحاول محالا ، وحقيقة تصبو نفسى إلى هذا المحال . .

وقول مصطفى كامل فى ٤ من يونيه سنة ١٨٩٥ فى اللوحة المقدمة

لرئيس مجلس النواب الفرنسى نموذج آخر من بلاغة :

إن هذا اللوح يمثل لدى مجلس النواب حالة أمة ناشئة غيور على حريتها المسلوبة بغير حق منذ ثلاثة عشر عاما. ولقد برهنت الأمة المصرية مع ما يعتورها من المصائب على سكينة وصبر عجيبين استمالت بهما قلوب الأمم الأوربية ، ولكن لما اعتراها النصب جاءت مستغيثة بفرنسا، هذه الدولة العظيمة التى أعلنت حقوق الإنسان . . . .

ثم قوله :

على أن اسم مصر عندما تكون حرة مستقلة بجانب أسماء الأمم العديدة التى حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها . .

وانظر إلى رسالته إلى جلادستون :

« لقد سجلنا كل تصريحاتكم فى هذا الصدد (عن الجلاء) ولو أنكم لم تستطيعوا الوفاء بوعودكم عندما كانت السلطة فى يدكم لأسباب نجهلها جهلا تاماً فإننا لانزال نظن أن اعتقادكم الآن كاعتقادكم فى سالف الزمن .

وفضلا عن ذلك فإن تصريحا منكم فى مسألة مصر ، يكون له أعظم قيمة فى هذه الأيام التى يحسب فيها الجمع الغفير من أبناء ديننا المسلمين أنكم أكبر عدو رآه الإسلام ، وإنى مع انتظار الجواب على كتابى هذا أرجو منكم أيها السيد المبجل أن تتفضلوا بقبول عظيم احترامى » . .

ومرضت والدة مصطفى مرضا شديداً أزعجه فانقطع لتمريضها ، وانصرف عن عمله وعن مكاتبة أمه الروحية مدام جولييت فكتب يعتذر لها :

« بأى حال أقدر أن أعتمد على صفحك بعد هذا السكوت الطويل ، إنك كتبت إلى بأنه كان ينبغى أن أكون فارقت الحياة ، لتغفرى لى ذنبى ولكن لا ، هذا هو ذا سبب آخر لابد أن تقبليه أنت المعدودة من خير الأمهات .

والدتى العزيزة كانت مريضة طوال هذا الشتاء مرضا فى القلب، وهو ما أقلقنى أربعة أشهر .

[فهل تجد اعتذاراً أروع ، وعبارة أبسط ، وألفاظا أجمل .

تقول له مدام جولييت ، لم يكن هناك إلا عذر واحد يمنعك من الكتابة إلى ، هو أن تدون قدمت . ويقول لها كان هناك ، عذر أحق بالقبول ، وأجدر هو مرض أمى ، ياخير الأمهات .

أحسن مايعتذر به لأم ، هو انشغال ابن بأمه . إن مرضها يساوى فى نظره موته .

ولقد وصف لنا بعض الكتاب مصريين وأجانب شعورهم وهم يسمعون مصطفى كامل أوهم يقرأونه، أووهو يتحدث إليهم ، وسننقل إليك شيئاً مما قالوا : لنرى أثر كلام مصطفى الملفوظ والمكتوب فى النفوس ، قال محرر الإكلير بعد قراءة مجموعة (مصريون وإنجليز) التى صدرت فى سنة ١٩٠٥ فى ثلثمائة وعشرين صفحة ، تضم خطب مصطفى كامل والرسائل التى تبودلت بينه وبين كبار الساسة بعد ترجمتها إلى الفرنسية [١] .

« إن فيها قوة وحدة، وروح الشباب والأمل تملأ هذه الصحائف وتهزها : وتشعر اليد بارتعاش عند تقلبها ، وإن القارئ عند ما يطالع هذه الخطب لايقرؤها فى الحقيقة ، بل يسمعها ، لأنها بالغة فى الحياة ، على الرغم من هذه الحرارة وتلك النار المشتعلة ، وعلى الرغم من الحدة التى تلازم كل حب شديد ، فقد استطاع هذا الخطيب الشاب أن يحافظ دائما على الاعتدال ، ويقف عند الحد الواجب ، فهو حاد اللهجة ، وفى عباراته حركة شديدة أحيانا ، بحيث يشعر بأنها تجرى وتعدو، وتدوى كالسيل الجارف وقت ذوبان الثلوج ، فيخيل إلى الإنسان

---

(١) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية — عبد الرحمن الرافعى ص ١٥٦ .

أنها ستأخذ فى طريقها كل شئ ، ولكن السد الذى أقامته نفس شريفة ، وفكر عال موجود ، فعبارات الخطيب تغلى كالماء ثم تجرى واضحة رائعة تطرب القلوب وتنزل برفق ، ويتسع مجراها وتروى وتلطف ما تمر عليه .

ولقد أعطانا مندوب جريدة (الريفورم) التى كانت تصدر بالفرنسية فى الإسكندرية صورة لمصطفى كامل الخطيب ، وأثره فى نفوس سامعيه ، وذلك يوم ألقى خطبة فى ٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٧ وهى الخطبة التى تعرف باسم خطبة الوداع قال[١] :

« لا يتاح للمرء كل يوم أن يحضر خطبة سياسية فى مصر ، والحق يقال إن مصطفى كامل ، هو الذى اتبع طريقة : الخطابة ، وهو وحده الذى يسمعنا الخطب السياسية فى مصر ، فكما رأيناه منذ عشر سنوات فى تياترو زيزنيا يخطب ، رأيناه مساء أمس فى التياترو نفسه خطيبا سياسيا ، وبديهى أن الصحفى لا يدع فرصة تفوته من هذا القبيل ، بل إن أقل المخبرين والصحفيين مهارة يرى نفسه مضطراً إلى الكتابة عن خطبة رجل تمكن من جمع أكثر من ستة آلاف إنسان فى مظاهرة وطنية ، أضف إلى حتشد هذا العدد العظيم مع جمع من رجال الشرطة ، فالصحفى الذى لا يخبر قراءه بمثل هذا الاجتماع هو صحفى مقصر فى واجبات وطنيته » . وعلى هذا نقول لقرائنا إنه ما وافت الساعة الثامنة حتى تقاطرت جماهير المواطنين إلى تياترو زيزنيا فلأوا الألواج والكراسى وازدحم الملعب بهم أى مزدحم . حتى لم يبق موطئ لقدم ، بل قد غصت المماشى والحديقة بالناس يأتون أفواجا حتى امتلأ بهم الشارع ، وقد كان الحاضرون بين باشوات وبكوات عقلاء وأفندية متحمسين ،

---

(١) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية — عبد الرحمن الرافعى ٢١٨ الطبعة الثانية .

قادمين من جميع جهات الوجه البحرى ، لسماع خطبة (الرئيس) كما يلقبونه بذلك ، وكان فى الحضور صفوة المحامين والأطباء الوطنيين فى الدلتا والقاهرة ، فكانت نظرات الذكاء تلمع من خلف نظاراتهم الذهبية .

« كان المنظر فخما جليلا ، منظر هذه الطرابيش الحمراء التى ملأت الملعب جميعه ، وبينها هنا وهناك بعض العمائم البيضاء ، كان المنظر جامعا بين زهور مختلفة من أزهار الإنسانية . . إن أذن الأوربى المتعودة سماع الفصاحة الغربية قد لاتألف الفصاحة الشرقية ولا تتأثر كثيراً بنبرات صوت الخطيب الشرقى وتنقله بين ارتفاع وانحدار وغير ذلك مما يناسب مقام التأثير على السامعين ، ولكن هذا الشأن لايصدق علينا نحن الذين عشنا فى مصر عشرات من السنين وألفنا سماع الفصاحة الشرقية ، وما فيها من قوة التأثير وحسن الإنشاء والتوقيع وجزالة اللفظ ورقة المعنى ، ولقد كان الخطيب جامعا لكل ذلك وتأثيره شديداً فى الحاضرين يمكن تبين أثره على وجوههم من دقيقة إلى أخرى ، كان تأثيره بحيث لم تكف الأيدى عن التصفيق له تصفيقا صادقا صادراً من أعماق القلوب خاليا من كل تملق » .

« إن هذا الرجل قوة حقيقية على جمهور الوطنيين ، ومن ينكر ذلك فهو ينكر الحقيقة الساطعة ، إن كلامه مؤثر فى النفوس تأثيراً عظيما . . . »

وللخليل مطران الشاعر العظيم ، ومندوب جريدة الأهرام وصف مماثل لخطبة أخرى ننقله هنا[1] :

« أكتب إليكم هذه السطور من موضع مشرف على البحر ، مجاور له ، أسمع منه مناداة حبابه ، ومناجاة نسماته ، وأرى من حركته الدائمة

---

(١) مصطفى كامل باعث الروح الوطنية — عبد الرحمن الرافعى — الطبعة الثانية ١٣٤ ، ٣٦٠

المستمرة ما يخيل إلى أن على ظهر كل موجة مهداً يهز صعداً وخببا ، وأن فى المهد امرأ طفلا سيكون بعد حين امرأ كهلا ، فهل ذلك الأمر الذى تهزه الأمواج ، وتغذيه الشمس ، تنميه الليالى ، سيكون أمنية مرجوة لمصر ، تتحقق ، وهل المناداة والمناجاة اللتان اسمعهما أول أصوات البشرى التى ستعلو بعد حين . ذلك ما أوهمتنى إياه خطبة مصطفى بك كامل التى سمعتها البارحة بين جمهور لايقل عن ثلاثة آلاف نفس مختلفى الجنس والدين ، أكثرهم من المصريين ، وغير قليل منهم الذين حضروا من القاهرة والريف .

« وقف يتكلم فى الساعة التاسعة ، وقد ضاق النادى على اتساعه بالناس ، عشرات عشرات فى اللوجات ، جلوسا ووقوفا : فى الكرسى وفيما بينها ، صامتين تشوقا إلى ما سيسمعون ، منتظمين انتظاما طبيعيا ليس من عمل شرطى ولا ترتيب بواب ، بل من هيبة الموقف ورجاء ماتتوقع . ولما فرغ الخطيب من التكلم صفق الناس حتى كلمت الأيدى ، وخرجوا معجبين باقتداره وسعة صدره ، وشدة إخلاصه ، معتبرين بما سمعوه ، من مؤثر العظات أعظم الاعتبار ، وأحاط بالخطيب جمهور من الأصدقاء فهنأوه أحسن تهنئة ، ولا غرو فإنه صوت مصر الحى ولسان ضميرها المجاهد » .

وقد كتب الكاتب الفرنسى لوى برتران فى مجلة (العالمين) الباريسية ، واصفا أثر مقابلته لمصطفى كامل[1] .

« رأيت رجلا صغير الجسم ، شاحب اللون ، خفيف اللحم تدل ملامحه على أنه رجل رقيق عصبى المزاج ، لكنه مع هذا الجسم الضئيل كان جهورى الصوت خطيبا فطرياً ، فكلمنى عن شئ من تاريخ حياته ،

---

(١) مصطفى كامل باعث الروح الوطنية — عبد الرحمن الرافعي — الطبعة الثانية ١٣٤ ، ٣٦٠

ومن عجيب مالاحظته أنه على الرغم من حبه وبغضه كان يحكم على الناس بفراسة عجيبة من غير أن تخدعه صلة النسب أورفعة الرتب ، ثم إنه فوق ذلك خبير بدخائل السياسة الأوربية كل الخبرة ، وعلى الرغم من أنى كنت وإياه وحدنا فى غرفة ، فإنه كان يخاطبنى وكأنما هو يخطب فى جمع عظيم ، ومن مزاياه العجيبة أن له تأثيراً فى النفوس يضطرها إلى الاقتناع بما يقول ، حتى إنى لم أتركه إلا وقد انقسم فؤادى بين الميل الغريزى إليه ، وما سمعته من قبل من خصومه ، على أنى كنت شديد الرغبة فى مقابلته مرة ثانية ، قابلته مراراً وتحدثت معه كثيراً » .

وعلى الرغم من أن كل الذين كتبوا عن مصطفى كامل الخطيب من مصريين وأجانب ، قد أجمعوا على أنه عظيم التأثير فى القلوب ، شديد التحكم فى سامعيه ، يستولى على ألبابهم ، ويحملهم على التعبير عن الاستحسان والاقتناع ، بالتصفيق والهتاف ، وقبل ذلك — عن الاستماع والحرص الشديد على النظام ، على كثرة الذين تضمهم الأمكنة التى يخطب فيها مصطفى كامل ، فإن أحداً من هؤلاء لم يحدثنا عن خصائص مصطفى الخطابية من حيث الوقفة ، وأسلوب الإشارة وطريقة الأداء ، وتكييف الصوت ، وسرعة الكلام وبطئه ، وارتفاع الصوت وانخفاضه ، والتلاوة من الورق ، والارتجال ، وتدفق الكلام أو تقطعه ، وتردد الخطيب فى بعض المواقف بحثا عن اللفظ المناسب أو العبارة المطلوبة ، أو التاريخ الواجب ذكره ، أو الرقم الذى ينبغى إيراده ، فحرمنا من الوقوف على صورة واضحة لمصطفى كامل الخطيب . . . . . إلا من حيث أثره المحبب ، وتفرده فى عصره ، بالمكانة الأولى بين الخطباء والمتحدثين . على أننا إذا أردنا أن نتلمس وسائل تعرف خصائص مصطفى كامل الخطابية ، فلابد لنا من أن نرجع أول مانرجع إلى ماكتبه أخوه على فهمى كامل عن والدهما المرحوم على أفندى محمد ، الذى ورث مصطفى كامل

بعض صنانه . والواضح أن الوالد كان جهورى الصوت ، بحكم كونه ريفيا وضابطا ومدرسا ، ومهندسا مشرفا على تنفيذ أعمال يقوم بها جماعات عمال ، وواضح أنه كان عظيم للقصص يقص القصص على أولاده ، فلكة الراوية والحديث تواتيه ، وقد كان بارعا فى قص الحكايات يستهوى أسماع أولاده ، وأول ماكتب عن مصطفى كامل وخصائصه الخطابية ، هو مانشره مندوب جريدة (جازيت دى طولوز) فى ٢٣ من نوفمبر سنة ١٨٩٤ فقد قال :

قال لنا مصطفى كامل بصوت عال وطلاقه نادرة ولغة صحيحة سهلة وسرعة مدهشة . « وقد نقلنا قول (اوى برنران) فيما تقدم وقد تحدث هو أيضا عن أسلوب مصطفى كامل الخطابى ، فى الحديث فقد كان يحدثه به وهما وحدهما فى غرفة ، خالية من الناس ، وكأنه يخطب جماعة . فمن كل هذا يمكننا أن نقطع أن مصطفى كامل ، كان جهورى الصوت ، يملأ صوته المكان الذى يخطب فيه ، بحيث يسمع كل الحاضرين بغير وسيلة من وسائل تكبير الصوت وتضخيمه التى عرفت فيما بعد ، وبدون أدنى مشقة . وكان فوق جهارة صوته متدفق العبارة ، سريع الأداء ، وفوق كل هذا واضح مخارج الألفاظ إذ لوكان ممن لايستبين السامع عبارتهم لكان الاستماع إليه . . . شاقا ولما أقبل الناس على خطبه وأحاديثه . قد كتب لأخيه يصف له كيف قام بتجارب عديدة فى حجرته بطولوز قبل أن يلقى خطبته الأولى ، والذى نتصوره ، أنه لم ينقطع عن هذه التجارب حتى بعد أن تمكن من فن الخطابة ، وبعد أن أصبح خطيبا مجيداً ، فإن خطاباته التى حفظت عنه ، ليست خطابات مرتجلة ، تماما ، وإن كان مصطفى كامل ممن لايقرأون خطبهم ، فقد كان يتكلم منطلقا ، قد يستعين بورقة صغيرة فيها نقاط تذكره بمراحل الخطبة وعناصرها ، وربما ببديات الجمل ، لكنه بعد ذلك يعتمد على ذاكرته وحافظته ، فهو يكتفى بإعداد الخطبة ثم تلاوتها فى خاوته

مرتين أو ثلاثاً ، فى الأيام السابقة على الاجتماع ، فتثبت فى ذاكرته وتجرى على لسانه، وربما أدخل عليها فور اللحظة من التعديل مايقتضيه الموقف .

وعلى الرغم من حرارة خطبه ، وحرارة أسلوبه فى الأداء ، وجيشان عاطفته ، فهو يخطب ، ويتكلم ، فإنه لم يكن من الخطباء الذين يبلغ بهم الانفعال إلى حد يخرجه عن الوقار ، فحركات يديه وذراعيه ، مضبوطة ، وضربات قبضة يديه ، تتوالى أحيانا عند التأكيد أو الغضب ، ولكنها لاتبلغ مبلغ الأداء المسرحى ، الذى يتقاصر فيه الخطيب ، ويتطاول ويتقدم ويتأخر ، ويحنى رأسه ، ويفتح صدره ويلوى عنقه ويمط شفتيه ، ويعقد حاجبيه ويتظاهر بالضحك ، ويدعى البكاء . فهذه كلها آفات ، نجا منها مصطفى كامل ، فكان وسطا بين الحرارة والاتقاد والتدفق ومزاياه الأخرى هى جهارة الصوت ، ووضوح مخارج الألفاظ ، والحماسة دون المبالغة المفسدة لوقع الكلام ، والمهدرة لكرامة الخطيب .

ومن أكبر خصائص مصطفى كامل الخطيب والكاتب والمتحدث سهولة ألفاظه ووضوح أفكاره ، وخلوها من الاستطرادات التى تشتت الذهن ، أو كثرة الأرقام والأسماء والتواريخ التى يثقل على الأذن التقاطها . إن خطب مصطفى كامل كانت لاتخلو عادة من أسماء وتواريخ ، لكنها فى الخطبة الواحدة ، قليلة بحيث لاتتحول الخطبة إلى محاضرة . وأسلوب مصطفى كامل فى الكتابة والخطابة ، متقارب ؛ فهو إذا كتب خطب ، وإذا خطب ، كأنه يملى مقالا ، وهذه حقيقة الكاتب الخطيب ، ويتقارب أسلوبه فى العمل الأدبى المقروء أو الملفوظ .

ومن الأمور التى تستوقف النظر أن خطب مصطفى كامل خلت تماماً أو خلت تقريباً من الاستشهاد بالآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية ، ولم يستشهد من الشعر إلا ببيت أو اثنين فى مقالين من مقالاته مع أن العهد الذى كان يخطب فيه مصطفى كامل كان شديد الكلف

بالشعر ، وكانت كفاءة الكاتب والخطيب تقدر بكثرة مايستشهد به من الآيات والأحاديث ، القول المأثور ، ويبلغ الإعجاب بهما ، إذا ضمن كلاماً قرآنياً من كلام الله تعالى أو أحاديث رسول الله ، فجرت فى الحديث أو الخطاب ، كأنها جزء منه .

ومقالات مصطفى كامل وخطبه مقاطع بين الطويلة والقصيرة ، ولكن كل مقطع يتكون من جمل بينها فواصل ، يمكن الوقوف عندها ، والتقاط الأنفاس . لايكرر الألفاظ الواحدة فى خطبه ولا مقالاته وهو أسلوب خطابى معروف ، ولا عيب فيه ، ولكنه يكرر المعانى لاسيما ما كان منها متصلا بفكرة الجلاء وجرائم الانجليز فى مصر .

والأمر الثانى الذى يستوقف النظر فى خطب ومقالات مصطفى كامل أنه على الرغم من أنه خاصم أقوى قوتين فى مصر : الاحتلال والخديو ، وأنه نازل جميع الرجال ذوى النفوذ الذين لم يؤيدوا الحركة الوطنية ، أو مالوا إلى الإنجليز أو أحسنوا الشهادة فى الاحتلال أو ثبطوا همة المجاهدين المصريين ، وهؤلاء جميعاً من ذوى النفوذ والمكانة ، ولكنه لم يخرج قط عن حدود القانون ، وذلك لشدة اتزانه ، واعتدال مزاجه ، وتجرده من الغرض . والحق أن مصر والبلاد العربية ، وربما أكثر بلاد العالم لم تعرف خطيباً فى مثل مكانة مصطفى كامل وعظيم أمره وكثرة أتباعه ومؤيديه ، عاش ومات دون أن يكون سباباً أو فحاشاً ، أو خادشاً للحياء أو جارحاً للأذن ، أو مثيراً للاشمئزاز أو الامتعاض ، وعلى العكس كان صوته وكلامه ، وصورته ، باعثة على الحب له ، والاقتناع به والاطمئنان إليه .

وقد جرت كثير من ألفاظه وعباراته على ألسن المصريين ، وعاشت بعده زمناً طويلا ، ولاتزال ألفاظه دون جميع الخطباء العظماء الذين عرفتهم بلادنا ، مصدراً لإلهام الشعراء والموسيقيين والملحنين والفنانين .

ومن أقواله المأثورة المحفوظة : لو لم أكن مصرياً ، لوددت أن أكون مصرياً .

أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا .

بلادى بلادى لك حبى وفؤادى .

لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة .

إن من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان .

لو انتقل فؤادى من الشمال إلى اليمين ، أو تحولت الأهرام عن مكانها لما تغير لى مبدأ ولا تحول لى اعتقاد .

إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ، ونحن نرى من الآن الاستقلال المصرى ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة .

مهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام ، وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب ، فإننا لا نمل ولا نقف ، ولا نقول أبداً : طال الانتظار .

لو تخطفنا الموت من هذه الدار واحداً بعد واحد ، لكانت كلمتنا لمن بعدنا :

كونوا أسعد حظاً منا ، ليبارك الله فيكم ، ويجعل الفوز على أيديكم » .

* * *

الفصل الثامن

أصول وبذور

كان هدف مصطفى كامل ، الأوحد والأسمى ، هو جلاء الجيوش البريطانية عن مصر ، « الجلاء أولا ، ثم الاستقلال . فالجلاء عمل مادى ، لا خلاف عليه ، لا تخطئه العين ، ولا يختلف فى شأنه الناس ، أما الاستقلال ، فكلمة مطاطة يمكن معها للمحكومين المغلوبين على أمرهم أن يعرفوا بأنهم مستقلون ، ومهماز الحاكم الأجنبى يخز جنوبهم ، وثقله يؤود ظهورهم — وقد استقلت مصر ثلاث مرات : مرة فى ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ ، حينما صدر تصريح ٢٨ فبراير من تلك السنة ، وأعلن أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وتحول لقب حاكمها ، من سلطان إلى ملك ، وأصبح لها دستور ومجلس تشريعى ، وسفراء يمثلونها عند ملوك العالم ورؤسائهم ، ثم استقلت مصر مرة ثانية فى ٢٦ من أغسطس سنة ١٩٣٦ ، ثم استقلت مرة ثالثة فى سنة ١٩٥٤ ، ولكن لم يكمل استقلالها إلا حين جلا الإنجليز للمرة الثانية فى ديسمبر سنة ١٩٥٦ فى أعقاب حرب .

ولكن مصطفى كامل ، كان يعلم أن هدفه العزيز والغالى ، يمكن الوصول إليه بأهداف مرحلية ، لا تغنى عنه ، ولا تحل محله ، ولكنها تجعله أقرب منالا ، وتجعل الشعب لمتاعب الجهاد أعظم احتمالا ، وتضيق على الغازى الغاصب الخناق ، وتجرده من بعض سلاحه ، وتحرمه من فريق من أعوانه وأنصاره .

ولذلك دعا مصطفى كامل وعمل لأهداف أخرى عديدة كان

سباقاً فى الدعوة إليها ، مهد لها الطريق ، وبذر بذورها ، وأرسى أصولها .

والحقيقة أن مصطفى كامل ، تكلم وكتب ، وفكر فى كل ما يهم مصر ، وما يحقق لها الثروة ، ويوفر لها المتعة ، ويرسم لها طريق النجاح .

ألقى بذرة الدستور ، وألح فى الدعوة ، وبقى أملا من آماله .

وألقى بذرة الجامعة ، ونبه الأذهان إليها ، وبقيت حلماً من أحلامه .

وألقى بذرة التعاون ، وكشف للناس فضائله ، وكان رائد التعاون تلميذاً من تلاميذه .

وألقى بذرة اتحاد طلبة الجامعة ، وتحققت فكرة لعهده فى أيامه .

وألقى بذرة التعليم القومى ، الذى يقوم على التربية ، لا على التلقين ، وضرب للناس مثلا فى ذلك الميدان .

وألقى بذرة العمل الحر ، ونفر الناس من الوطيفة الحكومية ، وهاجم التهافت عليها والترامى على أعتاب الحاكم .

وألقى بذرة الصناعة والتعليم الصناعى : وصور للشعب ثمارها وثماره ، وأغرى بالتفكير فيهما ، والسعى إليهما .

وألقى بذرة تمجيد عظماء مصر ، وتخليد أيامها التاريخية ، احتفالا بتاريخ مصر وبث فى النفوس الاعتداد بوطنهم ، والاعتزاز بتاريخهم .

وقد كان كما علمنا أول من أخرج مجلة مدرسية معتمداً على نفسه لاتؤيده إدارة ولاوزارة .

كما كان أول سياسى يؤلف كتاباً فى العلاقات الدولية ، ويشرحها ويعلق عليها ويستخرج منها الحقائق الكلية ، فقد وضع كتاب « المسألة الشرقية » ، كما كان أول سياسى يؤلف كتاباً يدرس نظام وأسباب رقى أمة شرقية نافست دول الغرب وأصبحت لهم نداً لتكون للمصريين ، أنموذجاً ومثالا ، إذ وضع كتاب « اليابان بلاد الشمس المشرقة » .

وكان أول صحفى ، يصدر ثلاث جرائد يومية ومجلتين إحداهما أسبوعية ، والثانية شهرية ، وكانت إحدى الصحف بالعربية ، والثانية بالإنجليزية والثالثة بالفرنسية .

وكان أول سياسى مصرى ، يضع الكتب والرسائل باللغات الأجنبية ، ويترجم مقالاته ورسائله وخطبه إليها . .

والحقيقة أنه فى كل هذا لم يكن الأول فقط وإنما كان أيضاً آخر من حاول ذلك ، ونفذه ، فمن بعده لم يأت السياسى أو الصحفى ، أو صاحب دار نشر أو رجل أعمال ، يصدر بنفسه وبإشرافه وتوجيهه صحفاً عربية وإنجليزية وفرنسية ومجلات شهرية وأسبوعية ، مع مهامه الكبرى ، التى كان يحملها بشجاعة ، ويؤديها بكفاية ، وينجح فيها نجاحاً منقطع النظير .

وإذا كنت قد قلت فى موضع سابق هذا الكلام أو مايشبهه ، فعذرى أن الإنسان لا يمل من الإشارة إليه ، والوقوف عنده ، ولفت النظر إلى دلالاته ومعانيه ، ولا سيما نحن فى تلك الأيام التى تشى باحتمالات لا حصر لها ، وتطورات لا نهاية لآثارها ونتائجها .

وإذا كنت قد ذكرت الدستور والجامعة والتعاون واتحاد الطلاب والصناعة والعمل الحر ، فليس معنى ذلك أن هذه هى البذور التى ألقى بها وحدها فى أرض مصر ، ووجدان شعبها ، فقد دعا إلى أشياء كثيرة عظيمة مجيدة منها مجانية التعليم وإلزاميته ، ومنها عمله الدءوب المستمر لتأييد وحدة الشعب المصرى ، بجميع عناصره وفئاته ، والحملة على التعصب الدينى ، والتفرقة العنصرية ، ومنها الدعوة إلى السلام العالمى ، وإظهار مخاطر الاحتلال البريطانى عليه .

الدستور :

لقد كان هتاف مصطفى كامل للدستور المصرى ، والدعوة له . والمطالبة به ، مبكرة فى حياة مصطفى كامل السياسية .

بدأ مصطفى كامل يروج للفكرة الدستورية ، وهو بعد طالب فى مدرسة الحقوق ، فقد أخذ يشرح فى مجلته الصغيرة (المدرسة[1] أنظمة الحكم من ملكية مطلقة ، وملكية مقيدة وجمهورية ، كما يشرح هيكل الحكومة الدستورية من سلطة تشريعية وسلطة قضائية وسلطة تنفيذية ، فقال عن السلطة التشريعية (هى أهم القوتين لأنها هى التى تسن القوانين واللوائح وهى التى تضع أنظمة الحكومة الداخلية ، وبمعنى آخر نقول إن القوة التشريعية تعد كآمرة والقوة التنفيذية كمأمور يجب عليه إطاعة أوامر آمره . وليس للقوة التشريعية فى البلاد شكل واحد . فهى تختلف باختلاف الممالك ، وعلى كل حال فهى تابعة لدرجة حضارة الأمة ، فمتى فازت الأمة فى الحضارة بالقدح المعلى كانت قوتها التشريعية مستقلة ، كاملة الاستقلال ، متمتعة بقوة التشريع الحقيقية لاراد لما تسن وتضع وبعكس هذه الأمة التى عم الجهل أبناءها وتحكم الفشل بين أفرادها ، ترى حكومتها حكومة مستبدة طاغية ملكها ملك بيديه كامل التشريع ، والتنفيذ فهى بالطبع أمة محرومة من قوة تشريعية مكونة كغيرها منها بعض أفراد تنتخبهم الأمة بأسرها . ولقد قال فى ذلك أحد فلاسفة اليونان ما معناه (ليس لأمة من الأمم أن تعد نفسها أمة إلا إذا كان مجلس نواب ينوب عنها فى وضع اللوائح والقوانين التى تحكمها » .

وقال فى عدد سابق من مجلة المدرسة (العدد الرابع الصادر فى ١٧ مايو سنة ١٨٩٣) وهو يتحدث عن الملكية الديموقراطية والمطلقة فيقول عن الأخيرة . . والحكومة التى فيها السلطة مطلقة للملك تكون مركزاً للظلم

---

(١) مصطفى كامل فى أربعة وثلاثين ربيعاً — على فهمى كامل .

ومحطاً للإجحاف بخلاف التى استحسناها فإنها مجلبة للعدل وموضع التقدم والنجاح .

فإذا تذكرنا أن مصطفى كامل دخل مدرسة الحقوق وهو فى السادسة عشرة من عمره ، وأنه فى السنة الثانية من التحاقه بها ، أصدر مجلة المدرسة ،عرفنا أن هذه الآراء الواضحة القوية ، والصحيحة من الناحية العلمية ، هى آراء صبى فى السادسة عشرة وبضعة شهور ، وعرفنا فوق ذلك أن الفكرة الدستورية ، صاحبته منذ شب عن الطوق ، واتصلت بعقله حقائق الأنظمه الدستورية ، وعرف خيرها من شرها وأبيضها من أسودها وهو بذلك أسبق الكاتبين فى الدعوة إلى الدستور بهذا الوضوح والجلاء ، الذى لا يشوبه غموض ولا التواء . ولم يكف مصطفى كامل عن انتهاز أية فرصة تلوح له ،وهو يصف مشاهداته فى أوربا التى كان ينشرها فى الأهرام سنة ١٨٩٢ وما بعدها دون أن ينوه بمزايا الحكم الدستورى ، ويبين سر انتشار التعليم والصناعة ، وقوة الوحدة الوطنية فى الدول الأوربية مرجعه أن الحكومة هناك (أهلية) أى ناتجة من الشعب ، تمثل مصالحه ، وتفكر فى خيره ، فإذا جاءت سنة ١٩٠٠ ، وبزغ نور القرن العشرين بزغ معه نور صحيفة اللواء اليومية التى صدر أول أعدادها فى الثالث من يناير سنة ١٩٠٠ ، كتب مصطفى كامل فى العدد الثالث من هذه الصحيفة الوليدة الصادر فى الخامس من يناير سنة ١٩٠٠ [١] مقالا بعنوان « الحكومة والأمة فى مصر » قال فيه :

لعمرى إذا كان الإنجليز يودون حقيقة أن يعيشوا مع هذا الشعب المصرى ، فى وفاق واتفاق ويسيروا به فى طريق السعادة كما يدعون ، فأول واجب نطالبهم به هو أن يحققوا وعد اللورد دوفرين ويجعلوا للحرية ،

---

(١) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية — الطبعة الثانية — عبد الرحمن الرافعى .

والعدالة ، أساسات قوية ، متينة لا تستطيع يد بشرية إنجليزية أو مصرية ، أن تمسها بسوء .

ولعل هذه أول وآخر مرة طلب فيها مصطفى من الإنجليز شيئاً يجرونه فى مصر ، ولكن ما طلبه منهم فى ٥ من يناير ، هو فى الواقع إلغاء لوجودهم وإنهاء لاحتلالهم ، إذ أن قيام أنظمة قوية كاملة للحرية والعدالة ، لا يمكن أن تمسها بسوء يد بشرية ، إنجليزية كانت أو مصرية ، ليس له إلا مؤدى واحد ، هو استقلال مصر بشئونها ، واستقلال مصر بشئونها مُنْه للاحتلال ولو بقيت جيوشه على أرض مصر .

وفى ١٦ من نوفمبر سنة ١٩٠٢ كتب تحت عنوان (إفلاس الاحتلال)[١] :

« عندى أن هذه الأدوار والأداء المتنوعة « فى وزارتى التربية والتعليم ، والداخلية) والتى تدل كلها على شدة الحاجة فى هذه البلاد إلى مجلس نيابى تكون له السلطة التشريعية الكبرى ، فلا يسن قانون بغير إرادته ، ولا تحرر مادة إلا بمشيئته ، ولا يزعزع نظام بغير أمره ، ولا تعلو كلمة على كلمته ، وإلا فإن بقاء السلطة المطلقة فى يد رجل واحد سواء كان مصرياً أو أجنبياً يضر بالبلاد كثيراً ويجر عليها الوبال » .

وفى التاسع من مارس سنة ١٩٠٤ كتب تحت عنوان (إنشاء مجلس نيابى) فى اللواء ما يلى[٢] .

لعل قراء اللواء وغيرهم من أفراد الأمة المصرية يذكرون ما قلناه من فوق المنابر وماكتبناه فى هذه الجريدة وغيرها من وجوب إنشاء مجلس نيابى منذ عشر سنوات كاملات ، ويسرهم كما سرنا أن هذا المطلب صار على

---

(١) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية — الطبعة الثانية — عبد الرحمن الرافعى .

(٢) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية — الطبعة الثانية — عبد الرحمن الرافعى .

ألسنة الكثيرين من أهل القطر ، لأنه الأنشودة التى يجب أن يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال ، وسواء كان سابقاً أو لاحقاً لتخلص البلاد من رق الاحتلال ، فإنه الضمانة الوحيدة والكفالة الصحيحة لسلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة » .

وقد رسم مصطفى كامل للمصريين طريق الوصول إلى هذا الدستور ، فقال :

ليس للاحتلال مصلحة فى إيجاد مجلس نيابى لهذه البلاد ، ولكن صوت الأمة يعلو على صوته ، إذا تمسكت به ودعت إليه طالبت وجاهدت بقوة الرأى والفكرة والثبات التى هى أكثر القوى الفعالة فى حياة الأمم . فلتفعل فإنما هى تخطو بالوصول إليه أكبر خطوة فى طريق الاستقلال » .

ولما احتفل مصطفى كامل بالذكرى المئوية لاعتلاء محمد على عرش مصر ، وذلك فى الحادى والعشرين من مايو سنة ١٩٠٢ خطب فى مسرح (زيزينا) بالإسكندرية فقال عن الدستور [١] .

إنما الدستور هو منح الأمة حق الإشراف على الأعمال كافة ، ومراقبة ما تجريه الحكومة لخيرها أو لضرها ، وسؤال الوزارة عن كل صغيرة وكبيرة ، وتغييرها بغيرها إذا أساءت استعمال السلطة أو تهاونت فى خدمة البلاد . الدستور هو ألا يستطيع أحد مهما كان عظيماً ، وطنياً أو أجنبياً ، أن يمس القوانين والأنظمة بشىء ، فهل يوجد رجل واحد فى هذه الأمة يجرؤ على القول بأننا اليوم متمتعون بنعمة الدستور ، وأن المحتلين لو شاءوا أن يغيروا أى نظام موجود أو خرق سياج أى قانون لا يستطيعون ، لعمرى أن ما يسميه المحتلون أو أنصارهم الدستور لهو الفوضى فى لباس النظام ، والاختلال فى قالب الاحتلال . نحن نرى من العار والخيانة عدم المطالبة بالجلاء . . . نحن نرى من الجبن ومن الموت عدم المطالبة بالدستور » .

(١) مصطفى كامل حياته وجهاده — أحمد رشاد .

ولما كانت هذه بذور قوية وسليمة ألقتها يد صالحة وصادقة فقد أنتجت ثمارها ، إذ تلقف اللواء محمد فريد من مصطفى كامل فاستمرت المطالبة بالدستور واشتدت ، وفى المؤتمر الوطنى السنوى للحزب الوطنى اقترح محمد فريد إرسال برقية إلى الخديو وهو فى المدينة المنورة مقام الرسول عليه الصلاة والسلام ، يهنئون بالزيارة ويطالبون بالدستور ، وفى مؤتمر الحزب الوطنى المنعقد فى بروكسل سنة ١٩١٠ قال محمد فريد : اسمحوا لى أيها السادة أن أخاطبكم عن المسألة التى نضعها فى الصف الأول من اهتمامنا بعد مسألة الجلاء التى بدونها لا يكون ثمة إصلاح حقيقى فى البلاد ، ويكون كل ماتناله الأمة دونها من قبيل ذر الرماد فى العيون ، أريد أن أخاطبكم عن مطالبتنا بالدستور الذى يضع فى يدنا سلطة التشريع ، ويجعل لنا الرقابة الفعالة على شئوننا المالية التى تدار الآن بغير مراعاة لمصالح البلاد » وكى يعرف فضل مصطفى كامل وخليفته فريد وحزبه ، فى موضوع الدستور يحسن أن نعرف بماذا كان يطالب الأستاذ أحمد لطفى السيد ، كدستور للبلاد ، قال فى جريدة الجريدة :

فهل نحن نطالب بتوسيع اختصاص هيئاتنا النيابية على هذا النحو (أى نحو الدستور البريطانى) ؟ كلا إنما نطالب بالجزء الذى يمس حاجتنا من السلطة التشريعية ، وهو أن يكون رأى مجلس الشورى قطعياً فى القوانين التى تطبق على المصريين دون غيرهم » .

وهو بحسب بهذا الدستور الجزئى ، أنه سيستطيع أن يحصل على شىء ذى قيمة لأن الإنجليز لن يسلموا مطلقاً بأن هناك قانوناً يسرى على المصريين وحدهم ولا يؤثر بطريق مباشر أو غير مباشر ، من قريب أو بعيد على الأجانب . وقد عانى المصريون من نظرية (الصالح المختلط) فى ظل الامتيازات الأجنبية وفى القضايا المعروضة على المحاكم المختلطة ، فقد كانت هذه النظرية تقضى باختصاص المحاكم المختلطة دون المحاكم

الوطنية فى كل نزاع فيه صالح مختلط ، فأصبح من حق المحاكم المختلطة أن تقضى باختصاصها بكل نزاع يسرها أن تستأثر به ، وكانت تجد دائمًا ما يعينها على إثبات وجود صالح مختلط .

وانتقل الحزب الوطنى من المطالبة بالدستور بالمقالات إلى تنظيم حركة تشارك فيها الجماهير ، وتنقل المطلب إلى صفوف الشعب ، فأعد الحزب عشرات الآلاف من طلب مطبوع موجه إلى الخديو ليقيم الحياة النيابية فى البلاد، وقد تم توقيع٤٥ ألفًا من المصريين على هذا الطلب وقدمه فريد للخديو عباس فى ٢٥ من أبريل سنة ١٩٠٨ ، واتسع نطاق الدعوة للدستور ، وأصبح المطلب الثانى للمصريين بعد الجلاء .

الجامعة :

شكا مصطفى كامل ، وهو يخطو خطواته الأولى ، من حرمان مصر من التعليم الذى يتيح للمصريين الدراسات العليا ، فى علوم الرياضة والفيزياء والكيمياء والآداب – والتاريخ ، وهى الدراسات التى تتيح لهم فرص إنضاج مواهب البحث والمقارنة والاستنتاج والخروج بهم من الحفظ والاستذكار والاستيعاب ، بالجملة طالب بالدراسات الجامعية التى تخرج الأساتذة والبحاث ، لا الحفاظ والمقلدين ، وطالبى الوظائف الحكومية ، وأدوات الحاكم المطيعة السلسة القياد .

كان مشغول الخاطر بالعلم والتعليم والمعلمين ، وناقش مشكلات التعليم فى مصر وسوء اختيار المعلمين ، والإكثار من المعلمين الأجانب ، وعلى وجه خاص بالمعلمين الإنجليز فى المدارس الثانوية والعليا والإغداق عليهم بالمرتبات الوفيرة ، والضن على المدرس المصرى بما يستحقه من المكافأة أو المرتب .

وفى ٢٦ من أكتوبر سنة ١٩٠٤ قال فى اللواء :

« مما لا يرتاب فيه إنسان أن الأمة المصرية أدركت فى هذا الزمان حقيقة المركز الذى يجب أن يكون لها به قيمة عند الأمم . وأبلغ الأدلة على ذلك نهضتها فى مسألة التعليم وقيام عظمائها وكبرائها ، وأغنيائها بفتح المدارس وتأسيس دور العلم بأموالهم ومجهوداتهم، ولكن قد آن لهم أن يفكروا فى الوقت الحاضر فى عمل جديد، الأمة فى أشد الحاجة إليه، ألا وهو إنشاء جامعة للأمة بأموال الأمة

وفى ٨ من يناير سنة ١٩٠٥ عاد مصطفى كامل إلى فكرة الجامعة ودعا إلى إنشاء جامعة بالقاهرة، واستحث الأغنياء بأن يحتضنوا هذا المشروع أدبيًّا وماديًّا . ونشرت الصحف على أثر هذه الدعوة المقالات الطوال فى هذا الصدد، ولكن، لم يتقدم من الأغنياء بتبرع ذى قيمة لهذا المشروع إلا الأمير حيدر فاضل .

وفى ٣ من فبراير من السنة نفسها كتب مصطفى لأمه الروحية جولييت آدم يحدثها عن حملته الصحفية لإنشاء الجامعة ، وأخبرها بأن الجميع قد وافقوا على هذا المشروع ورجاها أن تكتب مقالا ، فى تأييده ، وفى مايو سنة ١٩٠٥ بدا أن مشروع الجامعة يتعثر ، وخشى بعض الأمراء الذين تهيأوا للمساهمة فى المشروع من أن يحتاج إلى أموال باهظة وأن تبرعاتهم لن تكفى ليقف المشروع على قدميه ، فقبضوا أيديهم عن البذل، وكان قد جمع مبلغ خمسة آلاف لإنفاقها على بعثات للخارج بدلا من الانتظار حتى يكتمل التبرع ويتم جمع المبلغ اللازم لإنشاء الجامعة ، ولكن الأمير حيدر فاضل سافر إلى الإسكندرية لمقابلة الخديو ونيل موافقته ، ولكن الخديو ماطله ، ولم يصل الأمر إلى نتيجة مرضية ، وأفضى كامل بأحزانه إلى مدام جولييت آدم ، وحدثها عن خيبة أمله، ولكن مصطفى لم يلبث أن أخبر مدام جوليت أن مشروع الجامعة قد تكلل أخيراً بالنجاح، إذ تم الاتفاق على إرسال بعثة إلى أوربا لتكون

نواة للتدريس فى هذه الجامعة وقد جمع آنذاك نحو ٨ آلاف جنيه وسيبقى باب الاكتتاب مفتوحاً حتى آخر سبتمبر .

ولما عاد مصطفى كامل من بريطانيا بعد حملته الناجحة ضد كرومر بمناسبة حادثة دنشواى التى وقعت فى ١٣ من يونية سنة ١٩٠٦ جمع بعض المال للاحتفال بمصطفى وتقديم هدية تذكارية له فرفض أن ينفق فى هذا الوجه ، ورجا أن يوجه إلى مشروع إنشاء الجامعة ، ويقول لمحمد فريد: « فخير هدية اقترحها عليكم تقديمها للوطن العزيز والأمة المصرية المحبوبة ، هى أن تقوم اللجنة التى شكلت بدعوة الأمة كلها وطرق باب كل مصرى ، لتأسيس كلية أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء ، وتهب الأمة الرجال الأشداء الذين يكثرون فى عداد خدامها المخلصين ، ممن لا يخافون فى الحق لومة ولا عتاباً ويعملون لمداواة جروحها وجمع أمرها وبث روح الوطنية العالية فى كافة أبنائها ، لأن كل مليم يزيد على حاجة المصرى ولا ينفق فى سبيل التعلم هو ضائع سدى ، الأمة محرومة منه بغير حق » .

« هذه هى الهدية الوحيدة التى يليق بالمواطنين الصادقين إهداؤها لمصر والمصريين ، هذه هى الهدية الفريدة التى تملأ الفؤاد فرحاً وانشراحاً وفيها أرقى مظاهر الحياة » .

« فلتنس الأحزاب انقساماتها وليتس الصحافيون خصوماتهم ولنلق بالأحقاد ولو يوماً واحداً ، فى هوة لا يسمع فيها لغو ولا دوى ، ولتجتمع الأمة لإتمام هذا العمل الضخم ، وتحقيق ذلك المشروع الذى كله خير ونفع عميم » .

فالجامعة كانت فكرة من أفكاره ، وبذرة ألقاها ، ثم رعاها صغيرة حتى اشتد ساقها وأصبحت أمل أكثر المصريين ، حتى أوفدت البعثة الأولى من بعثاتها ، واحتفل بها فى نادى المدارس العليا ، الذى كان بدوره

ثمرة من ثمار جهد مصطفى كامل . فماذا يكون هذا النادى وما دوره فى الحياة العامة ؟

نادى المدارس العليا

فى سنة ١٩٣١ وما بعدها ، بعد أن أنشئت الجامعة الأهلية ثم بعد أن بعثت بعثتها الأولى ، وفتحت أبوابها للتلاميذ ، وقاعاتها للمحاضرين وطلاب المعرفة ، ثم بعد أن أصبحت جامعة حكومية سنة ١٩٢٨ شيدت لها دور فاخرة على أرض حدائق الأورمان بالجيزة ، لم يكن لطلاب الجامعة ناد يضمهم ويهىء لهم فرصة التلاقى ، وينظم لهم برنامجاً للمحاضرات وآخر للرحلات ، وتخرج منه مشروعاتهم ، لم يكن لهم سوى شقة فى عمارة بشارع عدلى بالقاهرة فى حين افتتح نادى المدارس العليا فى حياة مصطفى كامل فى الخامس من أبريل سنة ١٩٠٦ ، فى مبنى كامل فى العقار رقم ٤ بشارع قصر النيل ، وكان مبنى فسيحاً يضم الغرف الرحبة والقاعات المتعددة ، تحيط به حديقة غناء ، وخصص من قاعاته واحدة للمكتبة ، وثانية للاجتماع والمحاضرة ، وثالثة (للبلياردو) وألعاب التسلية المنزلية ، ورابعة لمجلس الإدارة واجتماعاته ، وخامسة لمكتب الرئيس ولأمين النادى .

وقد كان يوم افتتاحه عيداً من أعياد مصر القومية حضره وزير المعارف (التربية والتعليم) ووكيله سكرتير الوزارة الإنجليزى ومحافظ العاصمة ونظار المدارس العليا ووكلاؤها .

وافتتاح ناد فى ذاته ، ليس بالشئ العظيم ، لولا أن نجاح فكرته وتنفيذها فى ذلك الوقت وإقبال الطلاب عليه كان فى نجاح مطرد ، واستمرار زيادة أعضائه وثبات العمل فيه وتنوعه وانتظام المحاضرات ، وتردد كبار الشخصيات عليه ، اختلاط خريجى المدارس العليا من مستشارين وقضاة

ومحافظين ومديرين ، وأطباء ومهندسين بطلاب المدارس العليا، وتحدث الكبار إلى الصغار ، واستفسار الصغار من الكبار وإبداء الاقتراحات لهم ، والتعبير عن نقد الأحوال الجارية كل ذلك جعل من هذا النادى ندوة سياسية ووطنية وداراً للبحث والمناقشة ، وخرجت منه الأفكار الاجتماعية والمشروعات الوطنية وتعددت وتنوعت فصاحب الحركة الوطنية ووسع نطاقها وارتقى بأساليبها وقوى وحدة الطلاب على طريق الجهاد الوطنى والاجتماعى ، وجعل منهم طليعة التقدم والتطور وأشعرهم بدورهم ، رواداً وقادة ، فأدوا هذا الدور على أحسن ما يكون الأداء خطباء وأعواناً للحركة الوطنية ومناضلين بالفكر واليد ، حتى كان منهم الشهداء الذين لقوا ربهم ووقود الثورة فى السجون والمنافى والمعتقلات . قادوا المظاهرات وصنعوا الشعارات ووزعوا المنشورات ، وأطلقوا الرصاص فقتلوا من جنود الاحتلال وأعوانه عدداً أشعر الاحتلال أن مصر ترفضه وأطلق الاحتلال وأعوانه الرصاص عليهم ، فقتل منهم عدداً ، كانت دماؤهم زاداً للحركة الوطنية خرجت بها من دور الاستعداد والتهيؤ إلى دور الصلابة والقتال الحقيقى .

بدأ التفكير فى إنشاء النادى سنه ١٩٠٥ وبالفعل بجنة تاسيسه فى أكتوبر من تلك السنة برياسة الطبيب القانونى الدكتور عبد العزيز نظمى(١) ، ولم يكن مصطفى كامل بعيداً عن ميلاد هذه الفكرة ، فكل الذين دعوا إليها وعملوا على تنفيذها من تلاميذه وأنصاره الذين يترددون عليه ، ويتأثرون به ، ويتداولون معه ، ليلة بعد ليلة فكتب فى اللواء فى ١٩ من أكتوبر سنة ١٩٠٥ «

نرى من أوجب الواجبات إعانة هذا النادى ممن يقدرون العلم ودوره،

---

(١) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية . الطبعة الثانية ص ١٥٨ عبد الرحمن الرافعى .

لذلك نود أن يقتفى الكبراء والعظماء والوجهاء ، أثر الذين جادت نفوسهم بما تبرعوا به له حتى الآن ، وبقدر ما يتبرع الواحد لهذا النادى المحرومة منه هذه البلاد تعلم قيمة العلم عندنا كثرة وقلة فنستنهض همم السراة لمد يد المعونة إلى هذا النادى الذى سيكون محط رحال أبنائهم » .

واجتمعت أول جمعية عمومية بهيئة تأسيسية يوم الجمعة ٨ من ديسمبر سنة ١٩٠٦ بإحدى قاعات مدرسة الطب لانتخاب مجلس إدارة النادى ، وبلغ عدد الحاضرين من الطلبة مائتى طالب وهو عدد كبير فى تلك الأيام ، إذ لم تكن السنة الدراسية الواحدة فى أية مدرسة عليا تضم أكثر من ثلاثين طالباً ، وقد انتخب رئيساً للنادى ، عمر بك لطفى وكيل مدرسة الحقوق رائد الحركة التعاونية فى مصر ، وصديق من أكثر أصدقاء مصطفى كامل إخلاصاً ، وانتخب مجلس الإدارة فضم أسماء لعب أصحابها أدواراً عظيمة فى حياة مصر السياسية والثقافية ، فقد مثل عمر لطفى ومحمدعبد الخالق ثروت خريجى الحقوق ، وقد وصل هذا الأخير إلى منصب النائب العام فالوزير فرئيس الوزارة ، ومثل طلبة الحقوق اثنان : أحمد أمين الفقيه العظيم ، وأستاذ قانون العقوبات الفذ ، ومثل طلبة الطب حافظ عفيفى ، الذى بقى زمناً طويلا وفياً لمبادئ الحزب الوطنى ، والذى وصل فيما بعد لمنصب السفير والوزير ورئيس الديوان الملكى . وقد احتفل فيما بعد بأولى بعثات الجامعة الأهلية إلى فرنسا فى ٩ من سبتمبر سنة ١٩٠٨ عام وفاة مصطفى كامل ، وقد ضمت هذه البعثة من الأسماء التى عرفت بعد ذلك فى تاريخ الجامعة والصحافة والأدب : محمود عزمى ، ومنصور فهمى ، والمحامى محمد كامل حسين أحد قادة الحركة العمالية فى مصر ، وواحد من أكثر زعماء شباب ثورة ١٩١٩ صلابة وعنفاً واستهدافاً للخطر .

ولم تكن مصادفة أنه بعد أقل من سنة من افتتاح نادى المدارس العليا ، أن يقع أول إضراب يقوم به طلاب مدرسة ما ، وأن تكون هذه المدرسة العليا ، هى مدرسة الحقوق التى استمرت طويلا قائدة المدارس الأخرى ، فى مجال الاحتجاج ضد جميع الأعمال المنافية لحقوق الشعب والمعتدية على الحريات العامة . وقد كان سبب الإضراب المباشر هو أن وزارة المعارف التى كانت مشرفة على مدرسة الحقوق ، فرضت على المدرسة نظامـًا وقيوداً هبطت بها إلى المدرسة الثانوية لا الكلية ،فاحتج الطلاب على هذا النظام، ثم مالبثوا حتى دعوا إلى عقد اجتماع فى ٢٦ من فبراير سنة ١٩٠٦ – بحديقة الأزبكية التى كانت مدة طويلة بمثابة (هايدبارك) القاهرة ، يجتمع فيها الساخطون والمحتجون ، وتخرج منها المظاهرات ، وتنظم الاجتماعات ، وتعد الطلبات التى تقدم إلى السلطات وبعد أن ألقى الطلاب الخطب ، وعبروا عن ضيقهم وسخطهم قرروا الإضراب ، وكان ذلك أول إضراب فى ظل الاحتلال البريطانى ، وقد كان تنظيمه أمراً جديداً يدخل الحياة العامة ، وأثبت أن تلك الحياة تغيرت تحت قيادة مصطفى وبفضل نفخه من روحه فيها ، فأعلنت الوزارة تعطيل الدراسة من ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٦ حتى السبت ٣ من مارس ، وأنذرت الطلبة بأن من يتأخر عن العودة إلى الدراسة فى ذلك اليوم سيفصل . وقد اتجه طلاب المدرسة إلى (اللواء) وصاحبه ، فنشروا فيه طلباتهم ، وأذاعوا تفصيل شكواهم ، وكان يلقاهم ويحسن استقبالهم ، ويقف فى صفهم وينتقد عسف إجراءات التهديد وأسلوب الوعيد الذى سلكته الوزارة مع طلاب مهنة يعرفون الحق والواجب ويميزون بين الخطأ والصواب ، وكتب مصطفى كامل عن هذا الإضراب فقال :

« قضت البلاد أسبوعـًا كاملا وهى شديدة الاهتمام بمسألة الطلبة ، وقد دل هذا الاهتمام العظيم على أن أمر التعليم أصبح عند الأمة المصرية

فى مقدمة أمورها الحيوية وأن لناشئتها المحل الأول من عنايتها ، وأن رجال الغد هم موضع الآمال كلها : لقد أظهر إضراب الطلبة أموراً جمة وأنتج نتائج عدة . أظهر خلل نظارة المعارف وفساد سياستها وسوء إدارتها وعدم كفاءة المديرين لها ، أظهر أن الطلبة وكلهم ولدوا فى عهد الاحتلال وتربوا بمقتضى النظامات التى وضعها ، ليسوا كماشاء أعداء مصر والمصريين جبناء أذلاء ، بل إنهم ذوو إباء ، وشمم وعواطف راقية ، وإرادة حقيقية ، وأظهر أن رجال الغد متضامنون متكاتفون عارفون لمعنى الاتحاد والاتفاق ، غيورون على حقوقهم ، محبون للعدالة ، متشربون بروح الاستقلال .

ولا شك أن هؤلاء الطلبة الذين نظموا هذا الإضراب ، ونفذوه ، هم الذين واظبوا على قراءة اللواء والتأثر به ، وزعماؤهم هم الذين دعوا مصطفى كامل ليخطبهم فى يناير سنة ١٨٩٨ فسمعوا منه :

« لا شك أنه لا يمكنكم القيام بإنارة الأمة وإرشادها حق الإرشاد إلا إذا كنتم فى الحياة الحرة مجاهدين بأنفسكم فى سبيل الحياة لا عمالا فى إدارة أو ديوان ، تتقاضون آخر الشهر مرتباً معلوماً يقتل فيكم عواطف الاستقلال ، ويحبس فى نفوسكم الحرية الشخصية والميل إلى عظائم الأعمال » ولا غرابة فى أن الصحفى المصرى (بول مانس) الذى كان يصدر صحيفة (لوريا) بالفرنسية فى مصر ، قد اتهم مصطفى — بعد هذه الخطة على ما مر بنا من قبل — بأنه قد اتفق سراً مع الطلاب على تدبير ثورة ، وطالب باتخاذ الإجراءات الحاسمة لإحباط هذه المؤامرة .

ولم يسكت مصطفى على هذا التحريض الأحمق ، ولا على هذه التهمة الساقطة فأرسل فى ٣ من فبراير إلى الجريدة نفسها كلمة يقول فيها :

أيعد الدفاع عن الأوطان فى نظركم لؤماً ، ولا تعدون السكوت

عنه جبناً وخيانة ، وإذا كنتم أنتم ، أبناء الأمة الفرنسية ، قد قمتم فى وجه حكومتكم الأهلية الرءوفة بكم عدة مرات ، وهى منكم لأنكم شعرتم بمظالمها ، فكيف تجدون من اللؤم قيام أمة فى وجه المظالم التى حلت بها من سلطة أجنبية طامعة فيها ؟ » .

ولا شك أن طلاب الحقوق قد سمعوا هذه الخطبة ، وعرفوا أن زعيمهم الشاب يدعوهم إلى الحياة الحرة ويحببهم فى إعلان الرأى ، والحرص على الاستقلال الشخصى والقومى ونبذ الوظيفة الحكومية ، لأنها تقيد صاحبها ، وعلمهم الاعتماد على المرتب المضمون ، وقد قرأوا بعد ذلك الرد على (بول مانس) ، قرأوا فى الرد كلمة (الثورة) تقال ببساطة وتكرر ، و يدافع عن القيام بها فى وجه حكومة ظالمة ، وهذا القول يتسرب إلى وعى الشباب ، وإلى وجدانهم فى وقت واحد ويجرئهم على تحطيم الأغلال ، ورفض الإذعان للظلم سواء كان كبيراً يحيق بالأمة ، أو صغيراً يتناول نظام المدرسة .

وقد كان نادى المدارس العليا — الذى لانجد له نظيراً حتى اليوم لطلاب الجامعات فى كل من القاهرة والإسكندرية — الوعاء فعلا لعدد من المشروعات الاجتماعية القوية الكبرى .

ففيه نبتت فكرة إنشاء مدارس الشعب التى يعلم فيها الأساتذة الكبار أمثال عمر لطفى وكيل مدرسة الحقوق ، وأحمد لطفى نقيب المحامين فيما بعد والشيخ عبد العزيز جاويش ، ومحمد فريد وغيرهم وغيرهم لمئات من العمال دروساً فى القراءة والكتابة والحساب والتاريخ والتربية الوطنية والشئون الاجتماعية والمبادئ النقابية وأصول الحركة التعاونية .

وقد كان هذا المشروع سياسيًّا فى الدرجة الأولى ، لأنه لا يحارب أمية العمال ، بقدر ما ينشئ الصلة بين طائفتين ثوريتين بطبيعتيهما فى كل وطن وزمن : الطلبة والعمال ، وهذا العمل وحده ، يسقط التهمة الجائرة التى تقول إن مصطفى كامل جعل اعتماده كلية على طلاب المدارس

العليا والثانوية وطلاب الأزهر ، وعلى أهل المدن دون العمال وأهل الريف ، ذلك لأن البدء بالطالب القارئ والمتابع لما ينشر فى الصحف وغير المثقل بأعباء البحث عن الرزق ، هو أمر طبيعى وحادث فى كل البلاد ، ولا يمكن القفز من فوق رأس الواقع . ولكن هذا التأثر المباشر والسريع بحركة مصطفى كامل من طائفة الطلاب لا يعنى أن مصطفى كامل اتخذه مسوغاً لإسقاط العمال وبصفة خاصة عمال الصناعة من حسابه ، وسنرى حالا ، كيف كان يفكر فى الصناعة وعمال الصناعة وهو بعد طالب فى مدرسة الحقوق، ولكنه لا يستطيع أن يخطب ودهما ، فالصناعة لم يكن لها وجود فى مصر ، فكان لابد أن يدعو إليها ، وحينما توجد يوجد الصناع ، وعندها ، يشغل بهم ، ويتحدث إليهم وينظمهم .

ولكن الثابت على لسان أكثر من صحفى أجنبي أن لواء مصطفى كامل كان يقرأ فى الريف فى الدوار وعلى المصطبة ، وكان اسمه معروفاً ، وذائعاً بين الفلاحين ، وقد جاءت حادثة دنشواى ودفاعه عن الفلاحين المتهمين فيها والمحكوم عليهم ، والإفراج عنهم سبباً ناشئاً فى توثيق الصلة بين مصطفى والفلاحين تماماً .

وقد قالت إحدى الصحف الفرنسية فى سنه ١٩٠٩ ما ترجمته جريدة اللواء ، وقد قالت هذه الصحيفة : إن الذى يزور الآن قرى مصر يرى فيها أمرا مستحدثاً ما كان يخطر على بال أحد ، ويرى حلقات من الفلاحين ملتفين حول رجل يتصدر مصطبة فينصتون إليه ، وهذا الرجل فى العادة من القصاصين الذى يتلون القصص القديمة ، ولكنه يقرأ الآن اللواء ويفهم الفلاحون مايتلوه عليهم ، وبذلك يبذر فى قلوب أولئك الذين لم يألفوا منذ أجيال غير الخضوع ، بذرات جديدة قد تنمو وتثمر فى مستقبل الأيام » .

أما المشروع الثانى الذى خرج من نادى المدارس العليا فقد كان مشروع مراكز رعاية الطفل ، الذى كان من أول مشروعات الحركة

الوطنية فى عهد مصطفى كامل فى المجال الاجتماعى تبعه مشروع ملاجئ الأطفال اليتامى ، ثم مشروع التعاون ثم مشروع الهلال الأحمر : المشروع يأخذ برقاب المشروع ، حلقات متصلة كان الفضل فى إخراجها للناس ، وفى بسط نور إشعاعها على الأمة ، وإيقاظ وجدانها لنادى المدارس العليا .

الدعوة إلى الصناعة واحترام شأن العامل :

كتب مصطفى كامل فى مجلة المدرسة المعدة لزملائه طلاب المدارس وتلاميذها فى العدد السابع ، مقالا تحت عنوان « الصناعة والصناع »[1] .

الصناعة لها فى الوجود فضل ظاهر ، ومجد واضح لا ينكره إلا كل جاهل ، فضروريات الحياة هى المأكل والمشرب والملبس والمسكن قد صاغت أكثرها يد الصناعة، فلها إذن على كل موجود فضل بيّن يحمله على إعلاء شأنها واحترامها واحترام كل من قام بها، فكل من خالف ذلك يكون قد نسى واجباً لغده سامى القدر خطير المقام، وحقيقة فإن الصناع الذين هم رافعو لواء الصناعة جديرون بالاحترام ، حقيقيون بالتبجيل والاعتبار ، وقد علم ذلك أهل البلاد المتقدمة علماً حقاً ، فاحترموا الصناع ، وأعلوا من شأنهم ، حتى أصبحوا فى مقدمة المبجلين ، وطليعة المحترمين ، وأما سكان البلاد المتأخرة ، فقد طرحوا احترام الصانع خلف ظهورهم ، ولم يكفهم ذلك بل إنهم أهانوه واحتقروه ، وعدوه أقل الناس شرفاً وأقلهم مجداً وقدراً ، والسبب فى ذلك ظاهر كما قدمنا وهو أن احترام العناصر الشريفة ملازم للتقدم والتمدين .

---

(١) مصطفى كامل فى أربعة وثلاثين ربيعاً الجزء الثانى ص ٢٨٨ على فهمى كامل .

وفى عدد اللواء الصادر فى ٢٥ من أكتوبر سنة ١٩٠٠ قال فى إحياء الصناعة

فإيجاد روح الصناعة فى البلاد هو بلا مراء أسمى خدمة نقدم إليها وأكبر سعادة نجهز لرجال الغد ، وقد أدرك الكثير من فضلاء مصر ، هذه الحقيقة وهذا الواجب فتبادلوا الحديث فى أمر تأسيس مدرسة صناعية ، ولكنهم لم يتعدوا ذلك إلى العمل ، وأشد المصريين اهتماماً بهذا المشروع الجليل هم أعضاء جمعية العروة الوثقى ، الذين برهنوا بأعمالهم المشهورة على أنهم رجال عمل ، يعرفون لمصر حقوقها عليهم ولا يقصرون فى تأدية هذه الحقوق ، فوضع لهم صاحب الهمة الحديدية (حسبوبك محمد) مشروع تأسيس مدرسة صناعية لا يكلفهم من المال كثيراً ، ولكن يعود على البلاد وأبنائها بالخير الجزيل » .

وهذه السطور سواء ما كان منها من قلم مصطفى الشاب المبتدئ وهو يحرر مجلة المدرسة ، أو ما صدر عنه بعد أن خاض معا مع الحياة السياسية ، ومرن قلمه على الكتابة ، وامتلأت جعبته بالأفكار والمعلومات مما قرأ وسمع وشاهد ، تدل كلها على نضج كامل ، وفهم عميق لدور الصناعة من جهة ، ولدور العمال من جهة أخرى ، فهو يقيس تقدم الأمة بمقدار تقدم الصناعة فيها وبمقدار ارتفاع مقام العمال بين مواطنيها ، ويرى أن الأمم القوية الناجحة هى الأمم التى يلعب العمال فيها دوراً بارزاً والتى لا يستطيع المجتمع فيها أن يغض من مقامهم أو أن يتجاهلهم ، وقد تحتاج إلى جهد كبير لكى تعثر على رأى مماثل لسياسى مصرى آخر لا فى هذه الحقبة ، ولا فى الحقبة التى بعدها ، ولا نزال فى حاجة إلى مثل صيحة مصطفى كامل ، وأضعافها ، لنتنبه إلى التعليم الصناعى ونمنحه ما يستحق من العناية ، فلا يزال عدد المدارس الصناعية فى بلادنا دون النسبة المطلوبة بأكثر من الكثير ، فنحن أينما وجهنا وجوهنا وجدنا مدرسة ثانوية عادية ، وفى النادر نجد مدرسة صناعية ثانوية ، فى حين أن هذه

المدارس ليست فقط عصب النهضة الصناعية وإنما هى أيضًا الحل لأزمة خريجى المدارس الذين لا يتقنون صناعة ، ولا يعرفون إلا كيف يقرأون ويكتبون .

الإرشاد القومى

تنبه مصطفى كامل ، فى وقت مبكر إلى أن التعليم بدون تربية ، قليل الأثر ، لأنه لايعدو أن يكون التلقين أو حشو الذهن بالمعلومات ، دون صقل الذوق ، أو دعم الشخصية ، أوبث روح الابتكار والبحث والاعتماد على النفس فى التلميذ ليكون عالمًا لاموظفًا ، وإنسانًا لا أداة وشخصية ذات اعتبار ، لا رقمًا فى عملية جمع .

قال مصطفى كامل فى مارس سنة ١٨٩٩ وهو يعلن فى رسالة منه إلى جريدة المؤيد قبوله تولى إدارة مدرسة مصطفى كامل التى كان قد أنشأها مواطنان من أتباعه ، هما : محمد سعيد التومى ، وأحمد أفندى صادق ، فقد قال :

« إنى أعلم أن حمل المدرسة ثقيل وأتعابها كثيرة ونفقاتها طائلة ، ولكنى قبلتها بكل ارتياح فى خدمة أبناء الوطن العزيز وترقية مدارك الناشئين ، وإنى أتشرف اليوم بإعلان الجمهور أن التعليم فى هذه المدرسة مقرون بالتربية ، لأنى أعتقد أن التعليم بلا تربية عديم الفائدة » .

ولكن مصطفى كامل ، فطن إلى مرفق آخر ، فى مثل أهمية وحيوية التربية إلى جانب التعليم ، ذلك هو مرفق الإرشاد القومى ، وهو مرفق عرفت الأمم الكبرى اهتمامها إليه ، وعنايتها به ، وأنفقت المال والجهد ، ينتج أثره ، ويؤدى دوره ، وليس ضروريًّا أن يحمل هذا الاسم بعينه ، وإنما المهم أنه يؤدى الوظيفة المقصودة منه ، ويؤدى الغرض المعقود عليه .

وإذا كانت الدولة تعلم أبناءها ، لأنهم فى حاجة إلى علم ، وتربيهم

لأنهم فى حاجة إلى تربية ، فما الذى يجعلها تتحرج من أن تتولى إرشادهم ، كان التعليم والتربية مرتبة أدنى فى التوجيه من (الإرشاد) مع أن التعليم والتربية يتضمنان من نشر الأفكار وفرضها على أبناء الأمة ، أكثر من (الإرشاد) الذى هو مجرد وضع الحقائق تحت نظر الشخص أو الأشخاص وله ولهم أن يأخذوا منها ما يشاءون ويدعوا منها ما يريدون .

والإرشاد ، هو شئ غير (الدعاية) التى تقوم بها الدولة دفاعًا عن نفسها ، أو ترويجًا لأفكارها ، أو إشادة بأعمالها فى الداخل ، أو نشراً لمذاهبها أو تعزيزاً لمبادئها ، أو هجومًا على خصومها والتنديد بهم فى الخارج ، وهو غير (الإعلام) الذى تتحدد وظائفه بإعطاء البيانات السياسية ، وما يشبهها للصحفيين ورجال الإذاعة المسموعة والمرئية ، فالإرشاد القومى هو ما تقوم به الدولة فى مختلف المجالات من وظائف الإرشاد ، فالحكومة فى كل دولة تقوم بإرشاد صحى ، وإرشاد زراعى ، وإرشاد اجتماعى وإرشاد سياحى وإرشاد ثقافى وإرشاد جوى للطيران والطائرات ، وإرشاد بحرى فى مداخل الموانى والممرات والمضايق ، وإرشاد عن حالة الجو للزراع والصيادين ، هذا الإرشاد المتفرق المتنوع حينما تجمع عناصره وتتولاه هيئة حكومية يكون عونًا للتعليم ومساعداً للتربية ، لأن هدفه التربية الذوقية لجماهير الشعب ، وإثارة أحسن نزعاته وتقوية روحه المعنوية وتوثيق الروابط القومية ، والحق أن مصطفى كامل وضع بذرة هذا الإرشاد القومى ، بخطبه ومقالاته ورسائله وصحفه ومجلاته ، ولقد نسج أنصاره وأعوانه على منواله ، فأحيوا الأعياد القومية المهجورة ، وأقاموا الاحتفالات فى المناسبات العامة ، فراجت سوق الشعر والشعراء ، وارتفع مقام الأدب والأدباء ، واهتم الناس بجمال القاهرة ونظافتها وأقبل الكثيرون على سماع الموسيقى الشرقية والغربية فى حديقة الأزبكية وفى الصالات ، وأصبح التمثيل وفرقه شغلا للأمة ، واحتل أبطاله مكانًا مرموقًا بين أبطال الشعب ، وبعثت أفكار ومشروعات قومية كثيرة كتب لبعضها النجاح

فى أيام مصطفى وخليفته فريد ، كالجامعة ونادى المدارس العليا ومدارس الشعب والحركة التعاونية ، وملاجئ الأطفال وعيد رأس السنة الهجرية وجمعيات الهلال الأحمر ، وكتب لبعضها البدايات الفكرية الموفقة كفكرة مصرف قومى ، إذ بدئ بشركة التعاون المالى وبجمعيات التعاون المنزلية ، وهكذا أدى الإرشاد القومى دوره ، وكان المأمول أن يزداد مع الأيام رسوخًا ، وأن يزداد فهم دوره والإيمان به ، وأغلب الظن أنه سيستعيد ما فقده ، من فهم المجتمع لوظيفته ، ومن حاجتهم إليه .

الفصل التاسع

أباطيل وأضاليل

لما وقع الاحتلال البريطانى ، أذهلت الصدمة الناس ، ولما ثابوا قليلا قليلا إلى صوابهم ، نشط الاحتلال البريطانى والذين انتفعوا منه من طبقات نشأت فى ظله ، وأثرت بفضله ، ووصلت إلى الحكم على كتفه فى عقد المقارنة بين ما كان فى عهد الخديو إسماعيل من فوضى مالية ، وقلق عام ، ومظالم أثقلت كاهل الفلاح ، وعبثت بمقام الحكومة وأزرت بسلطانها وبين ما انتهى إليه الأمر فى عهد الاحتلال البريطانى ، من هدوء انتهت به الاضطرابات واستقرار فى الحكم والحكومة ، انتهت به القلاقل ، واقتصاد وتدبير للمال انتهى بفضله تزايد الديون ، ثم إقامة مشروعات للرى ، تحسن بما تم منها توزيع المياه على الفلاحين والمزارعين بعد شكاوى من الميل لصاحب المال ، وحيف ينال الفقراء . وقد فعلت الدعاية البريطانية المحكمة ، والمستمرة التى عززتها قدرة الحاكم الأجنبى الجديد ، بفضل وسائل الحضارة الحديثة ، وإتقانه لإدارة المستعمرات لطول تمرسه بها فى أفريقيا وآسيا ، واتساع ملكه ، وجاه جيوشه ، وعظمة أساطيله ، وإذعان المجتمع الدولى له ، وقد كان للاستعمار البريطانى ميزة على ما يشبهه من أساليب الاستعمار الأخرى، ذلك أنه كان يحرص على إقامة واجهة وطنية يختفى وراءها ، ويحرك من الخلف خيوطها ، فلا يتحمل من المسئولية إلا أقل القليل ، وهو فى الواقع صاحب السلطة فى الصغيرة والكبيرة ، كما كان يحرص على ألا ينافس البريطانيون صغار الصناع والتجار فى نشاطهم وفى سعيهم إلى أرزاقهم ،

فالمتاجر البريطانية تقتصر على الدور الكبيرة فقط والشركات الضخمة والمصارف ، أما المتاجر التى تبيع سلع الحياة اليومية ، أو الأدوات الرخيصة ، فلا يهتم بها البريطانى ولا يضيع وقته فيها بعكس المستعمر الفرنسى والإيطالى ، وبصفة خاصة الإيطالى ، فهو لا يدع تجارة إلا ويشارك فيها إبتداء من محال مسح الأحذية وقص الشعر إلى البقالة والمخابز .

والميزة الظاهرة الثانية للاستعمار البريطانى ، أنه يصطنع الحلم ويطيل الصبر على حملات النقد ضده ، وضد كبار موظفيه ، والوزراء وأمير الدولة ، فهو لا يضيق بالمقالات الحادة فى الصحف ، ولا بمظاهر الاحتجاج ، طالما كان يحس بأن الحركة الوطنية أضعف من أن تنتزع له من الأرض جذراً ، أو تسيل له دماً ، أو تعطل له مصلحة ، بل إنه يسره أن توجد حيث يحكم ، حملات نقد ، وصحف تحتج وتشكو ، لأن ذلك ينفس عن الأبخرة المحبوسة فى الصدور ، ويسمح له بأن ينسب إلى نفسه بذر بذور الديموقراطية وحماية الرأى وتعويد الناس على المشاركة فى شئون الحكم .

وبهذه الخطة البارعة ، استطاع الاحتلال البريطانى ، أن يستميل قدراً من الرأى العام ، وقد كان الظن عند من تعاونوا معه من الباشوات الجدد ، وأصحاب المزارع التى منحهم إياها الاحتلال البريطانى ، عندما وزع أرض الدائرة السنية ، وما كان لدى الحكومة من أطيان ، وبفضل إسناد الوظائف إلى أبناء هذه الطبقة الذين تعلموا فى مدارس مصر ، والذين سافروا إلى أوربا وعادوا مفتونين بالحضارة الغربية وبالأساليب البريطانية فى العيش والحكم والتعليم والسياسة ، وزاد من حبهم لهذه الأساليب واطمئنانهم إليها أن بعضهم أصهر إلى البريطانيين فتزوج من بناتهم أو اتخذ من عائلاتهم رجالا ونساء الأصدقاء والصديقات . . واتسعت هذه الدائراة شيئاً فشيئاً حتى كاد يكون الاطمئنان إلى

الاحتلال ، ورجاء تقدم مصر فى ظله ، على وجه من التدرج والتطور هو الروح الغالبة : رضى الفلاح المضطهد لأن السخرة انتهت ولو رسمياً والضرب بالسوط ، قد انعدم أو كاد ، وعرف بالضبط الضرائب العقارية المفروضة عليه المسماة (الأموال) ، وانتظمت مناوبات الرى صيفاً وشتاء واستقرت أوضاع الحكومة فأصبح فى كل مركز مهندس رى وهندسة رى ، وقاض جزئى يحكم ، ووكيل نيابة يحقق ويترافع ، وقاض شرعى يفصل فى منازعات الأسرة ، كما يوجد ضابط للشرطة اسمه مأمور ، يعاونه معاونون وملاحظون ، فظهرت معالم الدولة . وأصبح فى عاصمة كل محافظة مدرسة ابتدائية ، يرسل إليها الفلاحون الذين يملكون فوق عشرة أفدنة أولادهم فلا يلبثون حتى يصبحوا كتبة فى دواوين الحكومة ، فيتصل الفلاح عن طريقهم بالحكم والسلطان ، وقد كان ذلك حراماً فى عهد الخديويين قبل إسماعيل ، إذ لا يحكم إلا من جرت فى عروقه دماء الأتراك أو الشراكسة أو من كان من اتباعهم واللائذين بجاههم ، وفى بعض الأحيان استطاع ابن الفلاح فى عهد الإنجليز أن يصبح مهندساً ، وقاضياً وضابطاً ، فازدادت ثقة الفلاح بنفسه ، ونشأت طبقة تلى طبقة كبار الأغنياء تتطلع إلى مثل ما فى أيدى هؤلاء من مال كثير ، وجاه عريض وسلطة يستحلب لها اللسان .

وفى وسط هذا الرضاء الشامل ، وعلى غير توقع أو انتظار ، دوى انفجار أزعج الجميع .. أزعج الباشوات الذين كونوا ثرواتهم بفضل الغاصب المحتل ، وأزعج كبار الموظفين الذين أصبحوا حكاماً ولو فى الظاهر ، وأزعج الذين يلونهم ممن كانوا ينتظرون دورهم فى الترقى والتقدم ، وأزعج كل الذين ينتفعون من هذه الطبقات وتراثها ونفوذها وجاهها ، ولم يكن هذا الانفجار إلا صوت شاب صغير لم يكمل يتم العشرين من عمره ، يقول كلاماً يخالف فى الكل والتفاصيل ما كان سائداً ورائجاً ومسلماً به .

فالاحتلال البريطانى — عند صاحب هذا الصوت — عار وكارثة ومصاب قومى ، والذين يعملون معه ، يخونون وطنهم وشرفهم ويبيحون للأعداء عرضهم .

والاحتلال البريطانى يضحك على المصريين ويسخر منهم ، إذ يقول لهم إنه خدمهم فى حين أنه أساء إليهم فى الواقع : فالتعليم فى عهد محمدعلى وإسماعيل كان كله بالمجان ، فأصبح فى عهدهم بالمصروفات وغلا العلم ، وعز على الفقراء والمتوسطين وقلت المدارس ، وضؤلت مرتبات المدرسين المصريين وعظمت مرتبات الموظفين الإنجليز والأجانب وقل عدد المعاهد التى تخرج المدرسين .

والإصلاحات المزعومة فى الإدارة والحكم ، هى فى الواقع تجريد للحاكم المصرى من سلطانه ، وفرض الموظفين الأجانب ونهب خزانة الدولة لحسابهم ، والإبطاء فى مشروعات الإصلاح التى قام بها فعلا عهد الخديو إسماعيل من سكك حديدية ، وخطوط تليفونات وتلغرافات ، وتشييد مبان وجسور وإقامة منارات ، وشق ترع وإقامة خزانات ، وذكرت الأرقام فإذا هى مذهلة حقًّا ، وإذا عهد إسماعيل مع كل ما فيه من عيب وظلم ، هو عهد إصلاح وتحضير ومدنية ، وإن الإنجليز بعد أن انتهت القلاقل ، وانعدمت الاضطرابات وساد حكمهم وأذعن الناس لهم ، لم يفعلوا عشر معشار ما أصلحه وأقامه عهد الظلم والاضطراب والقلاقل .

ثم هذه القلاقل والاضطرابات ، والديون هى كلها إن أردت الحقيقة بفعل الأجانب وتدبيرهم ودسهم ، وعلى رأس هؤلاء جميعًا وفى مقدمتهم الإنجليز .

ثم إن ما يقال من حرية الرأى التى يكفلها الإنجليز هى قناع خادع ، فإن هؤلاء الإنجليز قد أقاموا محكمة أسموها المحكمة المخصوصة تفوق ديوان التفتيش ظلمًا ، لأنها تمتلك أن تحكم بما تشاء بلا تحقيق ولا دفاع . .

وهذا هو سيف الإرهاب الذى لم يلبث الإنجليز أن أنفذوه فى صدر مصر فعلا فى حادثة دنشواى فشنقوا فى ساعة من الزمان وجلدوا عشرين فلاحًا بريئًا ضعيفًا . . .

اهتزت الصورة بعنف ، وارتبك الاحتلال والاحتلاليون وتزايلت أعضاؤهم من أماكنها ، وإن أظهروا عدم الاكتراث ، وواصل الصوت الجديد ، دعاءه الطويل العذب ، وانتقل من الحملة على الإنجليز إلى التغنى بمصر وجمالها وماضيها وتاريخها وأياديها ، ليحيى ثقة المصريين بأنفسهم ، فتحرك الأمل فى القلوب ، وانحسر اليأس عن النفوس وضاقت الحلقة على الباشوات والعقلاء والمعتدلين ، الذين كانوا يمضون الوقت فى الأندية والقصور ، يتكلمون فيما يشبه الفلسفة والمنطق متظاهرين بالحكمة والعلم ، فأصبح لابد من أن يغيروا موقفهم من عدم الاكتراث إلى الاهتمام ، ومن الدفاع إلى الهجوم .

ولما بدأوا هجومهم كان ضاريًا . .

فهذا الشاب الذى فعل فيهم كل هذا ، والذى أطار أحلامهم ، وكشف حقيقتهم ، والذى أظهر زيف دعاوى الاحتلال وأكاذيبه ونفاق أعوانه وأصدقائه . . . لابد أن يقضى عليه وبكل سلاح فتاك وبكل وسيلة ممكنة .

فمصطفى كامل هو غر مدع مأجور ... بل إنه خداع ونصاب ، ثم هو صنيعة لتركيا والباب العالى ، وعميل للخديو عباس وصوت لفرنسا وألمانيا فى وقت واحد .

ومع الأيام سقطت هذه الاتهامات وداسها التاريخ بقدمه لأن الشعب المصرى أحاط مصطفى كامل بحبه وتقديره ، وإعجابه ، فلما مات تدفقت جماهيره وراء جثمانه ، كأمواج بحر هادر ، ولكن استيفاء للكلام ، وإرضاء للتاريخ سنقول كلمة عن كل تهمة ، أو قل عن كل فرية .

أولا ــ مصطفى كامل والخديو عباس

الذين رموا مصطفى كامل بأنه كان عميل الخديو وأجيره ، وأنه كان يعمل بوحي منه ، لا عن وطنيته الخالصة ولا عن إيمانه ببلده . الذين رموا مصطفى كامل بهذه الفرية المفضوحة ، كانوا يعلمون قبل غيرهم ، أنهم متجنون على الحق والتاريخ والفضيلة ، ويقولون زوراً من القول وبهتاناً مبيناً ، ونقول فرية مفضوحة لأن الدليل على كذبها وزيفها ذائع وشائع ، يصابح الناس ويماسيهم . ذلك هو السيل المتدفق من القول والكتابة ، والحركة المتصلة والانتقال ، والعمل المستمر فى الصحيفة والمدرسة ، وما يقوله مصطفى ، يقطر صدقاً ويمس شغاف القلوب ، ويجمع الأصدقاء والأنصار ، ويؤلب على الاحتلال الخصوم والأعداء . والقول الزائف المدفوع ثمنه لا يستمر أولا ولا يؤثر فى قلب ولا يفعل فى نفس ثانيا » .

وكانت حياة مصطفى كامل برهاناً على تجرده وتنسكه ، وكان راهباً متعبداً ، لا يمكن أن يعمل لغير عقيدته ، ولقد أطلق خصوم مصطفى فيه ألسنتهم ، وقلبوا كل حجر ليبحثوا تحته عن دليل ضده ، فلم يجدوا شائبة فى حياته فلا هو صاحب نساء ، ولا لاعب قمار ، ولا مالك عقار ، ولا شارب خمر ، ولا متردد على ملهى ، بل هو حليف مرض ، ضعيف البنية ، واهن الجسد ، ومثله كان أولى به ، أن يبحث عن الراحة فى وظيفة كبيرة كما فعل غيره ، ممن ترك العمل الحر وأعلن أنه (يريد الراحة) وقد عرضت على مصطفى الوظائف ، من وزارة وغيرها ، فرفضها فى إباء ، ولم يذع العرض ولا الرفض ، لأن كان يرفض لوجه الله لا لوجه الشهرة وطلب مديح المادحين .

والقرينة الفعلية الثالثة على براءته من هذه التهمة هو أن مصطفى كامل بدأ حياته السياسية وكتب وخطب ، قبل أن يعرف الخديو

عباس وتتصل به أسبابه، ثم قطع صلته بالخديو عباس بخطاب مشهور ومعروف ومعلن، وهو تصرف لايصدر عن أجير، ثم استمر بعد هذه القطيعة فى العمل الوطنى ، بل إن عزمه اشتد وجهاده اتسع ، وصلابته زادت على الأيام ظهوراً .

أما الأدلة التاريخية من وثائق فقد توافرت والحمد الله وكثرت .

من ذلك الخطاب الذى أرسله مصطفى كامل إلى صديقه محمد فؤاد سليم فى ١٦ من أكتوبر سنة ١٨٩٥ [1] ونحن ننقل منه :

« إننى فى ضيق لأن الخديو لم يرسل من المال ما يكفينى للسفر إلى مصر ، إذ أن مقدار ما بعثه لى يكفى فقط لأسدد به نفقات الفندق، وإننى صممت على عدم رجوعى إلى مصر لأن وجودى فى فرنسا مهم جداً للقضية التى كرست لها نفسى جسداً وروحاً ، وهى قضية الدفاع عن مصر ، وقد قررت ألا أعود إلى مصر إلا إذا يئست من معاونة الوطنيين ، وإنى حالياً يائس من واحد ، وهو الخديو ، ولكن أليس فى استطاعة والدك والهلباوى ومحمود سالم ، أن يرسلوا لى سنوياً (٤٠٠) جنيه ماداموا يعتبرون أنفسهم وطنيين ويقدرون جهودى الوطنية؛ وإذا كانوا غير قادرين على مساندتى فإنى سأعود إلى مصر يائساً فاقد الأمل ليس فى الجلاء فحسب بل فى مستقبل الأمة المصرية . تأكد يا صديقى أنى لن أبقى فى مصر بعد عودتى إلا ريثما أوارى القبر ، سوف أنتحر لكيلا أعيش وسط أمة جاحدة فضلا عن أنى لا أعرف اليأس حتى ألفظ آخر أنفاسى .

بلغ والدك أنى باسم الوطن المقدس وليس باسم الصداقة ، ألتمس منه وحده أن يرسل لى مبلغ ١٥٠ جنيهاً هذا الشهر لهذه السنة كلها، ولن أطلب منه شيئاً بعد ذلك ، وفى السنة المقبلة سوف أدبر أمرى . فوالدك يدفع ١٥٠ جنيهاً والهلباوى ١٥٠ جنيهاً ومحمود سالم ١٠٠ جنيه (٤٠٠ جنيه)

---

(١) رسائل تاريخية — نشرها وعلق عليها الأستاذ عبد العزيز حافظ دليها ص ٥٨ .

من هؤلاء الوطنيين الثلاثة ستكون لها قيمة عندى أكبر من نقود العباس .

صديقى العزيز . .

منتظر منك جواباً مستعجلا « إما نعم مع المبلغ ، وإما (لا)، وإذا لم ترسل إلى رداً فمعنى ذلك أن الجواب (لا) » .

هذه الوثيقة تحسم كل شك فى صلة مصطفى كامل بالخديو عباس ، فالخديو يقبض يده على المال الذى يحتاجه مصطفى كامل ليواصل جهاده، ومصطفى يكاد يختنق لهذا البخل القاتل للحركة ، ويمضى يستجدى أصدقاءه الذين يتوسم فيهم الوطنية، والرغبة فى البذل من أجل الوطن. وما الذى يطلبه منهم ؟.إنه لايطلب الآلاف ولا المئات ، وإنما يطلب من ثلاثة من أغنياء المصريين مجتمعين ٤٠٠ جنيه يكاد يكون نصيب كل منهم فيها لايزيد عن مائة جنيه فى السنة كلها ، وبهذه القروش التى يستجديها مصطفى كان يفعل العجائب ويكسب لمصر الأصدقاء . وأهمية هذا الخطاب أنه مكتوب لصديق ، وقد بقى طى الكتمان ولم يعرف أحد مضمونه إلا فى سنة ١٩٦٩ بعد أن كان مصطفى كامل وصديقه محمد فؤاد سليم والخديو ، وهم الثلاثة الذين ورد ذكرهم فى الخطاب قد واراهم التراب ، وتركوا دنيانا ، وانقطعت صلتهم بأطماع الدنيا ، وخصوماتها ، وكلام مصطفى ، عن الخديو عباس ، لايصدر عن أجير وإنما يصدر عن صاحب عقيدة يرى من زملاء الكفاح نكولا عن الواجب وخيانة للمبدأ .

على أننا نشرنا فيما سبق رسائل مصطفى كامل إلى صديقه توفيق أحمد ونحن نلاحظ على هذه الرسائل ما يلى : —

أولا : أنه لا يجتمع ذكر الخديو وذكر مصر ، إلا قدم مصطفى مصر على الخديو ، ففى رسالة ٢٧ من يونية سنة ١٨٩٥ قال : «فلو أمرنى أعزه الله أن أذبح خدمة لبلادى ولشخصه الجليل لما تأخرت»، ثم قال « وإنى

على شرف نفسى أعتبر خدمة الأوطان تحتاج لكثير من التعب وتحمل المصاعب وملاقاة المشاق ، فلا بأس بتحمل مر الكلام وغيره خدمة لمصر المحبوبة وأميرى العزيز» ، وفى رسالة ٦ من يوليو يصف نفسه بقوله : وهذا الذى يتوقد وطنية وحباً لبلده ولأميره العزيز . ثم رد ولا يسأل الله والحياة شيئاً آخر غير خدمة الوطن وأميره المحبوب ، وفى رسالة ١٨ من سبتمبر يقول : يزول من عالم الحياة رجل يكون ذنبه فى الدنيا إذ ذاك أنه مصرى يحب بلاده وأميره ويغار عليها وعلى سيدها . وفى رسالة يناير سنة ١٨٩٩ يقول :

ولم يكن تأخيرى عن الحضور مخالفة ، بل كان خدمة للوطن وصيانة لكرامة سموكم ، وقال فى الرسالة نفسها وهو يوجه الكلام للخديو شخصياً يستسمحكم الإذن فى رفع هذا الكتاب إلى جنابكم السامى ممن عرفتموه بالإخلاص للوطن لشخصكم الجليل .

ومن عادة أفراد حاشية الملوك والأمراء وبطانتهم أنهم لا يقدمون على الملك الأمير أحداً وقد كان شعار الجيش المصرى فى عهد الملك فاروق « الله . الملك . الوطن » .

ثانياً : أن مصطفى كامل واظب ابتداء من الرسالة الرابعة المؤرخة ٣٠ يوليو سنة ١٨٩٥ حتى الرسالة الرابعة عشرة على طلب ما يلزمه من مال لنفاد ما عنده ، وقد انقضت شهور أغسطس وسبتمبر وربما أكتوبر دون أن يتلقى المال الذى يطلبه مما يقطع بأنه حتى المعونة القليلة التى كان يدفعها الخديو عباس لمصطفى كامل لمواجهة نفقات المطبوعات والحفلات والرحلات ، لم تكن تصله فى يسر وسهولة ، بل كان الخديو يتلكأ كثيراً فى إرساله لبخل الخديو الذى اشتهر عنه ، مما كان جديراً بأن يصرف مصطفى كامل عن التعاون معه والارتباط به ، لو كان الطمع فى المال هدفه .

ثالثاً : واضح من هذه الخطابات أن مصطفى كامل لم يكن يتلقى

من الخديو ولا أحد ممن فى حاشيته أوامر تتعلق بالعمل الوطنى ، فالتقارير التى يكتبها مصطفى كامل ، كلها اقتراحات منه هو ، وطلباته تتصل بسير العمل وأساوبه ، فمصطفى هو واضع الخطط السياسية وهو صاحب الكلمة فى توجيه العمل السياسى ، وليس فيما يقترحه كله شيء يتصل بشخص الخديو ، مثل كتابة رسائل عن أعماله فى مصر والإشادة بأفضاله على المصريين .

رابعاً : إن مصطفى كامل حينما كان صبره ينفد وضيقه بالخديو يزداد ، يعلن أنه سيعمل مستقلا — وأنه ليس آسفا على خيبة الأمل التى أصابته فى الخديو ووطنيته وحسن وفائه للعمل السياسى ، بل ذلك سيفيده فى المستقبل . وفيما يلى نماذج من تهديداته ! .

قال فى ٢٥ يناير لصديقه توفيق أحمد وقد مرت بنا الإشارة إلى هذه الرسالة

أرجوكم أن تنتهزوا فرصة اليوم وتطلبوا من سمو مولاى أعزه الله أن يتكرم على بتحديد مقابلة خصوصية أنهى فيها عن نفسى ما نسبه ذوو والأغراض لى ، ولكى أعلم ما إذا كان سموه لا يريد نهائياً مساعدتى فى خدمة بلادى حتى يتسير لى عندئذ أن أعمل ما أريد فى مصر وخارجا عنها عاجلا أو عاجلا . وإنى أنتظر منك الرد هذا المساء أو غداً لأنى لا أريد قضاء الأيام والليالى فى الانتظار .

ويكمل هذه الرسالة ، غير الناقصة ويزيدها وضوحا — وهو واضح . رسالة أرسلت بعده بأيام فى ١١ من فبراير سنة ١٨٩٩ ، يلقى فيه مصطفى كامل بقفاز التحدى ، كما يقول الفرنسيون فى وجه الخديو عباس إذ يقول لعبد الرحيم وكيل الإدارة العربية لقصر الخديو أو (بالمعية السنية) بلغة ذلك العهد :

أخبركم بأنه عيل صبرى ولست أظن أن هناك داعياً لكل هذا التأخير ، فإن كان لمولانا أعزه الله رغبة فى تشريفى بمقابلة فلتحددوا لى هذه المقابلة هذا الأسبوع ، وإلا فإنى أحمل كل هذا التأخير على

عدم حاجتكم إلى خدماتى وعلى رغبتكم فى محض تأخيرى عن بلوغ أمانى العديدة النافعة للبلاد وأميرها إنشاء الله، واظن ولاتلومننى إذاعملت من أول الأسبوع الآتى بغير استئذانكم أوانتظار فلقد مضى فوق النصف شهر من يوم ماجئتم عندى و بلغتمونى رغبة الأمير فى تشريفى بمقابلته » .

وأظن أنه إذا قرأ أى قارئ هاتين الرسالتين ، دون أن يعرف من المرسل، ومن المرسل إليه، ولا ملابسات إرسالها، ظن أن المرسل إليه، وهو أمير البلاد (وخديويها) يعمل أجيراً عند المرسل. وهو مصطفى كامل . ففى الرسالة الأولى يحدد كاتب الرسالة موعداً أقصاه أربع وعشرون ساعة، لأنه لايريد قضاء الأيام والليالى فى الانتظار ولم تجر العادة فى مخاطبة الحكام ، أيًّا كان مقامهم أو مناصبهم ، بمثل هذه اللغة الجافة ، وبهذا الأسلوب المنطوى على التهديد ، وإظهار الاحتجاج والتعبير عن الحسرة لفوات الوقت ، ومرور الأيام بلا عمل ولا نفع . وواضح أن المسئول عن هذا الضرر كله ، هو الأمير . ولا أظن أن الإنسان سيفوته وهو سيقرأ هذه الرسالة القصيرة عبارة « وإذا كان سموه لايريد نهائيًّا مساعدتى فى خدمة بلادى » ولابد أن يضع الكاتب تحت خدمة بلادى خطوطًا . فالخديو يساعد مصطفى كامل ، كاتب الرسالة ، هذا أمر لا شك فيه ولامراء ، ولكن لا يساعده على قضاء حوائجه الخاصة ، ولا على التمتع بلذائذ الحياة ، وإنما يساعده ، على خدمة البلد . أما الرسالة الثانية ، فهو إنذار حرب لا تصاغ بمثل لغته إلا الإنذارات التى تتبادلها الدول قبل إعلان الحرب مباشرة : والكلمات الشديدة منتقاة عن عمد ، وهى قصيرة وسريعة كقذائف المدفع الرشاش «أخبركم » بكل ما فيها من جفاف هى الكلمة التى يبدأ بها الإنذار . ثم يليها مباشرة « عيل صبرى » يعنى أننى لن أستطيع إفساح صدر العذر لكم ، ولا الصبر على رغبتكم وإضاعتكم وقتى ، ثم إنه يفضح هذا التسويف والمماطلة فهو يقول « لست أظن أن هناك داعيًا لكل هذا

التأخير » فإن كان لمولانا أعزه الله . . .

والتزام الأدب لا يقصد به تخفيف لهجة الخطاب ، ولاشدة وقعه ، وإنما يقصد به الابقاء على صيغته الرسمية وأن يسقط حجة من تهمه فى المستقبل بالتهجم على مقام أمير البلاد أو مشاكسة لقطع العلاقة ؟ ويحمل مصطفى مسئولية الفضيحة التى قد تقع بعد ذلك ولكنه لايلبث حتى يستمر فى أسلوب الرسالة الإنذارى فيقول : فلتحددوا لى المقابلة هذا الأسبوع ، وإلا فإنى أحمل كل هذا التأخير على عدم حاجتكم إلى خدماتى » ثم تبلغ لهجة الخطاب إلى ذروة التهديد والإنذار ، بل والإتهام بالخيانة ، إذ يقول إن هذا التأخير مرده « رغبتكم فى محض تأخيرى عن بلوغ أمانى العديدة النافعة»

ويرتب مصطفى كامل النتيجة الحتمية على كل هذه المقدمات فيقول : وأظنكم لا تلوموننى إذا عملت من أول الأسبوع الآتى بغير استئذانكم أو انتظار تبليغاتكم . . »

وبهذا يتضح حى ، لكل أعمى ، لا يرى فى هذه الدنيا شيئاً ، ولكل أصم لا يسمع فى هذا الوجود صوتاً أن مصطفى كامل كما وصف نفسه فى إحدى رسائله إلى عبد الرحيم أحمد « إنى حر فوق مرتبة الأحرار » وإنه حين كان يتعاون مع الخديو عباس حلمى ، كان مستقلا عنه له إرادته التى لاتذوب فى إرادة الخديو ، فهو يعمل دائماً لخدمة مصر ، وهو يفكر دائماً فى استقلالها ، وهو يجاهد دائماً ضد الاحتلال الأجنبى ، أما الخديو فقد يساير حيناً ، ويتراجع حيناً آخر ، ويساوم حيناً ثالثاً ، خوفاً على عرشه أو تحقيقاً لمصلحة عاجلة ، أو تنفيذاً لمناورة مرسومة .

ولعلنا لانجد نموذجاً لما يقدمه المربى المخلص الأمين لتلميذه ، أفضل مما كتبه مصطفى كامل إلى الخديو فى ٢٦ من يناير سنة ١٨٩٦ ، وكان الخديو قد أمر مصطفى كامل بالعودة إلى مصر ، بعد أن اشتد ضغط الإنجليز عليه ، لنجاح حملة مصطفى كامل واطراد تقدمه وارتفاع اسمه وذيوع شهرته ، فقد كتب يقول له : أى للخديو نفسه :

« ما إن وصلنى نبأ الأمر الكريم بالعودة إلى الأوطان إلا شعرت بأنه مسبب عن تهديد إنجليزى فرأيت من الحكمة أن أؤخر عودتى صيانة لكرامة سموكم ، إذ أنى لو كنت عدت حين ذاك لتحقق الإنجليز من أنى مرسل إلى أوربا من قبل جنابكم ، وأحببت أن أبرهن لسموكم بتأخيرى عن الحضور أن ليس هنالك شىء ما وراء التهديدات الإنجليزية ، وأن الإنجليز لا يستطيعون ولن يستطيعوا أن يضروا سموكم أصغر ضرر ، إذ لو كان فى استطاعتهم لكانوا أتوه من عهد بعيد ، فالخائفون من سياسة التهديد المقصرون من همة سموكم العالية الناصحون بالانصياع للمطالب الإنجليزية هم فى الحقيقة أشد أعداء الوطن والأمير » .

هذا الخطاب جدير بأن يحفظه عن ظهر قلب شبابنا ، وأن يعرفوا تاريخه ، وأن يستخرجوا معانيه ، فإنه يتجاوز بسمو عبارته وفكرته حدود المناسبة التى كتب فيها ، إلى المعنى الدائم الباقى فيه . فهو أولا يعلن أنه رفض الانصياع لأمر الخديو حينما طلب إليه أن يعود إلى مصر تاركاً جهاده فى باريس وأوربا . ومعنى ذلك أن المجاهد المصرى ، حر بإرادته عن إرادة الحاكم حتى حينما يقوم بين الاثنين تعاون لخدمة الوطن ، فالمصرى المنتمى إلى الشعب ، شريف وشجاع ومستقل . هذا هو المعنى الأول .

المعنى الثانى ، أننى أردت أن ألقنك أيها الأمير درساً فى الشجاعة ، فالناس فى خوف الذل فى ذل ، وأنت خائف على عرشك ونفسك من الإنجليز ، والإنجليز لا يستطيعون أن يسيئوا إليك بسبب جهادى ، لأنهم لو استطاعوا ذلك ، لفعلوه فى الماضى ، فهم يكرهونك بسببى أو بغير سببى ولم يؤخرهم عن إلحاق الأذى بك ، تعفف ، وإنما عجزاً ، فدع الخوف واتكل على الله .

والمعنى الثالث كن شجاعاً ، كن قوياً ، كن واثقاً من بلدك ، والمثل الأعلى الذى تعمل له فإن ذلك يشرفك ، ويقويك ، فلا تلق

بالا لوسوسة الذين حولك الذين يريدون لك النكوص بعد التقدم ، والجبن بعد الشجاعة ، وهؤلاء هم أعداؤك الحقيقيون وأعداء بلدك .

ولست أدرى أين هؤلاء الذين أرادوا أن يصلوا إلى مواطئ أقدام « مصطفى كامل » ليتهموه بأنه كان يتلقى التوجيه والإلهام من الخديو عباس ، ولست أدرى ماذا يقول رشيد رضا حينما يلقى ربه ، ويسأله ، كيف كتب « الخديو عباس هو الذى أوجد مصطفى كامل واستعمله فى الحركة الوطنية وهو تلميذ فقير . . » والحق أن الذى أوجد مصطفى كامل هو الذى خلقه ، وإيمانه بوطنه ، وجلده على العمل ، وشجاعته ، أوجده الله باعث الفضائل عند خاصة خلقه الذين يؤدون رسالة السماء حينًا ، ورسالة الوطنية والفضيلة حينًا آخر ، ونحمد الله أن الخديو استعمل مصطفى كامل فى الحركة الوطنية ، لا فيما يسىء إلى أمته وشعبه ودينه . وغفر الله لرشيد رضا ولأستاذه لقاء ما أحسنوا فى مجالات أخرى (إن الله يغفر الذنوب جميعًا) .

أما ما جاء فى نهاية هذه الرسالة ، نفسها فصورة أخرى من صور الشجاعة التى امتاز بها مصطفى كامل الخالد العظيم فقد قال للأمير :

«أما ما كتبته لسعادة محافظ الإسكندر يةضد بعض رجال (الحاشية الذين أعتقد أنهم أشد بلاء على مصر من الإنجليز أنفسهم فما ذلك إلا لشدة تغيظى من هؤلاء الأشخاص الذين كانوا العاملين على حرمانى من خدمة بلادى » .

فكون الرجل السىء ، من بطانة الأمير ، وحاشيته ، مشمولا بعطفه ورعايته ، لا يسوغ عند مصطفى الأبى الطاهر ، أن يعفيه من لسع قلمه وضربات سوطه ، ولقد عاشت مصر سنوات وسنوات ، وأكثر كبار رجالها تتقطع أيديهم دون أن يخطوا حرفًا واحداً لحاكم أو صاحب أمر فى البلاد ، من مثل ما كتبه مصطفى كامل عن أفراد فى حاشية الخديو .

على أن مصطفى كامل انتهى به الأمر فى نهاية المطاف إلى قطع صلته بالخديو علناً فى ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٠٤ وفيما يلى نص رسالة القطيعة :

« تشرفت فى ديفون بالمثول بين يدى سموكم يوم ٢٧ أغسطس الماضى ، ورفعت إلى مقامكم السامى أن الحالة السياسية الحاضرة تقضى على أن أكون بعيداً عن فخامتكم ، وأن أتحمل وحدى مسئولية الخطة التى أتبعها نحو الاحتلال والمحتلين ، منعاً لتكدير خاطركم الشريف ودفعاً لما عساه يقع من الخلاف والنزاع .

« وقد رأيت يامولاى بعد التفكير أنه صار من المحتم علىّ القيام بهذا الواجب ، وأنه أول عمل يلزمنى تأديته عقب عودتى إلى الوطن العزيز ، لأن الإنجليز أظهروا فى خلال السنوات الأخيرة من التضييق على جنابكم العالى ما يجعل وجود رجل ينتقد سياستهم فى الصباح والمساء بجانب سموكم داعياً لاعتدائهم على حقوق ذاتكم السنية وحجة لتدخل غير محمود .

« وإنى بعد أن رأيت احتجاجهم على جنابكم الرفيع ، بمناسبة المقابلة التى تفضلت جلالة ملكة البرتغال بمنحى إياها ، ومعارضتهم العنيفة لفخامتكم بسبب الاستقبال الودى الذى نالته مدام جولييت من لدنكم ، وتصريحهم بأن إنجلترا لا تسمح لجنابكم العالى بإكرام من يعاديها وادعاءها بأن كل ما يكتب أو يقال ضدهم موعز به من سموكم . أعد نفسى مقصراً تقصيراً حقيقياً ، فى تأدية الواجب نحو مقامكم الرفيع إذا بقيت صلتى بسموكم على حالها ، وفضلت نعمة التقرب منكم على القيام بواجب تدعو إليه الوطنية والسياسة ، وإنى أرجو أن يعتقد مولاى حفظه الله أنى لم أقصد إلا محض خدمته بما قلته لسموه بشأن أولئك المفسدين الذين يلتصقون بالمعية ويضرون بها أكثر من أعدائها الظاهرين ، ويدخلون اسمكم الكريم فى كل حادث ، غير حاسبين للرأى العام حساباً

وغير ذاكرين أن عرش الخديوية هو البقية العزيزة لاستقلال بلاده ، وأنه يجب أن يكون على الدوام محاطاً بالاحترام التام والاجلال العام ، ليقاوم القوتين المحاربتين ، ألا وهما : الاحتلال والزمان .

« وإنه ليحلو لى أن أبقى إلى آخر لحظة من حياتى ، خادماً لتلك المبادئ الوطنية العالية ، التى كنتم أول الداعين والمنادين بها ، وأن تزداد كل يوم اتساعاً الهوة بينى وبين الذين ادعوا خدمة الوطن ليخدموا مصالحهم ثم انقلبوا عليه بلا خجل ولاحياء » .

ولم تكن هذه الرسالة سوى الخاتمة الطبيعية ، للرسائل الأخرى التى بقيت فى طى الكتمان لا تنشر ولا يسمع عنها أحد ، والتى يتميز فيها مصطفى غضباً ، وإباء وتململا من ضياع الوقت والمماطلة ، التى تبعتها مخاوف الخديو ، وحبه للمناورة ، وميله للتقلب بين الحماسة حيناً والحرص على المصلحة حيناً آخر ، وتأثره بحاشيته الكارهة لمصطفى الحاسدة لنجاحه .

ولكن لعل أجمل مافى هذه الرسالة التاريخية النصيحة العلنية التى أسداها مصطفى كامل للخديو ، والتى دعاه فيها إلى إقصاء المفسدين من بطانته ، لأنهم يضرونه ، ويؤذون سمعته ، أكثر من ضرر الإنجليز الذين كلما حاولوا التضييق عليه ، أو انتقاص سلطاته ، زاد مقامه عند الشعب والتفاف الأمة حوله . أما آخر عبارات هذه الرسالة فموجعة غاية الإيجاع مؤلمة أشد الإيلام . إذ قال :

وإنه ليحلو لى أن أبقى إلى آخر لحظة من حياتى خادماً لتلك المبادئ الوطنية العالية التى كنتم سموكم أول الداعين إليها والمنادين بها ، وأن تزداد كل يوم اتساعاً الهوة بينى وبين الذين ادعو خدمة الوطن ليخدموا مصالحهم ثم انقلبوا عليها بلا خجل ولا حياء » .

ومعنى هذه العبارة الموجزة ، النافذة من اللحم إلى العصب ، إنك يا سمو الأمير رجل متقلب ، فأنت الذى تغيرت ولم أتغير أنا ، كنت تدعو

إلى الوطنية فعملت معك لهذا السبب ، ثم انقلبت على عقبيك ، فافعل ما بدا لك ولكن لا تنتظر منى تعاوناً ولا سكوتاً ، بل إنه يسرنى أن أبعد عنك ، وأن تزداد الهوة بينى و بينك . ولو أن رجالنا وجدوا فى السنوات التى تلت وفاة مصطفى كامل ، واختفاء خليفته محمد فريد ، عن مسرح السياسة العامة الجرأة على الجهر ببعض ما قاله مصطفى كامل علناً ، وعلى رءوس الأشهاد لتغير الحال .

على أن مصطفى كامل لم يكف عن توجيه النقد إلى الخديو كلما أخطأ ، حتى قبل أن تقطع بينه وبين الخديو القطيعة ، فإن مصطفى لم يسكت على وقوف الخديو فى نوفمبر سنة ١٩٠٤ تحت العلم البريطانى واستعراض جيش الاحتلال فى ميدان عابدين بمناسبة عيد ميلاد ملك بريطانيا[1] ، واضطر ديوان الخديو إلى القول ردا على هذا النقد بأن الخديو مر فى الميدان مصادفة فى أثناء حصول الاستعراض ولم يشارك فيه فعلا ، وهو اعتذار مفضوح ولكنه أضاع المعنى الذى فرح به الاحتلاليون من أن الخديو يستعرض جيوش الاحتلال فى مصر ، كما كان يفعل أبوه الخديو توفيق ، ولما استقال اللورد كرومر عين بدله السير الدون جورست ، اشتد ميل الخديو عباس إلى التعاون مع الإنجليز لأنهم غيروا سياستهم من مخاشنته فى عهد كرومر إلى عهد (جورست) ، وصرح عباس ، كعربون على موقفه الجديد بقوله : إن المعتمد البريطانى لا يستطيع حكم مصر وحده و إنه مستعد للتعاون معه ، وإنه لا فائدة من استبدال احتلال باحتلال وأن الاحتلال البريطانى أفضل من أى احتلال آخر[2] :

فكتب مصطفى كامل فى لواء يوم ٢٦ من مايو سنة ١٩٠٧ :

« ما يجب علينا إعلانه والجهر به أمام الملأ كله ، هو أن تصريحات الجناب

---

(١) مصطفى باعث الحركة الوطنية ، عبد الرحمن الرافعى ص ٢٨٦

(٢) مصطفى باعث الحركة الوطنية ، عبد الرحمن الرافعى ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

العالى لا تقيدنا بأى حال من الأحوال ، لأن مركز سموه غير مركزنا ، على أن كل مصرى صادق الوطنية لا يقبل مطلقاً أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديو بمفرده ، أو بيد المعتمد البريطانى أو بيد الاثنين معاً ، بل يطلب أن يكون حكم هذا الوطن العزيز بيد النابغين الصادقين من أبنائه ، وأن تكون نظامات الحكومة دستورية ونيابية » .

وقال فى لواء ٢٧ من مايو [1] :

« قد قلنا مراراً إن سمو الأمير بعيد عن الحركة الوطنية وإن المجاهدين ضد الاحتلال مستقلون عن سموه كل الاستقلال ، فهو إن قال كلمة فى صالح الحركة الوطنية خدم نفسه وعرشه ، واستمال الشعب إليه ، وإن عمل ضدها أضر بنفسه وعرشه ونفر أمته منه ، ولكنه فى الحالين لا يستطيع الإضرار بهذه النهضة ، لأنها نهضة المطالبين بالحياة والوجود ، ومثل هذه النهضة لا يقرها إنسان مهما كان قوياً وعظيماً .

وقال إن مصلحة الشعب المصرى تقضى بأن تكون الحركة الوطنية بعيدة عن الجناب العالى حتى يعلم العالم كله أن المصريين يطلبون بأنفسهم وطوعاً لعواطفهم وشعورهم إصلاح حالة بلادهم وترقية شئونهم ومنحهم الدستور ، وأن هذه المطالب ليست صادرة بإيعاز من كبير أو أمير » .

وقال :

« لقد اتهموا الحزب الوطنى تارة بأنه موحى إليه من الدولة العلية ، وطوراً من ألمانيا وتارة أخرى من سمو الخديو ، وقد سقطت التهمتان الأوليان من قبل وهذه الثالثة قد سقطت الآن معهما ، فحان الأوان أن نهنئ أنفسنا » .

على أن الخديو عباس قد نفى من جانبه فى مذكرات نشرت فى جريدة المصرى فى ١٨ من مايو سنة ١٩٥١ أن يكون مصطفى كامل عميلا

---

(١) مصطفى باعث الحركة الوطنية ، عبد الرحمن الرافعى ص ٢٨٧ و ٢٨٨

أو أجيراً له ، فقال : ليس هناك ما هو أشد بعداً عن الحقيقة من هذا الذى قيل . إن مصطفى كامل لا ينتمى إلا إلى نفسه ثم قال :

وكان مصطفى كامل أول من نشر الفكرة الوطنية بين الشبان المصريين الذين كانوا يتلقون دروسهم فى أوربا ، وهو الذى أيقظ الروح المصرية من سباتها ، وضم إلى عقيدته وحزبه السواد الأكبر من الموظفين وكثيراً من الأعيان والمثقفين وجميع الطلاب والعمال . . كان مترفعاً عن الدنايا ولم يتاجر فى السياسة ، كان بسيطاً ومستقيماً ، وكان يخفى فى مظهره الساكن ، روحاً تواقة إلى جلائل الأعمال ، وقلباً مليئاً بمختلف مشاعر الدعة والطيبة ، لقد وهبه الله ميزة المنطق والجدال . كان فصيح اللسان ، وكانت جمله سلسلة قوية ، وكان يتفنن فى الإقناع فى جاذبية سحرية ، كان حبه لوطنه ينبعث من حماس شديد ، دون أن يجعله يفقد اتزان العقل. ونظراً لأنه عاش فى أوربا وتلقى دروسه فيها ، فكان يعلم أن البلد الذى يريد الازدهار ، يجب عليه أن يحسن علاقاته مع البلاد الأخرى كان يهمه بصفة خاصة التعبير عن هذا الرأى وتأكيده بحماس ، وكان صوته فى هذا المجال يدوى إلى ما وراء النيل ، لقد عقد صداقات متينة فى أوربا ولا سيما فى فرنسا وابتدأ صوته يسمع فى إنجلترا فى أواخر حياته : وكان رجلا نافعاً حقاً لوطنه . . كانت جنازته فخمة إذ شيعتها مصر بأجمعها ، وجاء من القرى النائية آلاف مؤلفة من أنصاره ليشعوه إلى مقره الأخير : كانت روحه مصدر إيحاء للشعب الذى ورث مثله العليا . . . »

ثانياً — مصطفى كامل وتركيا

إن الذين اتخذوا من التغنى بأفضال الاحتلال البريطانى على مصر ، والإشادة بخبراته على شعبها ، والذين زينوا للناس الإخلاد إلى هذا الاحتلال ، والثقة به باعتباره أحسن أنواع الحكم الأجنبى كانوا يرون أن الذين

يتحدثون عن الكرامة الوطنية ، والشرف القومى لتبرير الهجوم على هذا الاحتلال كانوا يهرفون بما لا يعرفون . هؤلاء عكر عليهم صفو حياتهم مصطفى كامل ، لأن وجوده وميلاد حركته دمغتهم بأنهم خائنون ، ودمغت عملهم بأنه خيانة ، ولذلك كان يجب عليهم أن يردوا عليه التحية بأحسن منها ، فقالوا إن مصطفى كامل كان يدعو إلى الولاء لتركيا ، وكان يريد مصر ولاية عثمانية . . وإن هذه هى الخيانة حقا . ولقد وجد هؤلاء صعوبة فى ترويج هذه الفكرة فى أثناء حياة مصطفى كامل ، لأن أغانيه وأناشيده فى حب مصر والزهو بها ، والمباهاة بتاريخها أخرس أصواتهم فضاعت ولم يسمعها أحد ؛ فلما مات مصطفى كامل ، ثم هاجر محمد فريد ، خلا لهم الجو ، وأصبح فى مقدورهم أن يظهروا على مسرح السياسة ويلعبوا عليه أدواراً ذكر الناس ارتباطهم القديم بالاحتلال وتعاونهم معه ودفاعهم عنه ، فعرفوا أن مصدر هذا كله هو تاريخ مصطفى ومبادئه وأفكاره وتلاميذه ، فجددوا اتهامهم القديم له ، وكانوا فى هذه المرة مطمئنين ، لأن مصطفى كامل مات ، ولأن فكرة مقاومة الاحتلال كانت قد ضعفت لفترة وحلت محلها فكرة أخذ ما يمكن أخذه من الإنجليز ، وترك الزمن وتطوره يفتح الطريق للحركة الوطنية بلا تهور ولا تسرع . . ولكى ندرك بوضوح وجلاء أن الولاء لتركيا ، الذى كان مصطفى كامل يعلنه ، أو قل يشهره فى وجه الاحتلال البريطانى وسياسة بريطانيا الاستعمارية ، كان ورقة من أكثر أوراق العمل السياسى فاعلية وتأثيراً ، ومن أشدها إحراجاً لبريطانيا وإرباكاً لسياستها الدولية ، وسياستها فى مصر ، يجب أن نذكر أنه بعد أن وقفت بريطانيا فى وجه دولة محمد على التى اتسعت فشملت السودان وسوريا وفلسطين وجزراً فى البحر الأبيض ، منها كريت ، فى فرض معاهدة لندن التى أبرمت فى لندن سنة ١٨٤٠ على محمد على وتركيا فى فى آن واحد ، وكان أهم شروط هذه المعاهدة استقلال مصر مع الإبقاء على تبعيتها القانونية أو الرسمية لتركيا . . وكان الاعتراف باستقلال مصر

اعترافاً بحقيقة مادية لا سبيل لنكرانها ، وكان الإبقاء على صلة التبعية الرسمية بين مصر وتركيا إرضاء لسلطان تركيا ، ولكن هذه التبعية لم يكن لها مظهر أدبي ولا قانوني ، فقد اقتصرت هذه التبعية على دفع مبلغ سنوى من المال لتركيا باسم الجزية ، وقد رهنت تركيا هذا المبلغ لبعض البيوت المالية الأوربية التي كانت تدين حكومة تركيا . فمعاهدة سنة ١٨٤٠ كانت الأساس الذى يقوم عليه تحديد العلاقة بين مصر والدول المختلفة وفي مقدمتها جميعاً بريطانيا التي سعت لإبرام هذه المعاهدة والتي أمضيت المعاهدة في عاصمتها فبقيت تعرف باسم هذه العاصمة « معاهدة لندن » .

ثم تطورت الحوادث الدولية ، فزادت تركيا ضعفاً ، وزادت أطماع كل من روسيا القيصرية وإمبراطورية النمسا والمجر وفرنسا ثم ألمانيا في أن تحصل كل منها على جزء من إمبراطورية تركيا بعد أن يجهز عليها وتزول من الوجود وتصبح دولة صغيرة تقتصر حدودها على آسيا الصغرى في قارة آسيا وتفقد أملاكها في أوربا .

ولم تكن بريطانيا تحب تركيا ، ولا كانت حريصة على الإبقاء على أملاكها في أوربا كبلغاريا وألبانيا ، إنما كانت تخشى أن تتفكك تركيا نهائيًّا فيهرع ذئاب الاستعمار من كل جانب لينهشوا أشلاءها ويأخذوا نصيبهم من أجزائها ، وكان أخوف ما تخافه أن ينحدر النفوذ السلافي ، نفوذ روسيا ، إلى مضايق الدردنيل ، فيصل إلى البحار الدافئة ، أى إلى البحر المتوسط ، فيجاور بريطانيا في منطقة نفوذها الحساسة . منافس قوى جائع إلى السلطة ومحروم لأمد طويل من المستعمرات والممتلكات . لذلك كانت سياسة بريطانيا هى الإبقاء على تركيا شبحاً قائماً تسنده ، هى بقوائم من الخشب ، وتضفى عليه صفة السيادة ، وتهدد كل من يفكر في المساس بحقوقه . ولما مات محمد على وجاء بعده خلفاء ليسوا في مثل قوته ولا شدة بأسه ولا حسن سياسته رأت بريطانيا أن حلمها القديم في الاستيلاء على مصر أصبح ممكناً تحقيقه ، ففعلت كل ما تستطيع لتحقيق هذا

الحلم الرائع ، فأعانت على إقراض الخديو إسماعيل بما يشتهيه من الأموال من البيوت المالية الأوربية وفى مقدمتها بيوت بريطانيا كبيت « جوشن » وبيت « روتشيلد » ، ونهبت من هذه القروض ما استطاعت من قيمتها باسم السمسرة والعمولة وخدمة القرض ، وأرسلت مندوبيها السياسيين فى ثوب أصدقاء لمصر ، وشجعت وفود متطرفين ومهيجين ودعاة حرية ، ليستكمل إعداد الطبخة ، ثم عقدت مشكلات مصر الداخلية حتى وقعت ثورة عرابى فلبست ثوب الحمل ، وأصبحت صديقة للخديو ، وادعت أنها تحمى حقوقه، ودخلت جيوشها مصر فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وواجهت بذلك مأزقاً من أعقد مآزقها الدولية استمر اثنين وثلاثين عاماً حتى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ . فسياسة بريطانيا التقليدية ، وهى السياسة التى واظبت عليها وحافظت على تنفيذها سنين طويلة ، هى ادعاء الصداقة لسلطان تركيا والمحافظة على حقوقه وممتلكاته . ولكنها لا تستطيع أن تدع فرصة ذهبية ، كالفرصة التى أتيحت لها فى أخريات حكم الخديو إسماعيل الذى عزلته فى يونيه سنة ١٨٧٩ ، والتى مكنتها من احتلال مصر وبسط نفوذها عليها .

ومصر بحكم معاهدة لندن المبرمة فى لندن سنة ١٨٤٠ ، هى ولاية مستقلة ذات تبعية قانونية لتركيا ، فالاستيلاء عليها إخلال بمعاهدة سنة ١٨٤٠ ، وخروج على سياسة محالفة سلطان تركيا ، والدفاع عن حقوقه . فماذا يكون الحل ؟ الحل أن تعلن أنها لا تبغى البقاء فى مصر ولا تنكر حقوق السلطان على مصر ، ولا تقطع صلة التبعية بين مصر وتركيا ، بل هى تحافظ على كل مظهر من مظاهر هذه التبعية ، فالخديو عباس ينصب بعد وفاة والده توفيق فى ٧ من يناير سنة ١٨٩٢ بفرمان ، أى مرسوم من سلطان تركيا ، ولتركيا فى مصر ، مع وجود الاحتلال البريطانى ، مندوب سام يتقدم السفراء ، ويقيم فى قصر باذخ ، تحيط به أبهة

كاملة ، فى الأرض التى أقيم عليها فيما بعد مجمع التحرير . والخديو يزور سلطان تركيا ، ويقدم له فروض الولاء على مسمع من معتمد بريطانيا فى مصر ومن سفيرها فى تركيا . . ومصر تدفع الجزية لتركيا .

فإذا جاء وطنى مصرى ، وكانت غايته أن يخرج الاحتلال البريطانى ، وأن يخرجه من مصر ، ويطهر أرضها منه ، أفلا يكون مفرطاً فى حق بلده ، وجاهلا عناصر القضية التى أقام نفسه محامياً لها إذا هو لم يستغل هذا الضعف القانونى الذى يعانى منه الاحتلال البريطانى ، والذى يشكو منه مركز بريطانيا دوليا . إن بريطانيا وعدت الدول ، وجددت وعودها كل بضعة أشهر بأن الجلاء عن مصر قارب موعده وأنها لن تطيل وجودها فى مصر أكثر من الوقت الذى مضى ، وهكذا حتى بلغت وعودها تسعاً وتسعين وعداً ، ونحن نذكر أن المستر جلادستون تلقى رسالة فى يناير سنة ١٨٩٦ من مصطفى كامل ، ولم يكن سوى صبى قارب سن الشباب ، لا يسنده مركز رسمى ، ولا تؤيده صفة ما تجعله المتحدث باسم مصر ، فأسرع جلادستون يقول لمصطفى إنه يعتقد أن زمن الجلاء قد وافى منذ سنين . ذلك لأن احتلال مصر تم فى عهد حزب الأحرار البريطانى ، وجلادستون هو زعيم حزب الأحرار وسياسة حزبه أن الاحتلال إجراء مؤقت ، ولذلك لم يكن يدع فرصة دون أن يعلن فيها أن الجلاء إجراء مؤقت وأنه زائل عاجلا لا آجلا

ولو راجع القارىء تاريخ الاستعمار الأوربى فى آسيا وإفريقيا وأمريكا أيضاً لما وجد لبريطانيا التى اتسعت إمبراطوريتها فلم تعد تغرب عنها الشمس ، وعوداً بالجلاء مثل ما كان لها فى مصر . لا لأن مصر استعصت على الاحتلال البريطانى أكثر مما استعصت الهند وسيلان واستراليا ونيوزلندا وكندا وجنوب إفريقيا ، بل لأن مركز مصر الدولى وظروف الاحتلال البريطانى التى أشرنا إليها هى وحدها التى أرغمت بريطانيا على تلك الوعود .

فالولاء لتركيا لم يكن إذن إقراراً بتبعية مصر لتركيا ، ولا نزولا عن استقلالها لسلطان بنى عثمان،ولا تفريطاً فى حق من حقوق مصر أو حتى قلامة ظفر من هذا الحق ، بل إنه كان فهماً جيداً وحسناً وموفقاً للظروف الدولية التى تحيط بمركز مصر الدولى ومركز الاحتلال البريطانى فى مصر ، وبعبارة أخرى كان فرط حرص على الاستقلال المصرى ، كان سلوكاً لطريق أقصر وأنفع ، نحو أهداف مصر وغاياتها التى عاش مصطفى كامل ومات من أجلها .

ولكى نزداد تفهماً لهذه البراعة التى اتسم بها دفاع مصطفى كامل، أنقل إليك من كتاب استعمارى كبير المقام ، هو اللورد جورج لويد ، الذى كان مندوباً سامياً فى مصر لبريطانيا والذى ألف كتاباً اسمه « مصر منذ عهد كرومر » ، قال فى هذا الكتاب فى صفحة ١٩٢ منه ، عما واجه ممثلى بريطانيا عشية إعلان الحرب العالمية الأولى التى نشبت فى صيف سنة ١٩١٤ قال :

« كان يجب مواجهة أخطر وأصعب مشكلة فى وقت قريب ، تلك هى مشكلة تحديد مركز مصر حينما تعلن الحرب ضد تركيا » .

« وقد يكون من المفيد أن نذكر باختصار الحقائق العامة الرئيسية فيما يتعلق بمركزنا فى مصر ، كما كان فعلا فى تلك الآونة ، لقد كان مركزنا غاية فى القوة من الناحية العملية ، وغاية فى الضعف من الناحية الشرعية » .

« فمن الناحية العملية كان مركزنا يستند إلى احتلال الجيش البريطانى ، وهذا الجيش تعزز فى فترة الحرب بالقوات الإمبراطورية المختلفة التى كانت لازمة لمواجهة خطر غزو مصر من الخارج » .

« وفى فترة الحرب زاد نفوذنا الفعلى زيادة هائلة بسيطرتنا على البحار التى كانت تعين على عزل مصر عن الخارج تماماً إذا أردنا ذلك . هذه الحقائق جعلت من حقنا أن يسمع رأينا فى توجيه الأمور فى مصر ، فقد استمد موظفونا وممثلونا من وجود الاحتلال البريطانى سيادة كافية .

ولقد كان مركزنا من الناحية الشرعية مناقضاً تماماً لهذا المركز العملى الشفوى . فمن الناحية الدستورية كان الحاكم لمصر هو الخديو ، وكان مجلس الوزراء هو ناصحه ومستشاره ، ولم يكن لقنصل بريطانيا وجود دستورى أو حقوق ناشئة عن أية معاهدة أو اتفاقية أبرمت بين البلدين: مصر وإنجلترا . ولم يكن الموظفون البريطانيون بالحكومة المصرية من الناحية القانونية أكثر من مرءوسين وتوابع للخديو ، ولم يكن من قيد شرعى على سلطة الخديو سوى قيد واحد معترف به دوليا ، ذلك هو السيادة العليا لسلطان تركيا لمصر من الناحية القانونية ، فقد كانت ولاية عثمانية ، وكان الخديو يتلقى الملك « بأمر من السلطان الذى يعترف هو بعظمته بالتبعية » . انتهى كلام اللورد لويد .

فأى أبله يرى هذا الحرج الذى تعانى منه بريطانيا وجيوشها وأساطيلها وطائراتها تملأ الأرض والبحر والجو ، وتسد المنافذ على مصر من كل جانب وتخضعها لإرادتها — أى أبله يرى هذا ويهمله ولا ينتفع به ؟ ومع ذلك فمصطفى كامل لا يمكن أن يكون هذا الأبله ، ولقد واصل الانتفاع بهذا الحرج ببراعة وحذق ، وسبب الكثير من الضيق لها .

كان مصطفى كامل هو أعلى الأصوات هجوماً على الاحتلال البريطانى ، وكان أعظم المصريين جهداً ومثابرة وعملا فى التضييق على هذا الاحتلال ، وإثارة الكره له ، وتقوية الأمل فى قلوب المصريين فى تحقيق الجلاء والاستقلال ، ونزع اليأس من هذا النجاح ومطاردة هذا اليأس . لقد عاش حياته يذكر اسم مصر ويتغنى به ويكرره ويردده ، فاتهامه بالتفريط فى حق بلاده هو من قبيل الافتراء الممجوج ، فمن هم الذين كانوا يأخذون على مصطفى كامل سياسة الولاء لتركيا ؟ الذين كانوا يأخذون على مصطفى كامل موقفه من تركيا ، كان على

رأسهم « حزب الأمة » . فما رأى الإنجليز فى هذا الحزب ؟ وما مدى صلتهم به ؟ وما رأى زعماء هذا الحزب أنفسهم ورأى أصدقائهم وتلاميذهم فى مواقفهم السياسية ؟

يقول اللورد جورج لويد فى الكتاب نفسه :

« وبفضل مجهود اللورد كرومر تأسس فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ حزب جديد هو حزب الأمة وصحيفة الجريدة ، وقد كان أكثر أعضاء هذا الحزب بعثاً للأمل رجلا ، أصبح اسمه فيما بعد من أهم الأسماء فى تاريخ مصر الحديثة ، ذلك هو سعد زغلول الذى انحدر من أصل مصرى قح ، فهو فلاح ابن فلاح ، ولعل هذا هو أهم ما أحاط بحياته العملية من ملابسات . ولما كان سعد قد اختار لنفسه مهنة المحاماة فقد وقع عليه اختيار الأميرة نازلى فاضل ليكون محاميها ووكيل قضاياها ، وكانت هذه الأميرة العظيمة هى التى أوحت إليه أن يتعلم اللغة الفرنسية ، التى لم يكن فى مقدوره بدونها أن يخوض بحر السياسة ، وقد كانت الخطوة التالية من خطواته اقترانه بابنة مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء الذى كان صديقاً دءوباً مثابراً على ولائه لبريطانيا . وقد كان سعد زغلول فى هذه الفترة من حياته قد ظفر بعلاقات سياسية من طبقة عالية ، وكان قد أظهر صفات عظيمة منها الاعتدال فى الرأى والشجاعة ، فقد كان مصريا صميماً . ومؤمناً بالصداقة البريطانية ، وكان خصماً شديداً وقويا لسياسة الخديو ونشاطه السياسى . ولذلك كان لا مناص لكرومر إذا أراد أن يشجع الرأى المصرى السياسى الموالى لبريطانيا ، وإذا أراد فى الوقت نفسه أن يقدم عربوناً للود لصديقه مصطفى فهمى من أن يختار سعد زغلول وزيراً للمعارف المنشأة حديثاً » .

فحزب الأمة الذى كان يصرخ — من فرط حرصه على استقلال مصر — من كل حرف يقوله مصطفى كامل فيه عبارة حب أو ود لتركيا الآفلة التى يتناقص نفوذها فى العالم لا فى مصر وحدها ، هو حزب

من صنع يد كرومر ، ولد على عينه ، وحبا فى رحابه ، وهش عليه بعصاه » .

وقد مر بنا فيما سلف أن لطفى السيد الناطق باسم هذا الحزب والمعروف بعد ذلك بأستاذ الجيل ، قد وضح سياسته فى الاحتفال بتوديع كرومر فى ٤ من مايو سنة ١٩٠٧ بعد سحبه من مصر إثر حادثة دنشواى بقوله إنها تقوم على المجاملة والمحاسنة لبريطانيا وللخديو معا ، ليتيسر أن نقوم بالمحاسنة . فالمحاسنة للمحاسبة هى سياسة هذا الحزب الذى نصب نفسه قيماً على استقلال مصر ، والذى كان شعوره الوطنى الدقيق يتأذى من ولاء مصطفى لتركيا ، ولا يتأذى من ولاء مصر لبريطانيا الحاكمة الفعلية لمصر .

ولقد شرح هذه السياسة بعد ذلك بسنوات المرحوم على باشا عبدالرازق ، فى مقدمة كتاب « آثار مصطفى عبدالرازق » قال رحمة الله (١) :

« وحزب الأمة هذا حزب سياسى ، أنشىء ليقف بالأمة موقفاً وسطاً ، لا يميل بهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكان يتجاذب الأمة يومئذ سلطان الإنجليز المحتلين للبلاد من جانب وبيدهم القوة بالفعل ، ومصاير الأمور . وسلطان الخديو عباس من جانب آخر مستظلا باسم السلطان العثمانى خليفة المسلمين ، وباسم الدين الإسلامى ، ونفوس المصريين حيرى بين هؤلاء وهؤلاء ، وشئونهم مضطربة كذلك ، وأهواؤهم موزعة وآراؤهم مختلفة ، وقلوبهم شتى . والحق الذى لا مرية فيه أن كلا من الإنجليز والخديو كان شراً على مصر والمصريين ، وأن كليهما لا يبغى من الحكم إلا توطئة سلطانه ، وكانت المصلحة الحقيقية للوطن يومئذ فى أن يتخلص من الإنجليز والخديو معاً ، ولم يكن أمام المصريين سبيل إلى ذلك اللهم إلا إن كانت الثورة ، ولكن للثورة ظروفاً وأسباباً لم يكن شىء منها يومئذ مواتياً فى مصر » .

---

(١) من آثار مصطفى عبد الرازق ص ١٣ طبعة أولى . دار المعارف .

وانتهى بعد هذا الكلام الطويل إلى النتيجة المتناقضة لهذه المقدمة وهى : « ولكن الواقع أن الإنجليز كانوا أرحم بالبلد وأدنى إلى رعاية مصلحته من الخديو » . وهنا مربط الفرس ، وهنا يبدو شخص اللورد كرومر من بعيد ، ونسمع صوته ولحنه فى أنشودة حزب الأمة .

الإنجليز شر والخديو شر . ولكن الإنجليز بيدهم الأمر كله ، والقوة بالفعل ومصاير الأمور . فالاحتلال إذن أولى بالمقاومة لأنه يستطيع أن يفعل ما يريد ، يملك التوجيه والتأثير على مصاير الأمور ، هو الذى يجب على الأمة التصدى له ، والوقوف فى وجهه ما دام شراً . أما المقارنة بينه وبين شر آخر أضعف منه ، بحكم أن مرتكبه لا يملك القوة ولا مصاير الأمور فلا محل لها ، لأننا لسنا فى صدد توزيع درجات فى حسن السير والسلوك ، وإنما نحن بصدد مقاومة شر نازل بالأمة ، وواجب يقضى به الشرف ، ويحتمه العقل ، ويفرضه الدين ، والشيخ على عبدالرازق من رجال الدين الإسلامى ويعرف كيف أن رد العادى الغاصب فريضة من فرائض الدين ، وأن التفريط فيه والسكوت عليه مهلك للأمة لأنه مفض إلى الشرك . ولكن حزب الأمة يعقد المقارنة ليصل إلى مهادنة الإنجليز وإحسان الشهادة فيهم ، وهم أصل البلاء ، ويتوثب على الخديو ، وهو ظل الإنجليز إن زالوا زال ، لأنه لا سند له بعد تطور الأحوال عقب الثورة العرابية والاحتلال البريطانى إلا حرابهم هم :

ولقد حدثنا الدكتور محمد حسين هيكل عن موقف لزعيم حزب الأمة أحمد لطفى السيد إبان الحرب العالمية الأولى ، فقد كان يروج لاتفاقية مع الإنجليز ، تؤدى إلى إسقاط التبعية العثمانية والمناداة بالخديو ملكاً على مصر ، ومنحها استقلالا ذاتياً ، فى ظل التبعية البريطانية ، فإذا لم تنجح هذه المعاهدة ، حالفت مصر الإنجليز ورضيت بهم حكاماً باعتبار أنهم خير الحاكمين . وقد ثار هيكل على هذه الدعوة ، وقال للطفى السيد

غاضباً : إن هذه دعوة لا معنى لها إلا أن بلدى عبد رقيق ، أو بغى لا شرف لها .

ولقد لخص الدكتور محمد شفيق غربال سياسة مصطفى كامل فقال إنها تقوم على : قاعدة خالية من كل تعقيد ، أو من كل شطارة : لمصر عدو واحد هو الاحتلال ، ولمصر مقصد واحد هو الجلاء ، وما عدا ذلك تفصيل له وقته ، الإصلاح الحكومى وغير الحكومى ، الحكومة النيابية ، تسوية الأمر ، الامتيازات ، السيادة العثمانية ، كلها حقا أشياء مهمة ، وأشياء ينبغى ألا تهمل ، ولكنها لا ينبغى مطلقاً أن تطغى على المقصد الأساسى . الجلاء ، أو تضعف من مقاومة العدو الأصلى : الإنجليز . ومصدر العقيدة بسيط كل البساطة هو حب الوطن حبا خالصاً ، لا يشوبه التفكير فى انتفاع أو مصلحة ؛ فكانت حملة مصطفى كامل إذن تستخدم ثلاث وسائل : الوسيلة الأولى ألا يأس مطلقاً ، لا تصدقوا أيها المصريون كلام الإنجليز ، وكلام مأجوريهم بأن مركزهم فى مصر لا يتزعزع ولن يتزعزع ؛ والوسيلة الثانية : ألا تثقوا مطلقاً بوعودهم ، وألا تركنوا إلى محاولة تبسيط مركز مصر الدولى ، بل تذرعوا بتلك العناصر الدولية والعثمانية التى يكرهها الإنجليز ، ويكفى كرههم لها لتمسككم بها . والوسيلة الثالثة : ألا تصدقوا أن الاحتلال يمكن أن يبطن خيراً لكم أو لبعضكم . هو يفعل ذلك ليفرق كلمتكم ، ويجعل من بعضكم أعداء لبعض » .

هذا هو رأى الإنجليز فى خصوم سياسة مصطفى كامل إزاء تركيا ، وهذا هو رأيهم فى أنفسهم ، وهذا هو رأى الواقع الثابت فيهم ، وهذا هو أخيراً رأى العلم الصحيح بالتاريخ فى سياسة مصطفى كامل .

لم يبق إلا أن نضع تحت النظر نصوصاً مما جاء فى خطب ومقالات وتصريحات ورسائل مصطفى كامل بصدد علاقته بتركيا .

كتب لمدام جولييت آدم رسالة خاصة يفضى فيها إليها بسياسته نحو

تركيا ، وهى رسالة غير معدة بطبيعة الحال للنشر ، قال :

« إنك تعلمين خطتى مع تركيا ، وما أراه واجباً نحوها ، فقد أوضحت ذلك فى خطبتى ، وقد اعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأنه من حسن السياسة الوطنية لمصر أن تكون مع تركيا على صداقة بما أن الإنجليز يحتلون وطننا العزيز . وإنه إن كان المصرى لا يعرف إلا وطناً واحداً هو مصر فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون دولة الخلافة ، ويظهروا بذلك امتنانهم لها ، لأنها لم ترد أن تكون آلة فى يد الإنجليز » .

وقال فى خطبة له فى ٨ من يونيه سنة ١٨٩٧ :

« إن مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هى مظاهرة قوية ضد الاحتلال الإنجليزى ، واشتراك الأمة على اختلافهم فى الاكتتاب للجيش العثمانى هو اقتراع عام ضد الإنجليز فى مصر » .

وفى خطبة الوداع التى ألقاها فى ٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٧ :

« رمانا الطاعنون بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنعطيها لتركيا كولاية عادية ، أى أننا نريد تغيير الحاكمين ولا نطلب الاستقلال والحكم الذاتى ، هذه التهمة قضاء على الأمة المصرية بأنها لا ترقى أبداً ولا تبلغ غيرها من الشعوب ، لأنه إذا كان المتعلمون من أبنائها يطلبون إحلال نير محل نير واستبدال استعباد باستعباد آخر فكيف يطمع طامع فى تقدمها وارتقائها ووجود خير وطنى لها .

« وليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها ، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة ، فإننا نعمل كغيرنا نتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون » .

وقال فى مقال فى جريدته الصادرة فى ٨ من سبتمبر سنة ١٩٠٦ :

« لماذا يجدون من الأمور المعقولة الطبيعية تحالف فرنسا مع الروسيا

واتفاقها مع إنجلترا ، ويعتبرون من الجنايات ومخالفة الوطنية الحقة اتفاقنا مع تركيا ؟ » .

وقال فى خطبة فى ٢٧ من يناير سنة ١٩٠٧ :

« يستحيل علينا أن يطلب واحد منا مالكاً أجنبيا عنا ، فنحن لا نود إلا أن نكون قوة محالفة للدولة العلية ، ننصرها وتنصرنا ونعتز بها وتعتز بنا » .

فالأمثلة العديدة التى ضربها مصطفى للعلاقة بين مصر وتركيا هى أمثلة دالة على أن العلاقة بينهما قائمة أولا على وحدة المصالح ، وثانياً علاقة امتنان من جانب مصر لتركيا ، لأنها لم تسلم بريطانيا لمصر ، ولم تتنزل عن حقوقها فى مصر ، مما أخر طويلا إلحاق مصر بالإمبراطورية البريطانية ، أو إعلان الحماية البريطانية الذى فكر فيه المسئولون البريطانيون فى مصر وفى لندن ، عندما دخلت تركيا الحرب ضد بريطانيا فى خريف سنة ١٩١٤ ، وأصبح لا معنى للمحافظة على حقوق تركيا . لقد أخبرنا لورد لويد فى كتابه « مصر منذ عهد كرومر » بأن اقتراحات هؤلاء المسئولين فى وزارة الخارجية ووزارة الحرب والمستعمرات تراوحت بين اعتبار مصر ضمن الممتلكات البريطانية ، واعتبارها مستعمرة أو فرض الحماية عليها . وكان يمكن أن تنفذ بريطانيا شيئاً من هذه المقترحات البريطانية ، واعتبارها مستعمرة أو فرض الحماية عليها . وكان يمكن أن تنفذ بريطانيا شيئاً من هذه المقترحات منذ وضعت جيوشها أقدامها فى القاهرة فى ١٤ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وكان تاريخ مصر قد تغير تماماً من كل ناحية :

ثالثاً : كان إظهار الولاء لتركيا والحرص على حسن العلاقة بينها وبين مصر مظاهرة ضد الاحتلال البريطانى تعلن لبريطانيا وللعالم أن مصر ترفض اعتبار هذا الاحتلال إجراء نهائيا . وقد كانت هذه المظاهرات تغيظ الإنجليز ، وقد أثبت أحمد لطفى السيد فى قصة حياته أن القائم بأعمال المعتمد البريطانى فى صيف سنة ١٩١٤ قبل أو بعد إعلان الحرب

العالمية الأولى قال : « إن المصريين ما يكادون يلمحون طربوشاً أحمر من بعيد حتى يجروا نحوه ويتركونا » . والطربوش الأحمر كان رمزاً لتركيا ، فقد كان لباس رأس الأتراك هو الطربوش الأحمر .

رابعاً — كانت المودة وحسن العلاقة بين الدولتين ثمرة ارتباط روحى لا شأن له بالسياسة ، فقد كانت تركيا هى دولة الخلافة ، وقد كانت الخلافة رمزاً على مجد إسلامى مندثر ، وتاريخ عظيم منته ، صحيح أن كل عناصر الخلافة بين سلطة وعدل ، وتقدم وعلم ، قد ضاع من الخلافة الإسلامية سواء كانت عربية أو عثمانية بعد القرنين الأولين ، ولكن بقى الأمل الذى يساور المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فى عودة الخلافة ، حتى أسقطها مصطفى كمال ، فبكى عليها المسلمون ، وبكاها معهم وبلسانهم شاعرهم أحمد شوقى بقصيدته التى يقول فى مطلعها :

عادت أغانى العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت فى ليل الزفاف بثوبه ودفنت عند تبلج الإصباح
ضجت عليك مآذن ومنابر وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ومصر حزينة تبكى عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس أمحا من الأرض الخلافة ماح ؟

وقد أخبرنا المهاتما غاندى أن الحركة الوطنية الهندية لم يشتد عودها إلا حينما ثار مسلمو الهند بقيادة شوكت على ومحمد على ضد بريطانيا ، احتجاجاً على نكول الحكومة البريطانية بما منحته لمسلمى الهند من العهد بأنها لن تمس ممتلكات الخليفة العثمانى .

ولقد رأينا أمريكا تخوض الحرب مرتين فى أقل من ربع قرن دفاعاً عن بريطانيا التى تفصلها عنها ثلاثة آلاف كيلو متر والتى تقع فى قارة أخرى غير قارتها لمجرد رابطة اللغة ، مع أن الولايات المتحدة ثارت على بريطانيا ، وحاربتها وتحررت من حكمها ، فالميل بين الأمم التى يجمعها جامع من تاريخ أو لغة أو دين أو صلة قديمة ، أمر مشاهد فى كل حقبة من حقب التاريخ دون أن يثير اعتراضاً ، أو احتجاجاً .

ثالثاً — مصطفى كامل وفرنسا

لم يكتف خصوم مصطفى كامل باتهامه بالعمالة للخديو ثم بالعمالة لتركيا ، فرموه بالعمالة لفرنسا ، فهو عميل لجهة ما ، ولا يهم أن يقوم الدليل بل أن تتضافر الأدلة ضد التهمة تلو التهمة ، فحسبهم أن يرموه بمنقصة وأن يلوثوا صفحته ما استطاعوا لتهدأ نفوسهم ويفرجوا عن ضيقهم به . وقد اكتفى فريق من خصومه فرموه بقصر النظر ، إذ عقد آماله كلها على فرنسا ، وقصر عليها نشاطه ، واتخذها وحدها ميدان دعايته ومجال اتصالاته . .

وكل هذا باطل . .

أما الدليل على بطلان تهمة العمالة لفرنسا فقد ظهر جليا بأكثر من برهان ، فمصطفى كامل لم ينقد سياسة ، ولم يتهجم على منهج وأسلوب عمل ، كما نقد سياسة فرنسا علناً وعابها ، ولم يبد سخطه ونقمته على منهج وأسلوب عمل كما أبدى سخطه ونقمته على تخبط وزارة الخارجية الفرنسية ، وقد عبر عن خيبة أمله فى فرنسا ، وفى طريقة فهمها للأمور ، وإضاعة الفرص عليها وعلى الوطنيين فى مصر ، علنا فى مقالاته وسراً فى رسائله ، وقد أطلع أصدقاءه الفرنسيين على مآخذه لسياسة فرنسا ، وأقروه عليها وشاركوه فيها . والعميل شخص لا يعرف مبادئ ، ولا يتقيد بأهداف ، لأن غايته الوحيدة وهدفه فى كل حركة وسكنة أن يقبض المال وأن يستزيد منه ، وأن يتلون بلون أسياده ويذهب معهم فى كل اتجاه ، وأن يبرر أخطاءهم ويكرر دفاعهم .

أما الدليل الثانى فهو أن مصطفى كامل بعد أن خانت فرنسا الوطنية المصرية فى فاشودة سنة ١٨٩٨ وفى عقدها للإبرام الودى سنة ١٩٠٤ على وجه خاص ، وبعد أن ندد مصطفى كامل بأخطائها علناً وعلى رءوس

الأشهاد ، مضى فى طريقه أكثر صبراً وأشد مضاء وعزماً وأعظم نشاطاً وجهداً :

فبعد حادثة فاشودة فى سنة ١٨٩٨ ، وبعد اتفاقية السودان التى ترتبت على هذه الحادثة والتى أصبحت بريطانيا بمقتضاها شريكة لمصر فى السودان ، ورفعت علمها إلى جانب العلم المصرى لأول مرة ، أصدر مصطفى كامل جريدة اللواء اليومية التى كانت مدداً وزاداً للحركة الوطنية ، والتى كانت فى ذاتها جهاداً قائماً بذاته ، لأنها كانت تتعقب حوادث مصر فى الداخل وتطورات السياسة الدولية فى الخارج ، بالتعليق والشرح ، حتى اجتمع لدى المصريين مرجع وطنى كامل فى السياسة فى مختلف ميادينها ، كما اتسع لكتابهم الناشئين وشعرائهم الشادين ، ولطلاب معاهدهم العليا مجال يجربون فيه أقلامهم ، ومنبر يعلنون منه آراءهم ، فاتضحت معالم المدرسة الوطنية ، و بهتت إلى جانبها المدارس الأخرى الاحتلالية ، والداعية إلى الاعتدال وانزوت وخفت صوتها .

وبعد حادثة فاشودة واتفاق سنة ١٩٠٤ خاض مصطفى كامل معركته الكبرى فى حادثة دنشواى ، وزلزل بها قلعة الاستعمار الأولى ، وقاعدته الحصينة ، ونعنى بها سياسة اللورد كرومر ملك وادى النيل غير المتوج ، فقد سحب اللورد كرومر من مصر ، وكان ظن أنصار الاحتلال وأتباعهم أنه خالد ، وقد شيعه الوطنيون باللعنات فهاج غضبه وصرخ من شدة الألم فى حفلة تكريمه التى أقامها له بعض الجارين فى ركاب الاحتلال أمثال مصطفى فهمى وأشباهه : الاحتلال البريطانى باق ، وإذا كانت أفضاله على مصر منكورة اليوم ، فسيدركها المصريون غداً ، لأنه من حسن الحظ أن أولاد العمى يولدون مبصرين . فأضحكت اللواء عليه الدنيا ، وأحرجت الذين احتفلوا به قائلة : هذه آخر وأحسن تحية رأى كرومر أن يحيى بها المصريين ، وهو يترك مصر : الاحتلال خالد ! ، أى أن الجمود

كتب على مصر ، والمحتفلون به عميان لا يبصرون . ولكنه هو الذى اختفى ولم يعد له صوت يسمع .

وبعد ذلك ذهب مصطفى كامل إلى لندن وهاجم فيها سياسة بريطانيا ، وقابله رئيس الوزراء البريطانى فأطلعه بغير مواربة على فساد سياسته ، وأضاف فى سنة ١٩٠٧ إلى أسلحة الحزب الوطنى إنشاء الحزب الوطنى نفسه ، وأخرج جريدتين يوميتين واحدة بالفرنسية وأخرى بالإنجليزية ، وكان ظن خصومه أن اتفاق بريطانيا وفرنسا فى سنة ١٩٠٤ سيؤدى إلى ذبوله ثم اختفائه .

وحرمت الإدارة الفرنسية فى تونس دخول « اللواء » جريدة مصطفى كامل إلى تونس ، فكتب إلى مدام جولييت فى ١٣ من أبريل سنة١٩٠٦ : «أليس غريباً فى بابه أن يتركنى الإنجليز حرا طليقاً ويشتركون فى جريدتى وينزلونها المنزلة الأولى فى جميع الأعياد والاحتفالات الرسمية ، فى حين أن فرنسا تحاربها ، لأن سياستها تناهض سياسة إنجلترا . . إنى أود ألا أخفى عليك حقيقة شعورى نحو فرنسا ، فإنى ثائر على السياسة المشئومة التى تنتهجها فرنسا ، لأنها تمنعنا من أن نكون لها نافعين » .

وكتب إلى مدام جولييت آدم فى فبراير سنة ١٩٠٤ :

فاشودة . . . إنها الضربة القاضية ، لقد قلت فى رسائلى قبلا إن غير واحد من فرنسا قد أفهم الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصالح مصر سريعاً وبصفة حاسمة ، وأبانوا لهم أن بعثة « مارشا » هى الحاملة راية الاستقلال ، فصاروا جميعاً يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتى من السودان ، ولكن حادثة فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين » .

وقد كتب إلى مدام جولييت أيضاً فى ٢ من يونيه سنة ١٩٠٠ : « أبعث إليك بمقالة تفصح لك عن شعورى والشعور الأهلى نحو سياحة الخديو فى لندن ، تلك السياحة التى آلمتنا ، وما ذلك وا أسفاه إلا نتيجة لحادث فاشودة » .

ولقد هزت حادثة فاشودة مصطفى ، ولكنها لم تقض على عزمه ولا على أمله ، فقد كتب إلى محمد فريد صفيه وخليفته فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨ بعد حادثة فاشودة[١] ما نصه :

« وعلى أى حال فالمستقبل بيد الله يدبره كيف يشاء ، وما علينا إلا العمل والمثابرة على المطالبة بحقوق بلادنا ، فما ضاع حق لمطالب ، وإنى كلما زرت عواصم أوروبا ازددت اعتقاداً بأن الأمر بيدنا ، وأنه لو اتحد مائة منا لاهتزت الأرض قاطبة لصوتهم . فما بالك لو اتحدت كلمة الأمة المصرية كلها . وإنى لأحس بكآبة وحزن عظيمين لوجودى فى هذه البلاد وحدى وتعود القوم هنا على مقابلتى دون غيرى ، فعسى الله أن يمدنى بمساعد ، وأجد من بنى الوطن أنصاراً يجاهرون معى علناً بأفكارى وآمالهم وما ذلك على الله بعزيز » :

وقد كانت هناك رغبة من الخديو والأجانب المحيطين به على فرض نائب فرنسى هو ديلونكل على مصطفى كامل ، وإلزامه بقبول العمل معه ، والإذعان لتوجيهاته . ولكن روح مصطفى كامل الاستقلالية أبت عليه أن يعمل فى الدعايه لوطنه تحت إمرة فرنسى ، فكتب إلى الأستاذ عبد الرحيم أحمد وكيل القلم العربى بالديوان الخديوى (المعية) — يصف ديلونكل وصفاً ممتعاً قال :

« وأصرح لكم بكل إخلاص أن المسيو ديلونكل له بين إخوانه منزلة ، ويشهدون له بالنباهة والاستعداد وقوة الكتابة والخطابة . ولكن للرجل عيوباً كما له فضائل . فمن عيوبه أنه خفيف « جدا جدا » ، وأخاف أن خفته تضر بنا ، ومثال هذه الخفة أنه يذكر سمو العزيز (الخديو) بعض الأحيان وسط جمع من أصحابه ويقول : قال لى ،

---

(١) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية — الطبعة الثانية ص ١٠٢ — عبد الرحمن الرافعى .

وقلت له . وكان يخطب مرة فى الجمعية الجغرافية (بباريس) فتكلم عن الطلب المقدم من بعض المصريين لمجلس النواب بشأن المحاكم المختلطة قبل أن يقدمه للمجلس وقبل أن يعرفه إنسان ، مما دل الناس على أنه هو الذى حضره ووضعه . وأيضاً فى مسألة « اللوحة » أظهر لى من الخفة ما لم أكن أنتظره من قبل ، فقد استمر كل هذه المدة يقول لى يوميا : قدمها لرئيس الجمهورية ، ويوماً آخر : «إن رئيس الجمهورية لا يقبل هدايا إلا من الملوك » . ومرة أخرى قدمها لمجلس النواب . وفى الختام وبعد التروى الطويل قال لى قدمها للجمعية الاستعمارية . تعجبت أشد العجب وقلت له : هل الجمعية الاستعمارية تمثل فرنسا . فقال لى : قدمها إذن لمن تشاء[1] .

وقد مر بنا كيف رفض مصطفى كامل أن يتولى فرنسى أيا كان ، عرض القضية المصرية على الرأى العام الفرنسى . فقال للخديو فى تقرير : مطالبتى بحقوق مصر بصفتى من أبنائها يحدث تأثيراً أكبر كثيراً من التأثير الذى يحدثه أبلغ الفرنساويين وأكتبهم. ومهما كان الفرنساوى صادقاً فلا يتصور العقل أنه يكون كمصرى يتألم بآلام أمته ويحزن لحزنها ويفرح لفرحها » .

أما أن مصطفى كامل قد استعان بفرنسا فى حملاته ضد الاحتلال البريطانى فهذا أمر تستوجبه البديهة كما قضت به الظروف الدولية ، ففرنسا كانت دائماً المنافس الأول لبريطانيا فى كل بقاع الأرض ، فقد تنافستا على أمريكا ، وتنافستا فى الهند ، وتنافستا فى مصر . وتنافستا على البحر المتوسط والسيادة على العالم ؛ وفى عهد نابليون دخلتا فى حروب بحرية وبرية طوال خمسة عشر عاماً . ولقد أزعج بريطانيا احتلال نابليون لمصر سنة ١٧٩٨ ، كما أزعج الفرنسيين احتلال الإنجليز لها سنة ١٨٨٢ ، وهذه الكراهية الطبيعية ، وهذا التنافس القائم ، أتاح لمصطفى كامل منابر

---

(١) صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ص ٢٤ ، ٢٥ .

لم يكن ليجدها ولو أنفق ألوف الجنيهات . ولولا هذه البغضاء المتقدة لما وضعت فرنسا صحفها ومجلاتها وجمعياتها تحت إمرة مصطفى كامل ، ولما أحسنت استقباله مدام جولييت آدم . ولما عرفته وقدمته إلى الساسة خارج فرنسا . فهذا الذى فعله أمر يشكر عليه ولا يؤاخذ عليه ويعاتب .

ولكن هل صحيح أن مصطفى كامل اعتمد على فرنسا وحدها ؟ هذا أيضاً غير صحيح إطلاقاً ؛ ونظرة واحدة إلى نشاط مصطفى كامل فى سنة من سنوات عمله كسنة ١٨٩٦ أو ١٨٩٧ مثلا تكفى لبيان أن فرنسا لم تكن سوى ميدان من ميادين نشاطه ، فقد افتتح سنة ١٨٩٦ برسالته المشهورة إلى جلادستون التى تلقى عنها الرد فى ١٤ من يناير من تلك السنة ، فأحدث دويا على الوجه الذى شرحناه ، ثم كتب رسالته الثانية فالثالثة إلى جلادستون حتى تلقى ردا ثانياً ، ثم خطب فى الإسكندرية فى ٣ من مارس ، ثم عاد فخطب فيها بالفرنسية فى ١٣ من أبريل ، ثم أصدر مجموعته « مصر والاحتلال البريطانى » ، ثم سافر أول أغسطس قاصداً فرنسا ، فتحدث إلى لبير بارول والإكلبير ، ثم سافر فى أكتوبر إلى ألمانيا ، وفى الشهر نفسه وصل إلى فيينا ، وفى الشهر نفسه أيضاً ذهب إلى تركيا ، وفى نوفمبر عاد إلى مصر .

وبدأ سنة ١٨٩٧ بنداء وجهه إلى ألمانيا بمناسبة عيد ميلاد إمبراطورها ثم سافر فى مارس إلى تريستا ، بعد أن أفضى بحديث إلى أمريكى ، ثم سافر إلى النمسا ، وأقام وليمة فى ٤ ، ٥ من مارس فى فيينا ، وفى ٢٦ من مارس كان فى بودابست ، ثم سافر منها إلى برلين ، فكان فى الخامس من أبريل بها . وفى ١٢ من مايو عاد إلى مصر ، وفى ٨ من يونيه ألقى خطبة فى الإسكندرية ، وفى يونيه سافر مرة أخرى إلى الآستانة وفيها أفضى بحديث إلى جريدة ألمانية ، ثم قصد فيينا ، ومنها إلى باريس ، ثم سافر ثانية إلى برلين ، ثم عاد إلى باريس وعاد إلى مصر فى أكتوبر مريضاً .

فتردد مصطفى على فيينا وبرلين وبودابست كان كتردده على فرنسا

أو أكثر ، ولما قدم تقريره السياسى إلى الخديو الذى رسم به خطة الدعاية وشرحها اقترح أن يستخدم جريدتين فرنسيتين ومثلهما فى روسيا ، وثلاثاً على الأقل فى ألمانيا ، كما اقترح استخدام (كل الأجناس) وأكد كثيراً وجوب التحبب لألمانيا والتقرب إليها بكل وسيلة .

فسياسة مصطفى كامل فى الواقع . هى سياسة فسيحة مترامية الآفاق لا تعتمد على أحد ولا على دولة . ولا على أسلوب واحد . إنها تبحث عن الفرص والميادين والأشخاص ما دام فى أى من هؤلاء النفع لمصر ، أو لمجرد الأمل فى إمكان خدمتها ، أو الإساءة إلى أعدائها .

فكما ترى كم تجنى خصوم مصطفى كامل عليه ، ، وكم شوهوا التاريخ وقلبوا الأمور . . أين هم أعداء مصطفى كامل ؟ ومن هم ؟ إن مصطفى كامل لا يزال مصدراً لكفاح المواطنين فى أمته . .

وهذا هو حكم التاريخ دائماً . .

وقد قال ليقوى الأمل فى نفوس المصريين ، ولينفى عنهم طائف اليأس الذى بدأ يلم بهم لخيانة فرنسا فقال :

« إننا لم نيأس ولن نيأس أبداً من مستقبل الوطن العزيز ، فإننا نعلم علم اليقين أن مصر مقبرة للأمم الطاغية ، ونعرف أن حظ إنجلترا سيكون فيها كحظ الدول المعتدية عليها . ولكننا إذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا فإننا يائسون كل اليأس من أى تعضيد يأتينا من أوربا ، وأصبحنا نوجه همتنا ونشاطنا لتعليم الأمة وتربية أبنائها بإنشاء المدارس فى أنحائها . حيث ينشأ الشباب على أشرف مبادىء الوطنية والشهامة ، ويتعلمون من الصغر تاريخ العظمة السالفة الفثقة بالمستقبل والإيمان بأن لبلادهم فى الأيام الآتية مستقبلا باهراً » .

وقد أرسل فى ٣ من ديسمبر سنة ١٩٠٤ إلى مدام جولييت آدم الكاتبة الفرنسية يهجو مسيو ديلكاسيه وزير خارجية فرنسا ويهاجم سياسة الاتفاق الفرنسية البريطانية قائلا : « الآراء متحدة هنا على أن إنجلترا ساقت

فرنسا إلى الهاوية ، وقد قدم ديلكاسيه (وزير الخارجية) بذلك لبلاده أظرف هدية ، ولكن مما يؤلم النفس أن الجبن والمنفعة الخاصة هما اللذان يحكمان فرنسا الآن ، ولا أدرى كيف تتحمل أمة كأمتكم نير الحكومة الحاضرة . ويلوح لى أنه ليس فى مصر وحدها قد يهوى الرجال إلى أسفل سافلين » .

وقد انضمت مدام جولييت آدم نفسها إلى مصطفى كامل فى حملته على السياسة الفرنسية فى المقدمة التى كتبتها لكتاب « مصريون وإنجليز » الذى ضم مقالات وخطب ورسائل مصطفى كامل فى عشر سنوات فقالت :

« إن آلام المصريين كبيرة ، بل إن مرارة هذه الآلام تزداد فى نفوسهم لأنها تأتيهم عن طريق فرنسا التى هدمت بواسطة ديلكاسيه ما بنته فى قرون ، وإن هذا الهدم له نتائجه الوخيمة على مصالح فرنسا ومصالح مصر ، يخيل إلى أن حكامنا منذ سنة ١٨٨٢ وجهوا همهم إلى مساعدة الإنجليز لتثبيت أقدامهم فى مصر ، كما أن التعليمات التى يتلقاها وزراؤنا سنة بعد سنة تسىء إلى مصالحنا بقدر ما تسىء إلى مصالح مصر » .

رابعاً — مصطفى كامل والتعصب الدينى

كان مصطفى كامل جديراً بأن يكون هو وحزبه آخر من يرمى بنقيصة التعصب الدينى والعمل على التفرقة بين المصريين بسبب مذهبهم أو طائفتهم أو مركزهم الاجتماعى ، ذلك لأن مذهب مصطفى كامل هو حب مصر ، والتغنى بها ، وإثارة حبها فى القلوب . ومصر التى طالما وصفها بأنها « الأم » ، والتى تحدث عنها كما يتحدث الابن عن أمه هى ككل الأمهات لاتفرق بين أولادها ، فهى أم القبطى والمسلم :

وأم المصرى والمتمصر ، والفقير والغنى ، وأم الضعيف والقوى فالوطنية مذهب ، هو أشمل المذاهب من وجهة نظر الوطن الواحد ، وفيه لا يتفاضل الناس إلا بمقدار ما يخدمون أمتهم ويضحون فى سبيلها .

على أن لمصطفى كامل خاصية أخرى تميزه من جميع الزعماء الذين عاصروه والذين جاءوا بعده ، فقد كان يؤمن بدولية القضية المصرية ، يعنى أن النزاع المصرى مع الاستعمار البريطانى ليس نزاعا ثنائيا يقتصر على طرفيه . مصر التى أصيبت بالاحتلال ، وبريطانيا التى اعتدت على مصر بالغزو والسلب والنهب ، بل إنه بطبيعته دولى ، يهم مجتمع الدول كلها ، لأنه يؤثر على مصالحها إن آجلا وإن عاجلا ، بصفة مباشرة أو غير مباشرة ، فهو بؤرة للصراع بين الأقوياء الذى قد يفضى بذاته إلى حرب دولية ، تجر إليها من كان فى أقصى المغرب ومن كان فى أقصى الشرق .

ودولية النزاع المصرى البريطانى اقتضت مصطفى كامل أن يقضى نصف عمره بين الساسة والكتاب والنواب والشيوخ والوزراء وأصحاب الرأى فى أوربا ، وهؤلاء جميعا مسيحيون ، بل إن بعضهم غارق حتى أذنيه فى مشاكل تهم المسيحية . والمسيحيين والأرمن فى تركيا .

وقد مضى تاريخ مصر منذ بدأ هذا التاريخ إلى اليوم دون أن تشوبه أو تشوهه انفجارات التعصب الطائفى التى تقع بسببها فى مختلف أنحاء العالم : شرقه وغربه مذابح ، آخرها مايجرى فى أيرلندا بين طائفتين مسيحيتين .

والحق أن التعصب جزء من الطبيعة الإنسانية ، والإنسان مفطور على البحث عن أسبابه ودواعيه ، وربما كان مرد هذا إلى أن التعصب يحرك النفس الإنسانية ، ويستنفد طاقاتها المتعطلة ، فالناس يحبون أن يتعصبوا لوطنهم أو لبلدتهم أو لمدرستهم أو لناديهم أو لحزبهم ضد وطن أو بلد أو نادى الآخرين ، وقد تقع من وراء هذا التعصب الدينى

الذى هو أكبر صور التعصب ، باعتبار أن الدين أكثر اتصالا بماضى النفس الإنسانية وتراث الآباء والأجداد ، وأنه يثير الصراع الدينى الذى صاحب نشأة الدين وانتشاره واضطهاده . . . وكلنا يعرف كيف أدى التعصب لناديين رياضيين فى مصر إلى دماء تسفك وأرواح تزهق ، بل إننا نذكر أن حرباً أعلنت بين دولتين من دول أمريكا اللاتينية بسبب مباراة كرة بينهما ، كما أذيع أن مظاهرات قامت فى إيطاليا بسبب هزيمة فريقها القومى فى المباراة على كأس العالم سنة ١٩٧٤ وأن بعضهم انتحر من فرط حزنه بسبب هذه الهزيمة .

ولكن رمى مصطفى كامل بتهمة التعصب كانت — ككل مارمى به من تهم لاتقوم على أساس ، وكان لايطيق السكوت عليها ، فكلما رماه بها رام انتفض انتفاضة الغاضب المتجنى عليه ظلما ، ونفاها بشدة من ينفى عن نفسه عاراً لايقبله ولايطيقه .

قال فى خطبته بالإسكندرية فى ٨ من يونية سنة ١٨٩٧ : «إن المسلمين والأقباط شعب واحد ، مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ، ولايمكن التفريق بينهما مدى الأبد » . .

وقال بعد ذلك بثلاث سنوات ، وفى الإسكندرية أيضا : «كيف يستطيع رجل أن يدعو للشقاق والبغضاء؟ هذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة ، فالأقباط إخوة لنا فى الوطن ، تجمعنا بهم أشرف رابطة ، وقد عشنا معهم القرون الطوال ، على أتم وفاق . وأكمل اتفاق » .

وقد أحسنت جريدة إيطالية بعد وفاته حينما نفت هذه التهمة ، وهى جريدة « امبار تسيالى » : إن أظلم اتهام وجهه إليه أعداؤه وخصومه من ذوى النية الفاسدة هى التعصب الدينى . إنها ضربة خطيرة كانت مبعث سخط مؤلم للرئيس الشاب للحزب الوطنى ، إن المثل الأعلى الذى أصر عليه الرائد الذى ارتحل فى ريعان الشباب هو نشر التعليم بين أفراد الشعب المصرى . كان متمسكا بهذا التعليم الإلزامى الذى

عرفت قيمته الأمم المتقدمة ، فأنشأ المدارس وشجع الثقافة الشعبية ، وتبنى إنشاء الجامعة المصرية » .

كما أنصفته جريدة « الطان » الفرنسية فى نوفبر سنه ١٩٠٧ . أى قبيل وفاته بأشهر قليلة : إنه لمن دواعى الأسى لنا أن مسلما مسموع الكلمة يصرح عاليا بأنه لا إسلام دون عدالة ومدنية وإنسانية ، وأنه يعاقب على كل إجرام يرتكب ضد الأوربيين ، وأنه العدو اللدود للرذائل والموبقات » .

ولما خطب مصطفى كامل فى ٨ من يونية سنة ١٨٩٨ وصفت جريدة « الوطن » التى كان يصدرها المرحوم ميخائيل عبد السيد ، والتى كانت تتابع شئون الأقباط باهتمام خاص ، خطبة مصطفى ولخصتها ، وأثنت على الخطيب بقولها : فقد انشرح كل من سمع حضرة الوطنى الماهر مصطفى كامل ، لأنه ظهر فى المصريين من هو مقتدر على الإعراب عن نوايا الأمة المصرية بالاعتدال والرزانة والحض على مكارم الأخلاق والحث على المحبة والمسالمة . ونقلت قول مصطفى :

« إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد » .

وقالت جريدة المؤيد تعليقا على تقريظ الوطن : «قد نشرنا أيضا ما كتبته جريدة الوطن الغراء فى هذا الصدد ، وهو ليس من قبيل تقريظ الخطيب ، بل هو إعراب حق عن حكم عقلاء الأقباط على تلك الخطبة الوطنية » .

على أن الشهادة الكاملة فى حق مصطفى كامل ، الذى أبرأه الله منها ، ونزهه عن وجهة التعصب ، جاءته من مصرى قبطى عظيم ، هو الأستاذ مرقس حنا الذى زامل مصطفى كامل فى العمل الوطنى ، والذى انتخب فيما بعد نقيبا للمحامين ، ووزيراً للأشغال ، ومنح رتبة الباشوية ، فقد أبن مصطفى بعد وفاته بخطبة حارة قال فيها :

ليس الأبطال قائدى الجيوش ، والقابضين على دفة الأساطيل ، إنما الأبطال هم أولئك المتمسكون بالمبدأ القويم وأهدافه الدائبون على السير فى سبيله ، حتى ارتفعوا إلى أوج الرقى والعلا . سار الفقيد فى سبيله هذا ثابت الجأش شديد المراس ، لايلوى على أحد ، ولايقف به أمر ، حتى فاز كما نرى ، وأراد أن تكون الوحدة الوطنية وأرانا طريق الإخاء والحرية ، وهدانا إلى السعادة الحقيقية ، ورسم لنا طريق الوفاء والتآلف . . هذا بناء مصطفى كامل ، هذا عمل مصطفى كامل ، وقد بدأنا نجنى ثمره من الآن ، لأن الاتحاد هو السلم الأول للوصول إلى الحرية والاستقلال » .

وقد شهد بمثل ذلك صحفى أجنبى كبير هو « لوى برتران » إذ قال :

« كل عمله ينحصر فى تقوية روح الوطنية والاتحاد بين مواطنيه ، والمقاومة السلمية ، وكان يحتقر مدنية لا غاية لها إلا الرقى المادى دون العناية بتحرير النفس أدبيا . فما كان أجل جهاد ذلك الشاب المخلص الذى نصب نفسه لمحاربة خصم قوى عنيد مع أنه لاسلاح له إلا قلبه ولسانه » .

والواقع أن خصوم مصطفى كامل وخصوم الحزب الوطنى من بعده استغلوا نزاع الأرمن فى تركيا ، ومشكلة المستعمرات فى أواسط وشرقى وغربى إفريقيا التى فتحت أبوابها لبعثات التبشير المسيحى فضلا عن احتكاك الحاكم الأوربى المسيحى بالمسلم فى بلاد خضعت للفتح العربى كبلاد العرب فى شمال إفريقيا وكبلاد المسلمين فى الشرق الأقصى . . والتعامل مع هؤلاء ، والسعى لاستجلاب عطفهم ، والظفر بحسن ثقتهم ، تجعله حريصا على ألا يبدو منه قول أو فعل ما يشككهم فى نواياه نحو المسيحيين فى كل مكان . وقد شملته مدام جولييت آدم بعطفها ، ومنحته حبها بإخلاص وسخاء ، وأثنت عليه واعتبرته ابنا ، وعرف

بفضلها أمثال بييراوتى ومارشا ، وغيرهما ممن ذكر أسماءهم من قبل ، ومدام جولييت ، مشتغلة بالسياسة الفرنسية والدولية ولها أطماع قومية .

وقد نشأ وتربى تربيته السياسية فى مدرسة الحقوق الفرنسية فى مصر وفى كليتى الحقوق بباريز وطولوز . . واحتكاك الناس بعضهم ببعض ينفى أسباب النفور بينهم ويزيدهم تقاربا . على أن مصطفى كامل قبل كل شىء ، وبعد كل شىء ، مسلم صحيح الإسلام ، متدين عارف بأصول دينه ، والإسلام يكره التعصب ويمقته ، وينهى عنه ، فلقد ألح رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام فى وجوب رعاية المسلمين أهل الكتاب وأعلن أنه خصم فى يوم القيامة لمن كان خصيما للكتابيين (أى اليهود والمسيحيين) فى الدنيا .

ولم يدع مصطفى كامل فرصة لإثبات أن العلاقة بين مصر وتركيا ، ولو كانت تركيا هى دولة الخلافة الإسلامية ، هى علاقة سياسية ، أثرها الأساسى فى مجال العلاقات الدولية ، وفى حشد أكبر قوى تمكنه ضد الاحتلال البريطانى ، فليست علاقة قائمة على تكوين تحالف إسلامى ، ضد العالم المسيحى ، لأن مصر تستعين بفرنسا وألمانيا والنمسا وروسيا ، وكل هذه دول مسيحية ، بل إن كلا منها يعتبر نفسه حامى جانب كبير من العالم المسيحى ، ففرنسا هى رأس الكاثوليكية ، وروسيا هى حامية الأرثوذكسية ، والنمسا تعمل على حماية شرق أوربا الذى كان خاضعا للحكم التركى .

وليس فى الوسع نقل ماقاله مصطفى كامل ، فى توضيح هذا الجانب (الواضح) فعلا من سياسته ، ولكن خصومه يتظاهرون بأنه غامض ، ولكنا سنكتفى بالقليل من أقواله وتصريحاته فى هذا الصدد .

فى سنة ١٩٠٧ أصدر اللورد « كرومر » تقريره السنوى عن الشئون فى مصر ، فأشار إلى الاتحاد الإسلامى ، مظهراً خوفه من فكرة هذا الاتحاد ،

فانبرى مصطفى كامل يرد عليه بمقالين فى السابع والثامن من أبريل سنة ١٩٠٧ تناول فيهما الفرق بين الاتحاد الإسلامى والوطنية اللذين خلط بينهما اللورد كرومر [1] . فقال إن فى مصر شعورين منفصلين واضحين . فالشعور الوطنى يشترك فيه المسلمون والأقباط ويضمهم إلى العمل معا جنبا إلى جنب لرفعة الوطن والمطالبة بالحرية والاستقلال ، والشعور الدينى عند المسلمين والأقباط يلعب دوراً كبيراً ولاينكره أحد ، فإذا خلطنا بين هذين الشعورين ، فالأولى أن نخلط بين البروتستانتية ومذهب المحافظين بدعوى أن معظم الإنجليز بروتستانت . إن المصريين اليوم يهتدون فى سيرهم بنور العلم والمعرفة » .

وفى خطبته التى ألقاها فى الثالث عشر من أبريل سنة ١٨٩٦ على جمع غفير من الأجانب المقيمين فى مصر قال :

أجل . لنتكلم قليلا عن هذا التعصب الخيالى الذى يقول أعداؤنا إنه فى نفوسنا . إن أعداء مصر يريدون أن يمثلونا أمام أوربا فى صورة قوم متوحشين مستعدين لإخفاء كل أوربى فى بلادنا متى رحلت العساكر الإنجليزية عنا . ولقد تطرفوا فى هذا الادعاء فأرادوا أن يغشوكم أنتم أنفسكم ، ويسخروا من سلامة نيتكم . . . أنتم ياأوفى أصدقاء مصر ، وأعز ضيوفها . . الأمة المصرية متعصبة ؟ ! وامصيبتاه ! أما ترون أنفسكم أيها السادة ؟ إذا كانت فى العالم أمة صفتها اللطف والوداعة فإنما هى ولاشك الأمة المصرية ، فإن الكثيرين من الأوربيين يعيشون بأعظم سكينة فى القرى ، مختلطين اختلاطا دائما مع الفلاحين .

« هل احتجتم مرة إلى عون عسكرى إنجليزى ضد مصرى ما ؟ !

« ليفتش أولئك الذين يتهموننا بالتعصب فى كل تاريخنا ،

---

(١) مصطفى كامل : حياته وجهاد – أحمد رشاد . ص ٢٣٩ .

وليبحثوا فى تاريخنا إذا كان الأوربى فى زمن من الأزمان أسيئت معاملته .

« ولماذا نذهب للبحث فى التاريخ برهانا على تسامحنا الدينى ؟ أليس أمام أعينكم اليوم أسطع البراهين على هذا التسامح الدينى الجميل ؟ أتظنون أنه إذا كانت الأمة المصرية متعصبة كانت تسمح لأبنائها أن يذهبوا لمحاربة أمة أشد تمسكا بالإسلام ؟ أليس الذين يدعون أننا متعصبون فى الدين يظهرون أنفسهم بمظهر السخرية عندما يقولون كذلك إن الأمة المصرية يزداد تعلقها بالاحتلال ؟ كيف تكون الأمة فى آن واحد متعصبة للدين ومحبة للإنجليز . (تصفيق حاد ومتصل) .

« إن لأعدائنا مقصدين من القول بأننا متعصبون فى الدين : إهاجة غضب الأمة وإلقاء بذور الشقاق بين الأوربيين والمصريين . ولكن من حسن حظ مصر أن الأمة محافظة على السكينة عارفة بقيمة الاعتدال الدينى » .

وفى ٢٤ من أغسطس سنة ١٩٠٦ أرسل رسالة إلى مدير جريدة « الطان » يقول فيها :

« إننا كمسلمين نميل إلى إيجاد تفاهم بين العالم الإسلامى والعالم المسيحى ، إن اليوم الذى يتحقق فيه هذا التفاهم على أسس عادلة ستشعر فيه الإنسانية بالسعادة والهناءة ، ويبقى على الأمم الأوربية التى ترغب فى احتضان هذا المبدأ وإخراجه إلى حيز الحقيقة أن تبرهن على ذلك بالأفعال » .

وقد يحسن أن نسجل هنا أن أول لجنة إدارية للحزب الوطنى ، والتى انتخبتها الجمعية العمومية الأولى للحزب المنعقدة فى ١٧ من ديسمبر سنة ١٩٠٧ قد انتخبت الأستاذ ويصا واصف المحامى عضواً ، وقد جاء عدد ما حصل عليه من الأصوات فى المرتبة التاسعة ، بين ثلاثين عضواً ، فجاء بعده على فهمى كامل شقيق رئيس الحزب ، وحافظ رمضان

الذى كان الرئيس الثالث للحزب ، وقد كانت مشاركة ويصا واصف فى مجلس إدارة الحزب الوطنى هى أول مشاركة للأقباط بعد الاحتلال فى أى نشاط حزبى ، مما يقطع بأنهم أحسوا وأدركوا عن الحزب الوطنى أنه حزب المصريين ، وأن ماعمل ضد هذا الإدراك السليم ، وهذا الإحساس الصحيح ، لم يكن يقصد به محاربة الحزب الوطنى فحسب بل محاربة الوطنية التى كان ساعدها قد اشتد .

والدليل على ذلك أنه لم يكد « كرومر » يذهب ، ويحل محله دون جورست ، وتحل محل سياسة الشدة والقمع التى اتبعها « كرومر » سياسة « اليد الناعمة » و « القفاز الحريرى» الذى يخفى قبضة من حديد ، حتى سعى الساعون لإحداث فتنة بين أبناء الأمة الواحدة ونبتت فكرة المؤتمر القبطى فى أسيوط ، والمؤتمر المصرى فى مصر الجديدة .

وفى هذه الفترة التى لم يطل عمرها لحسن الحظ والتى لم تترك أثراً يذكر فى وحدة الأمة وصلابتها ، وتساميها عن صغار التعصب ، كتب كاتب يدعى فريد كامل ، مقالات تناول فيها المسلمين ، فسكت عنها « اللواء » ولم يرد عليها ، ثم انتهى إلى الهجوم على الإسلام نفسه ومبادئه ، وهنا تناول رئيس تحرير اللواء ، الشيخ عبد العزيز جاويش ، قلمه ورد على فؤاد كامل رداً قال فيه : أينجح جورست فيما فشل فيه أستاذه كرومر ؟ وتحدث عن قوة الصلة بين القبطى والمسلم وعن حسن العلاقة بين الأكثرية والأقلية فى مصر ، وقارن حالة الأقلية فيها بما تناله الأقليات فى بلاد يحكمها الأوربيون : وقال هاهو ذا السير جورست يريد أن يقدم لقومه قبل سفره إلى لوندره مايثبت كفاءته ، حتى إذا خلا إلى أولى الأمر فيها : قال ، هأنذا قد فعلت مالم يفعله سلفى ، ونجحت فيما فشل فيه أستاذى ، إذ حاول اللورد كرومر مراراً التفريق بين عنصرى الأمة ، وطعن المسلمين بالأقباط ، والأقباط بالمسلمين ، فلم ينجح ولم يفلح ، ولكنى تمكنت

بإشارة صغيرة منى إلى فريق من صغار الموظفين أن أوجد الفكرة التى كان اللورد يجد وراءها ولا يصل[١] » .

وقال إن الأقلية القبطية عاشت مع الأكثرية المسلمة دهوراً دون أن تتسرب بينهما كراهية . ولا أن تقع قطيعة ، ولم يفخر مسلم بالاستعلاء على قبطى ، ولم يشك قبطى من استغلال مسلم .

ولما مات محمد فريد ، وكان الشيخ جاويش فى ألمانيا . حيث لقى الرئيس الثانى للحزب الوطنى ، نهاية الأجل . وقف يؤبنه وقال :

أبصر فريد كيف أصبحت قواعد الحزب الذى يرأسه عقيدة كل فرد من أفراد الأمة ، وغاية كل مجاهد من رجالها . أبصر فريد كيف اتحدت كلمة الشعب ، وكيف نافس فى سبيل الوطن أطفال الأمة الشيوخ . ونساؤها الرجال ، ومسيحيوها المسلمين ، وكيف تعانق الهلال والصليب . والقرآن والإنجيل وتعانق الشيخ والقسيس » .

ولما أعلن الدستور المصرى فى سنة ١٩٢٣ وجرت أول انتخابات عامة فى سنة ١٩٢٤ ، ورشح الشيخ عبد العزيز جاويش نفسه عن دائرة كرموز بالإسكندرية ، كتب الأستاذ جندى إبراهيم صاحب جريدة « الوطن » التى نشرت مقالات فريد كامل . مؤيداً للشيخ عبد العزيز جاويش ، ضد محمد سعيد باشا رئيس الوزراء بمقال طويل نشر فى عددها الصادر فى ٢١ من ديسمبر سنة ١٩٢٣ .

وهكذا ظهرت صحيفة الحزب الوطنى بريئة من كل شائبة تشوبها . وبقى تراث مصطفى كامل تراثا وطنيا ، يفخر به القبطى والمسلم . ويرون فيه صورة رائعة من صور الجهاد من أجل الحرية والرخاء والمساواة .

---

(١) كتاب : مشهورون منسيون – بقلم المؤلف ص ٤٣ .

الفصل العاشر

موت أم ميلاد

عاش مصطفى كامل عمراً قصيراً ، ولكن كانت حياته طويلة . لم تكن طويلة — كما يقول الشعراء والأدباء عادة — بحساب الأعمال الباقية ، والآثار البانية ، والأفكار التى ستستمر مصدراً للإلهام ، والسلوك الذى سيخلد نموذجا للمحاكاة ؛ بل كانت حياة مصطفى كامل طويلة بحساب الأيام والسنين . فقد بدأ حياته العامة مبكراً غاية التبكير ، فأتيح له أن يمنح المثل الأعلى الذى وهبه كل قواه ومواهبه ، وكل تفكيره وإحساسه ، ست عشرة سنة كاملة ، بقى فيها على المسرح العام ، يقول أفكاره الثابتة ، ويدعو إلى مبادئه التى لايبدل فيها ولايغير . يقولها خطابة ، ويقولها كتابة ، ويقولها حديثا ، ويقولها بالعربية ، ويقولها بالفرنسية ويقولها فى رواية ، ويقولها فى كتاب ، ويحدث بها نفسه . . ستة عشر عاما من العمل العام لم ينحرف عنه إلى وظيفة ، ولا إلى وزارة ، ولا إلى عطلة يوم ، أو راحة مرض ، ولم يضيع ساعة مجاملة لصديق ، أو فترة ترويح لنفس مكدودة ، أو جسم عليل . .

ولو حسبت السنين التى قضاها زعماء مصر ، الذين جاءوا بعده ، على المسرح العام ، بعيداً عن الوزارة والوظيفة الصغيرة والكبيرة ، لما وجدت منهم واحداً قضى من أجل هذا العمل وفى سبيله مثلما قضى مصطفى كامل من السنين مع المثابرة والانقطاع والمواصلة والتركيز .

فهى إذن حياة طويله . .

ثم هى حياة ناجحة ، بل إنها بلغت من النجاح مالم يبلغه أحد

من أصحاب الدعوات الوطنية أو الفكرية فى القديم والحديث فى الشرق والغرب . .

فقد بدأ حياته والاحتلال البريطانى مستقر ناعم البال ، مطمئن إلى بقائه واستمراره ، ورضاء الناس به ، وثقتهم فيه ، ومات وكل الذين أيدوا الاحتلال فى الماضى غيروا مواقفهم، إما بالدفاع عن أنفسهم، وإما بالتخفيف من صراحة ولائهم . . بل منهم من انتقل من معسكر المؤيدين إلى معسكر المقاومين . بدأ مصطفى حياته، وليس فى يده إلا قلمه يكتب به ضيفا على جريدتى الأهرام والمؤيد ، ومات وفى خدمته صحيفة يومية هى أكثر الصحف المصرية رواجا وأعلاها مقاما ، وأعذبها صوتاً ، وأحبها إلى القلوب منهجا ، ومعها جريدة يومية إنجليزية وجريدة يومية فرنسية وجريدة أسبوعية إنجليزية — ومجلة أسبوعية وأخرى شهرية بالعربية وعدد لايحصى من الصحف فى فرنسا وألمانيا والنمسا ، تضمر له الود ، وتعلن الإعجاب ، وتفسح صفحاتها لما يقول ولما يكتب .

بدأ حياته والاشتغال بالعمل العام . مجازفة يتحاشاها ويحسب حساب عواقبها كل الناس : الموظفون لأن الحكومة تمنعهم من العمل بالسياسة ، والطلاب لأن مدارسهم تعاقبهم على الاشتغال بها ، والتجار لأنهم يجدون أن من إضاعة الوقت . . وتعريض المال للخسارة الاشتغال بالأمور العامة ، والمزارعون لأنهم لايفهمون ماذا تكون السياسة . ومات والسياسة هى شغل الناس الشاغل ، يقرأون مقالات الصحف فى المدن وفى الريف ، ويسمعون شعر الشعراء ويتداولونه ، والزجل ويروجونه ، ويرون فيه المتعة والنقد . . والفكاهة ؛ والإشاعة تنقل مالا تنطق به الصحف ومالا يقوله الشعر .

بدأ حياته وهو تلميذ صغير ، ثم طالب مبتدئ ليس له من الأعوان إلا عدد ضئيل ، ثم أصبح صديق العظماء والأدباء والشعراء

والسادة والحكام والوزراء . كان من أصدقائه على باشا مبارك ، ولطيف باشا سليم ، ومحمود باشا شكرى ، وحسن باشا عاصم ، وسعد باشا زغلول ، وفتحى باشا زغلول ، وأمين باشا فكرى ؛ ومن الأمراء حيدر فاضل ، ومحمد إبراهيم ؛ ومن الشعراء الشيخ على الليثى ، وأحمد شوقى ، وحافظ إبراهيم ، وخليل مطران؛ ومن زعماء الثورة العرابية عبد الله النديم ؛ ومن الصحفيين بشارة باشا تقلا ، والشيخ على يوسف . . وألوف من شباب الجيل الجديد الذين كانوا طليعة مصر فى جميع الميادين : المحاماة والطب والاجتماع والصحافة والتعليم والاقتصاد ، نذكر منهم الشيخ عبد العزيز جاويش الكاتب والمجاهد والفقيه والمترجم والمربى . وعمر لطفى رائد التعاون والاقتصاد القومى ، وأمين الرافعى الصحفى العظيم . وعبد الرحمن الرافعى المؤرخ الفذ ، ومحمد فريد وجدى الكاتب والمفسر للقرآن والشارح للدين . والحكيم صاحب الموسوعة ، وأحمد لطفى نقيب المحامين القانونى الذى لايشق له غبار ، ومصطفى الشوربجى المحامى ثم الوزير ، وحافظ رمضان الخطيب والقانونى والمؤرخ ، وعبد اللطيف الصوفانى النائب والقائد للعمل السرى ، ومصطفى النحاس القاضى الذى شارك فى ثورة سنة ١٩١٩ ممثلا للحزب الوطنى ، ثم اختير وزيراً فرئيسا لحزب الوفد ، وحافظ عفيفى الذى ذهب مع النحاس ممثلا ثانيا للحزب الوطنى ، والذى أصبح من الشخصيات المؤثرة فى تاريخ مصر الحزبى حتى ثورة سنة ١٩٥٢ ، فى معسكر الرأسماليين والاقتصاديين . وكان من الصف الثانى أحمد وجدى ، وأحمد وفيق ، وسليمان حافظ ، وأحمد فؤاد ، ويحيى الدرديرى ، وعبد الحميد سعيد ، مؤسس جمعيات الشبان المسلمين ، وحسن كامل الشيشينى الاقتصادى ومحمد زكى على المحامى والمستشار والوزير ورائد التعاون فى البترول ، وفكرى أباظة الصحافى الخطيب والمذيع ، ومحجوب ثابت الطبيب الخطيب والرائد العمالى . . إن كلا منهم فى ميدانه وفى الحياة العامة كان قائداً

أو رائداً ومثلا فى الأخلاق .

ومن الأجيال التى نبتت على شجرة مصطفى كامل الباسقة : الدكتور مصطفى الوكيل ، الذى استشهد فى برلين فى سنة ١٩٤٥ ، بعد أن قاد الكفاح العربى فى أدق مراحله وأشق أدواره فى مصر والعراق وتركيا ويوغسلافيا وألمانيا ؛ وكمال الدين صلاح الذى استشهد فى مقديشيو عاصمة الصومال فى ١٦ أبريل سنة ١٩٥٧ بعد أن قاد الكفاح الإفريقى فى إفريقيا نفسها وفى الأمم المتحدة ، فكان طليعة النضال الوطنى ضد الاستعمار الجديد . اتصلا بالعمل الوطنى منذ كانا طالبين فى المدرسة الثانوية ببنى سويف عن طريق كاتب هذه السطور ، وما هو إلا تلميذ من تلاميذ مصطفى كامل ، وما لبثا أن تألقا ولعبا دوراً عالميا ، وقد أطلق اسماهما فى مصر وفى الخارج على الميادين والشوارع والنوادى والمعاهد وأقيمت لها التماثيل .

وأصبحت الحركة الوطنية بفضل مصطفى كامل فى السنوات الست عشرة تياراً دافقاً يجرف فى وجهه ويكتسح أمامه كل الحواجز الواهية التى أقامها الاحتلال وأنصاره ، وكانت تبدو عقبات كأداء وسدوداً عالية لايستطيع الناس لها نقبا . فإذا هى كألعاب الأطفال ، أبنية من ورق . الخديو أمير البلاد نفسه أصبح نصيراً للحركة الوطنية ، يستقبل زعيمها ويستضيف ضيوف هذا الزعيم مثل مدام جولييت آدم ، ولايخاف من المستعمر .

وامتلأت الأندية بالشعراء والخطباء ، وكثرت أسماء المحامين المجيدين والأطباء البارعين ، وبدأت طلائع التجديد فى التفكير الدينى ، بفضل هذه الوثبة ، فى الإصلاح والتحرر ، فيشعر كل جزء فى بناء الأمة ، وكل فرع من فروع حياتها ، بأنه ينتفض . . وعلا قدر مصطفى كامل ، حتى بحساب الألقاب والرتب التى لم تكن على باله ، ارتقى من « أفندى » إلى « بيك » « فباشا » . ارتقى فى هذا السلك لا لأنه جرى

فى ركاب حاكم ، ولا لأنه مرغ جبهته فى تراب سلطان ، بل ارتقى لأنه واظب على محاربة الأقوياء ومقاومة المعتدين . .

وقد أحسنت التعبير عن هذا كله جريدة أجنبية هى « لوكلير » التى كانت تصدر بالفرنسية فى مصر ، والتى كانت معادية لمصطفى وموالية للإنجليز . قالت فى نوبة من الصراحة ، يبعث عليها جلال الموت الذى يحرر النفوس من العداوة ، ولو إلى حين :

« كانت الفكرة السائدة لدى مصطفى كامل ، العارية من كل الشوائب ترمى إلى إحياء الشعور الوطنى فى الشعب ، واعتداده بشخصيته . لقد داعبه حلم انتشال شعب قوامه عشرة ملايين من الأنفس من خمول القرون ، وأن يغير عنصره ، ويسير به من العبودية إلى الحرية . كان حلما ، ولكن ميزة الذين يسبقون عصرهم أن يحلموا ويرفعوا أصواتهم بأحلامهم ، ولا يضعون أفكارهم فى حيز الوقت . . . لاشك أن أشخاصا فكروا فى هذه الأمور ، ولكن أحداً منهم لم يستطع التعبير عنها ، أو أن يهبها الحياة : إن شباب اليوم — بفضل مصطفى كامل — يختلف عن شباب الأمس . إنه يقبل على الدرس بنهم عجيب ، إنه يبحث ويجد ، والصحافة تناقش وتدلى بآراء ؛ والسعى وراء الأفكار الجديدة ظاهر فى كل ميدان » .

وقد قالت جريدة « لينوفل » هذا المعنى بأسلوب آخر : « لتكن لدينا الشجاعة ونعترف بأنه لولا مصطفى كامل لتأخرت الحياة الفكرية فى مصر عدة قرون . لقد أتى بالمعجزة ، معجزة إيقاظ همم مواطنيه وجعلهم يشاطرونه وطنيته ، وبعث الحركة الوطنية . . ما أجمل المشروع الذى وقف له حياته . لقد قيد حرية المحتل ، ولايستطيع المعتمد البريطانى فى هذه الساعة أن يتجاهل المطالب القومية المصرية » .

أما « المانشستر جارديان » البريطانية العتيدة فقد قالت :

« كانت فصاحة ألفاظه وقوة قلمه تكتسح كل شئ أمامها . كان يخلق الشجاعة فى قلوب أشد الناس خجلا . كانت فيه كل صفات الرئاسة : سرعة الخاطر ، وسرعة التفكير ، وفهم حقائق الحوادث ساعة حدوثها فى حين يظل الآخرون ثائرين مندهشين . كان عجيبا فى فهمه للسياسة الأروبية ، وقيمة مختلف الدول ورجال الحكومات وأفكارهم وميولهم وأخلاقهم . . كان أفقه السياسى واسعا وآراؤه دقيقة وواضحة وعقله راجحا . . . »

وقالت « الطان » أشهر جرائد فرنسا تصف عمله المتنوع الغنى المتجدد : « كان يشرف بنفسه على صحفه الثلاث ، ويكتب المقالات ، ويصحح التجارب ، للمطبعة ، ويصدر الأوامر ، ويستقبل الوفود والزوار ، كان يختلس لحظات الراحة التى يتركها له عمله المضنى ليحضر خطبه » . .

لقد كانت حياة مصطفى وخطبه ومقالاته زاداً لكل حركة فى البلاد ، وإن الشعر الذى تغنى به خليل مطران ، وهو يؤبن حافظ إبراهيم سنة ١٩٣٣ ، خير وصف لهذا الأثر :

طرأت حالة تيقظ فيهـــا لدعاة الهـــدى ضمير السواد [١]
مات « حافظ » وقد بث مافى نفســه من تجهم واربــداد [٢]
وبدا للمنى الجلائل فيها أفق واسع المـــدى لارتيـــاد
ماتجلى نبوغــه كتجليــه وقدهب « مصطفى [٣] » للجهاد

سنة ١٩٠٧ :

كانت سنة الختام ، ولذلك كان الفارس يعدو فيها بأقصى مايستطيع ، وكان لحن حياته يتصاعد ويشتد ويعلو ، والشعلة تتقد وتتوهج

---

(١) الشعب
(٢) انقباض واكتئاب .
(٣) مصطفى كامل

قبل أن تنطفئ . إنها صحوة الموت . إنها نذير النهاية، ولكن لا أحد يعلم سوى قلب البطل الملهم : يقول لمراسل جريدة اللواء الفرنسية فى صيف سنة ١٩٠٧ : « إنى أشعر أن المرض قد دب فىّ .ترى هل أعيش حتى أرى أول نجاح لجهودى ؟ ليحقق الآخرون نتائج جهادى ،ولكن ليكن لى وقت كاف للغرس والزرع » .

وعاد إلى بلاده شاحباً ممتقعاً ينوح من أردانه وأعطافه عطر الحياة التى تقاتل لتبقى ، ورائحة الموت الذى يعمل دائبا ليصل إلى غايته .

عاد إلى بلاده ، فاستقبل كما لم يستقبل من قبل ، حتى ضاقت محطة القاهرة على سعتها . ولما وصل دوت الأصوات بهتافات لم تكن معروفة من قبل : « ليحى الرئيس، ليحى صاحب اللواء ، ليحى الباشا» لا أحد يعرف رئيسا سواه ، وليس هناك باشا غيره، وهو لا وظيفة له إلا أنه صاحب اللواء ، وهذا حسبه .

وفى البقية الباقية من سنة ١٩٠٧ تمت أكبر الأعمال الختامية . فى ٢٢ من أكتوبر ألقى أجمل وأطول خطبة فى الإسكندرية : خطبة الوداع . قال فيها أكثر الكلام الذى حفظه الناس وخلدوه وتغنوا به . ألقى الخطبة وهو مريض شاحب ، ولكنه كان ينسى آلامه وأمراضه ، ويستمد من الناس قوة ، فيعلو صوته ، ويتورد لونه ، ويصبح مهيبا رائعا . ثم عاد إلى الفراش ، وجاءته أنباء وفاة صديقه وأستاذه فى الجهاد : لطيف باشا سليم ، فزادت آلامه ، وزاد وجومه وانقباضه . وحينما دعيت الجمعية الأولى للحزب الوطنى فى ٢٧ من ديسمبر نهض إليها سليما معافى ، وعاد صوته إلى الرنين الحاو ، والأداء المتمكن ، وبدا للناس أنه لن يموت . . ولكنه بعد أن عاد إلى الفراش ، أحس أن روحه تتسرب من بين جنبيه ؛ ولكنه لايكاد يجد ميدانا للقتال حتى ينزل وقد لبس درعه ، ووضع لامته، فقد سمع أن وزير خارجية بريطانيا السير « إدوارد جراى » ينكر على المصريين أهليتهم للحياة

الدستورية فأسرع إلى ورقه وقلمه ، وبعث يرد عليه ، ويقول له إن مصر أحق بالدستور من دول أوربية كثيرة .

واستمر المرض فى سيره ، ومدام جولييت لم تنقطع عن القول بأن أعداءه دسوا له السم فى الطعام بعد رحلة فى ١٩ من ديسمبر سنة ١٩٠٦ إلى لندن . لم يكتب لمدام جولييت عن الباعث لسفرته هذه ، ولكنه حينما قابلها بعد هذه الرحلة فى باريس أخبرها أن الخديو عباس علم بأن اللورد كرومر قد نجح فى إقناع الحكومة البريطانية بخلعه ، فرجا مصطفى أن يبذل مساعيه لإبطال جهود كرومر ، ورأى مصطفى أن نجاح كرومر فى مساعيه ، بعد أن عاد عباس إلى صف الوطنيين ، عقب نجاح مصطفى فى حملة دنشواى ، هزيمة للوطنيــة المصرية ، ورضى مصطفى أن يقوم بهذا السعى ، وأفهم السير « كامبل باترمان » أن قرار العزل سيعقد الأمور لهم فى مصر ، ويزيد الهوة بين مصر وبريطانيا اتساعا . وتقول السيدة جولييت إنه بعد إفضائه لهــا بهذا الحديث بدت عليه أعراض مرض عجيب ، ولم يخف طبيبه خوفه على حياته ، ولم يكتم مخاوفه من أن يكون السم قد دس له .

أيا كانت العلة فقد انهد هذا الجسم الضعيف الواهن أمام هذا العمل الشاق . وكان مصطفى يندب حظه لأن الله لم يمنحه جسداً فى مثل قوة روحه وطموحها وحبها للعمل . وآوى المجاهد المريض إلى فراشه فى هذا السرير العالى من النحاس ، وقد تعلقت بأعمدته (ناموسية) بيضاء ، قيدت بشريط من حرير ، وإلى جوار السرير سلم صغير من الخشب غطى بقماش جميل . وفى المبنى الذى تشغله الآن مدرسة عابدين ، فى مواجهة وزارة العدل ، غير بعيد من ميدان لاظوغلى ، تجرع مصطفى غصص الموت وآلام المرض صابراً ، يعاوده الرجاء حينا ، ويداهمه ويدهم الذين يحبونه اليأس أحيانا . .

وفى الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨

تم القضاء . . . ونشرت اللواء فى اليوم التالى النشرة التالية :

توفى إلى رحمة الله مديرنا العزيز مصطفى كامل باشا رئيس الحزب الوطنى المصرى فى تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر أمس . لقد أصيب مديرنا بإغماء فى الصباح أقلق بالنا ، وحوالى الظهر لاح لنا أنه تحسن قليلا ، فاستأنفنا أعمالنا ، وقد كنا قطعناها ، فأنهيناها . ولكن سرعان ماانتكس وخارت قواه تدريجيا . ولفظ أنفاسه الأخيرة عندما كانت تدق الساعة الرابعة » .

ومضت أيام قبل أن يستطيع أخوه أن يصف ماحدث بالضبط ، ولكن بعد مضى عشرة أيام استطاع أن يقول فى رسالة إلى مدام جولييت آدم :

«عانقته وقبلته فى الساعة التاسعة من مساء يوم الأحد ٩ من فبراير بعد أن حادثته ثلاث ساعات ، وكان مليئا بالحيوية والسرور ، ثم تركته لأنام ، وفى صبيحة الاثنين دخلت غرفته كعادتى لأطمئن عليه ، فوجدته لايزال نائما ، وبعد أن فضضت البريد ، ووزعت عمل صحف اللواء الثلاث ، صعدت لأراه ، فوجدته فى صحة جيدة ، وشددت على يده ، وأنا أسأله كيف قضى ليلته ، فأجابنى جوابا مرضيا ، ولكنى لاحظت فى أثناء الحديث أن لونه أخذ يتغير وعينيه تغيبان ، فملئت رعبا ، وسألته عما يؤلمه فأجابنى : تشجع واستمر فى عملك بحكمة »

تشجع واستمر !

ماأليق هاتين الكلمتين بالرجل الذى لخص حياته فى أمرين اثنين لاثالث لهما : الأمل المنبعث من الشجاعة ، أو الشجاعة المنبعثة من الأمل ، والمواظبة والمثابرة . .

تشجع واستمر . .

لكن فى هذه اللحظة لم يكن فى مقدور أحد أن يتحلى بالشجاعة ،

فقد شمل الأمة كلها ، وربما أكثر العرب ، وغير قليل من المسلمين وأصدقاء الحرية فى العالم حزن بالغ واكتئاب قابض . .

صدق « شارل سوفاج » الكاتب الفرنسى إذ قال :

« اعلموا أنى صدى ضعيف من الأصداء المتوالية ، التى ستصلكم من أركان فرنسا التى تستمع إلى قضيتكم . إن فرنسا تعلم اليوم أنها فقدت ابنا من أبنائها ، والدموع الفرنسية تسيل لتختلط بدموعكم فى حزن وأسى مشتركين . إن حدادكم هو حداد الأمم بأسرها إنه مس شغاف القلوب فى جميع الشعوب التواقة للحرية . . . إنه حداد دولى » .

نعم ، إنه حداد دولى ! لو قلناها نحن لاتهمنا بالمبالغة والمغالاة .

ولسنا فى حاجة إلى نقل ماقاله الكتاب والمحررون فى الصحف فى أنحاء العالم وصفا للجنازة ، وتعبيراً عن الأسى لفقدان هذا البطل المحارب المتجرد ، المتسامى عن الصغار ، حتى عن الطعن الجارح ، فى ألد أعدائه ، فقد كان اختفاؤه خسارة إنسانية ، هذه الإنسانية التى تفرح بالأبطال الذين يؤنسون حياة الناس بالأمل فى فضيلة أو شجاعة أو بطولة ، ولكن ننقل مقالة البروجريه لأنها قالت بصراحة عجيبة :

« إذا كنا حاربناه محاربة مريرة ، محاربة كان يحبها ، فإننا لانكن لخصمنا البطل شيئا أكثر من العطف . إنه مات من شدة حبه للوطن ، وإنا نبكى فيه نشاطه وشهامته ، ونبكى فيه شخصيته الجديرة ببكاء الناس عليه » . .

وأحق شئ بأن يوصف هو هذا الذى أحست به مصر كلها ، بلا تدبير ولا تنظيم ولادعوة . كل إنسان أحس بأنه مطالب بأن يترك عمله ، ويلبس الحداد ، ويخرج إلى الشارع . الرجال كالنساء والأطفال ، الأجانب كالمصريين ، وأهل القرى كأهل المدن . . وتدفقت الجموع . ولما أمر «دانلوب » مستشار وزارة المعارف بمنع التلاميذ من ترك المدارس والاشتراك فى الجنازة لم يحفلوا بأمره ولم يخافوا سلطانه ، ووثبوا من فوق

الأسوار العالية ، واقتحموا الأبواب المغلقة . .

ولقد حفظ الناس السطور القليلة التى كتبها قاسم أمين فى وصف شعور المصريين فى حادثتى : دنشواى يوم تنفيذ الحكم : يوم ١٨ من يونية سنة ١٩٠٦ ، ويوم وفاة مصطفى كامل وتشييع الجنازة فى ١١ من فبراير سنة ١٩٠٨ . ولم يكن خلود كلام قاسم أمين لأنه قال شيئا عجيبا ، بل لأنه قال الحقيقة فى كلمات بسيطة :

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ : يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل ، هو المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق . المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى . أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب اللواء فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله ، وانفجرت فرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ، ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر ، هذا الإحساس الجديد ، هذا المولود الجديد الذى خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى تسيل حرارته إلى قلوبنا الجائعة الباردة ، هو المستقبل » .

ولم يعد ثمة مأتم ، إنما هو سيل متدفق ، يحمل فى تلاصق أفراده وتلاحمهم صورة الأمة التى أصبحت شخصا واحداً ، وقد قالت « ليتندار » :

« وعندما بدئ برفع النعش ، خيم الذهول والوجوم على الناس . كان منظر النعش وهو ملفوف بالعلم المصرى يزيد فى الآلام ، ويدفع الجموع إلى البكاء والعويل من شدة الأسى . كان من الصعب تنفيذ تنظيم المشيعين ، بيد أن الأكتاف تلاصقت رويداً رويداً ، وتحركت الآلاف بل الملايين فى خطاها الوئيدة الحزينة » .

وإذا كان قاسم أمين يحب مصطفى كامل فلا يستغرب منه أن يكتب

هذه السطور . فإن سعد زغلول – للمنافسات السياسية – كان يصف مصطفى كامل لفرط حماسته لوطنه . وتطرفه فى الدفاع عن مبدئه ، بأنه مجنون ومخادع ونصاب ، فلا ينتظر منه أن يصف أثر وفاة مصطفى كامل بأكثر مما يستحق ، وقد قال فى مذكراته وهو يحدث نفسه [1] :

« ماوصلت إلى مصر – من رحلة تفتيش فى الفيوم – حتى علمت فوق ماقرأت ، وأصبحت الناس لاحديث لها إلا هذه الوفاة ، وما أصاب الناس من الفزع الأكبر من هولها ، وأكثر الناس من الإعجاب بالجنازة ، ومن كان منهم لايعبأ بالمتوفى حين حياته اهتم لوفاته اهتماما كبيراً ، وعد التفاف الناس حوله ، وبكاء الكثير منهم علامة على تنبه الشعور الوطنى ، ودليلا على نمو الإحساس فى الناس ، وذهبوا إلى أنه هو الذى أوجد هذا الشعور الشريف ونماه ، وافتتحت الجريدة (جريدة أحمد لطفى السيد) وهى من الجرائد المخالفة ، والتى كانت بينها وبين جرائده خلافات شديدة ، اكتتابا لإقامة تمثال له تذكاراً لشأنه ، واكتتب الكثير فيه أول مرة بمبلغ يزيد على خمسمائة جنيه . وقد سارت تلاميذ جميع المدارس الثانوية والعالية والخصوصية فى الجنازة ، كل مدرسة وراء علم مخصوص مجلل بالسواء مكتوب فيه اسمها ، وساد السكوت كأن على رءوسهم الطير ، وعلت أصوات الكثير بالبكاء والنحيب ، وكان التلامذة يحملون بالتبادل النعش على الأعناق ، ونظم كثير من الشعراء والكتاب مراثى فيه ، وأقام الكثير من النوادى والجمعيات والمساجد فى مصر والأرياف صلوات على روحه ، وتواردت الرسائل البرقية والبريدية على الجرائد المخالفة له والمعادية تنعاه وتصف

---

(١) الكراسة (٧) صفحات ٣٠٤ – ٣٤٤ من مذكرات سعد – وكتاب الدكتور عبد الخالق لاشين . – طبعة دار المعارف .

حزن الناس عليه ، وكثير من الأفراد أقاموا مآتم فى بيوتهم واستقبلوا المعزين فيها ، ولبس بعض السيدات لباس الحداد عليه ، وكذلك حمل التلامذة من كل نوع علامة الحداد عليه ، ولم يقصر عن ذلك تلميذات المدارس الثانوية ، وتوقفت معلمات المدرسة السنية عن مشاهدة الألعاب الحربية فى اليوم التالى — فى مهرجان وزارة المعارف الرياضى — لتشييع الجنازة ، لأن الحزن أثر فى نفوسهن فى مشاهدة الألعاب .

« وبالجملة فإنك لاتجلس فى مجلس . ولاتجتمع مع صاحب ، ولا تأوى إلى بيت ، ولا تطالع جريدة ، ولاتسير فى الأسواق ، ولاتركب الترام إلا وتسمع أو تقرأ نبأ عن مصطفى كامل ، ويخيل لك أن كل ماأنت فيه شعور بهذا الرجل وحزن عليه » .

وفى موضع آخر من مذكراته كتب سعد بتاريخ ٣٠ من مارس سنة ١٩٠٨ ، « ولقد بدأت بزيارة المدارس لاكتشاف أحوالها والوقوف خصوصا على أميال الطلبة بعد وفاة مصطفى كامل باشا الذين كانوا يتعبدونه تعبداً » .

وما وصفه سعد زغلول فى مذكراته هو بالضبط ماسعينا لذكره من أقوال مختلف الكتاب والصحفيين والأفراد على اختلاف نزعاتهم وميولهم ، فقد شمل الأمة روح واحد ، صغيرها وكبيرها ، الشبان والشابات ، والعامة والخاصة ، والمؤيدين والمعارضين ، حتى كأنه لم يبق عند الناس فى كل خطوة وحركة وسكنة إلا الحزن على مصطفى كامل ، وشعور باليتم والخسارة لغيابه .

وهذا هو أعظم ماحققه مصطفى كامل من نجاح .. هذا الشعور الواحد المشترك الذى يجمع الأمة جميعا ، هو الشعور الذى حاول مصطفى كامل أن يوجده ، وكان يتمنى أن يوجد ، وأن يقوى ، وكان يقول إن « الشعور » هو رأس مال الأمم المحاربة من أجل استقلالها ، وربما أحست مصر بمثل هذا الشعور فى مناسبات أخرى ، كيوم اعتقال سعد

وأصحابه الثلاثة ونفيهم إلى مالطة فى مارس سنة ١٩١٩ ، ويوم عودته فى ٤ فبراير سنة ١٩٢١ ، ويوم وفاته وتشييع جنازته فى ٢٤ أغسطس سنة ١٩٢٧ ، ويوم جنازة محمد فريد فى سنة ١٩١٩ ، ولكن هذا الإجماع فى الرأى ، وهذا الاتحاد فى الشعور ، جاء بعد يوم تشييع جنازة مصطفى كامل ، فهو ثمرة هذا اليوم وصداه ، كنا نقول إن يوم وفاته كان يوما من أيام انتصاراته وإنه كان البداية لا النهاية والميلاد لا الموت ، كان كلامنا هذا تاريخا ، لا شعراً ولا خيالا . .

وبذلك يكون مصطفى كامل قد حقق انتصاراً قبل أن يموت ، أو يوم أن مات . . وبقيت روحه تبعث على الثورة ، ويذكر اسمه ومنهاجه وأسلوبه كلما أحدقت بمصر المخاطر ، واشتدت حولها المكايد . . تلقف منه محمد فريد اللواء ، فاتسع نطاق الحركة الوطنية . وأصبحت أشد رغبة فى التصادم مع السلطات المغتصبة لحقوق الشعب ، بالمظاهرة والإضراب ، وأخيراً بالسلاح مما أخاف الخديو والإنجليز منها ، فاشتد اضطهاد هذه السلطات لفريد وأعوانه من الوطنيين ، فتعمق شعور الشعب بالوطنية لاحتياجها إلى التنظيم والتوسيع ، فنبتت فكرة النقابات العمالية والنقابات الزراعية ، والمطالبة بحقوق الفلاحين ، وإعادة النظر فى نظام الضرائب ، والتشديد فى مطالبة الحكومة بالدستور . . .

وهكذا أصبحت الحركة الوطنية قوة ضاغطة لا يمكن مداعبتها أو السكوت عليها ، فصدرت قوانين للمطبوعات وللإجراءات الجنائية كلها تهدف إلى التضييق من حرية الصحافة والكتابة والاجتماع وإخافة الصحفيين والكتاب وإلقاء الرعب فى قلوبهم ، ولكن بقيت أصواتهم مرتفعة ، ولم يحل السجن دون موالاة المطالبة بحقوق الشعب . فلما وقعت الحرب العالمية الأولى ، فى سنة ١٩١٤ ، وكان فريد فى منفاه الاختيارى فى الخارج يتنقل بين تركيا وسويسرا وألمانيا ، لجأ تلاميذ

فريد ومصطفى إلى العمل السرى ، لأن الأحكام العرفية التى أعلنت عقب نشوب الحرب منعت كل وسيلة من وسائل إعلان الرأى ، كالصحافة والاجتماعات والمنشورات ، فوقعت محاولتان لقتل السلطان حسين الذى عينه الإنجليز بعد عزل الخديو عباس ، كما شرع فى قتل إبراهيم باشا فتحى وزير الأوقاف فى محطة مصر فى الرابع من سبتمبر سنة ١٩١٥ : ووصلت هذه الأنباء إلى محمد فريد فكتب فى مذكراته : « هذه الجناية تدل على أن الأفكار الإرهابية تسربت من الشبان إلى من هم أكبر منهم سنا ، وتدل على أن التذمر والفكرة الثورية عمت أو ستعم قريبا جميع الطبقات » ، وهو ماتحقق فعلا بعد ذلك اليوم بثلاث سنوات .
وكان محمد فريد لاينفك يفكر فى الثورة ويحضر لها ، ويحرض أعوانه فى مصر عليها ، فقد كتب فى مذكراته يوم الاثنين ٣ من مايو سنة ١٩١٤ : « قابلنا مسيوزمنيس سكرتير عام وزارة الخارجية الألمانية ، وتكلمنا كثيراً بخصوص إرسال أسلحة لمصر » . وفى ٤ من يونيو سنة ١٩١٤ كتب فى مذكراته « أنه سئل من اثنين من شبان الحزب الوطنى : ماذا نفعل لو انتصرت بريطانيا ؟ فأجاب فريد : نجتهد حينذاك فى تجهيز الثورة فى مصر » .

ففكرة الثورة لم تغب عن باله ، فما كادت الحرب تضع أوزارها ، وعاد إلى الأسماع آخر ماقاله لمصر مصطفى كامل ومحمد فريد ، حتى كان ذلك وقوداً للثورة ، فانطلقت من عقالها ، تدهس حتى قادتها الذى تسلموا زمامها ، فقد حسبوا أن مصر ، وقد أنهكت خلال الحرب من كثرة ماتحملت من ظلم السلطة البريطانية وعسفها ؛ وإرهاب الناس بالسجن والاعتقال والنفى ونهب الأرزاق وتكميم الأفواه ، مع خروج بريطانيا منتصرة على الأعداء ، واحتشاد الألوف من جنودها على أرضها ومائها ، ستكون أبعد ماتكون عن فكرة الثورة ، وهذا منطق صحيح لولا أن للشعب منطقا يعلو على الواقع ويتحدى الحقائق :

ويحلق فى سماء الأمل ، كل مايقيده ، مجازفا بالمال والروح . .

وبذلك تكون روح مصطفى كامل قد حققت الثورة الثانية ، ثورة سنة ١٩١٩ التى كشفت فيها مصر عن روحها العظيمة، بما بذلت وتحملت ، وبما كشفت عن قدراتها المخبوءة فى التنظيم والتدبير والمثابرة .

فلما كانت الثورة الثالثة فى سنة ١٩٥٢ رفرفت روح مصطفى كامل فى عليائها ، ذكرها الذاكرون ، فكان أول ماعملته الثورة تقديراً لهذه الروح أن محت اسم مصطفى باشا عن ثكنات الاسكندرية العسكرية التى كان الإنجليز يحتلونها وأسموها ثكنات مصطفى كامل ، ثم نقلت رفاته فى ١١ من فبراير سنة ١٩٥٣ العام الثانى للثورة إلى ضريحه بالقلعة، وفى السنة نفسها نقلت رفات زميله وخليفته فى ١٥ من نوفمبر ليرقدا معا ، كما عاشا معا . ثم اطلق اسماهما على المدارس والشوارع والمسارح والقاعات ، واتخذ من قول مصطفى وخطبه الأناشيد والأغانى الوطنية وترنم بها الشباب والرجال .

فوفاة مصطفى لم تكن وفاة ، لم تكن نهاية . لم تكن خاتمة المطاف، بل كانت ميلاداً وبداية وبعثاً . . .

محتويات الكتاب

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٥٢٣ / ١٩٧٤

مطابع دار المعارف بمصر – ١٩٧٤

